مَحمُود عَوَض

مُتمرّدُون لـوَجْهِ اللّه

ابن حزم
ابن تيميّة
رفاعة الطهطاوي
جمال الدين الافغاني
عبد الله النديم

دار الشروق

مُتمرِّدُونَ
لِـــوَجْهِ اللهِ

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

الطبعة الثانية

١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ

© دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4, TELEX: SHOROK 257789

مَن يُصبح حرًّا مرّة .. يظلّ حرًّا طوال العمر

محمود عوض

مقدمة

قال الضابط الكبير لزميله : لقد جئت لأفتش على قواتك .. وأنا أعرف كم أنت ترى أن وجودي هذا غير مرغوب فيه ، ولكن .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لقد تلقيت من الحكومة أمراً بأن أحضر ، فأطعت .. انني طوال حياتي كنت مطيعاً .. وبهذه الطريقة أصبحت مارشالاً ..

ولم يعلق أحد على كلمات الضابط الكبير العجوز ، فالكل يعرف من البداية أنه فعلاً إنسان مطيع .. ليس فقط لرؤسائه .. ولكن للواقع أمامه .. فالطاعة والتمرد هما من الصفات الشاملة التي تتسرب إلى كل علاقات الإنسان بالناس والأشياء .

ثم أصبح هذا الضابط وزيراً للدفاع ، وبالتالي مسؤولاً عن الأمن العسكري لبلاده .

وجاءت التقارير إلى الوزير تقول : إن في ألمانيا الآن زعيم نازي متعصب ، هو أدولف هتلر ، وهو الآن يريد أن يثأر لبلاده من فرنسا .. جزاء انتصار فرنسا عليها في الحرب العالمية الأولى .

وهز وزير الدفاع العجوز رأسه قائلاً : لا تصدقوا هتلر .. انه يرفع شعارات لمجرد الاستهلاك المحلي !

بعد أسابيع عاد المرءوسون يحملون تقارير جديدة تقول : إن هتلر يعيد تنظيم الجيش الألماني ، وهو يعتمد على سلاحين بالذات .. هما الطائرة والدبابة ..

عاد وزير الدفاع ، المجرب والخبير والعجوز والمطيع ، يقول : « هذا كلام فارغ لا يجب أن تنزعجوا له .. ان « الطائرة ، برغم جناحيها ، تتساقط دائماً على الأرض .. والدبابة هي مجرد مركبة لا تمثل أية خطورة في الحرب » !

ودخل عليه ضابط صغير ، برتبة كولونيل ، يقول له : سيدي .. ان الدبابة والطائرة سوف تكونان سلاحي الحرب القادمة .

هز الوزير ، المجرب والخبير والعجوز والمطيع ، رأسه مستنكراً كلمات الضابط الصغير ، وقائلاً بحسم : من قال لك أولاً أن هناك حرباً قادمة ؟ أنت لا تفهم شيئاً في الحرب .. أنت ما زلت مجرد طفل !

كان هذا «الطفل» في الخمسين من عمره .. وكان اسمه «شارل ديجول» !

وكان الوزير ، المجرب والخبير والعجوز والمطيع ، اسمه «هنري فيليب بيتان» .

ولأن هذا الوزير يقدر الطاعة قبل أي شيء آخر .. فقد أوصى بحرمان الضابط الصغير شارل ديجول من الترقية .. عقاباً له على عدم طاعته !

ثم مرت سنوات قليلة ، قاد فيها بيتان ، المجرب والخبير والعجوز والمطيع ، اتجاهاً داخل الجيش الفرنسي يطلب في البداية تجاهل هتلر . وعندما أصبح هذا التجاهل مستحيلاً ، بدأ يطلب الحياد مع هتلر .. ثم السلبية مع هتلر .. ثم ، أخيراً ، استرضاء هتلر .

ولكن شهية هتلر أصبحت مفتوحة للغزو ، بعد أن استولى على النمسا ، ومزق تشيكوسلوفاكيا ، ودمر بولندا .

الآن يستدير هتلر إلى فرنسا نفسها !

إنها الحرب العالمية الثانية ، وجيوش هتلر قد بدأت تغزو فرنسا .

واستدعت الحكومة الفرنسية ضابطها المجرب والخبير والعجوز والمطيع ، المارشال بيتان ، لكي تسأله النصيحة . وكانت نصيحته هي : يجب أن نطيع هتلر ! فالحقيقة هي أنه الآن أقوى منا !

ولم تكن تلك النصيحة مفاجئة ولا غريبة ، من شخص اعتاد طول حياته على الطاعة ، في البداية هو يقدم طاعته الكاملة لأشخاص .. في النهاية يقدمها للأمر الواقع .

لقد كان المارشال بيتان رمزاً لمناخ عام انتشر في فرنسا كلها . مناخ خلاصته : طالما انه لا قبل لنا بهتلر .. فيجب اذن أن نستسلم له !

وبتعبير وزير آخر في الحكومة الفرنسية وقتها ، حينما قال : «إنني أفضل أن أتلقى ركلة في مؤخرتي .. عن أن أتلقى رصاصة في رأسي» !

وكان معنى ذلك أن الذين آمنوا من البداية بضرورة التجاهل مع هتلر .. يطالبون الآن بضرورة الطاعة لمطالبه .. وكفى الله المؤمنين شر القتال !

وفجأة عاد الضابط الصغير شارل ديجول إلى الظهور . لقد كان يرفض من البداية منطق الاستسلام للأمر الواقع ، وهو الآن يرفض منطق الطاعة لرئيسه وزير الدفاع .

ورفض الضابط الصغير أن ينفذ أوامر رئيسه !

لقد استقل طائرة واتجه بها إلى بريطانيا بمفرده . لا .. ليس بمفرده تماماً .. فكما قال الزعيم البريطاني الراحل ونستون تشرشل وقتها : « في ذلك اليوم كان شارل ديجول يحمل معه في الطائرة .. شرف فرنسا » .

نعم ، ترك الضابط الصغير أسرته ومنزله ومرتبه المضمون وحياته المستقرة وترقياته المحتملة ، لكي يسافر إلى المجهول حاملاً معه شرف فرنسا .. ولكن الضابط الكبير ، المجرب والخبير والعجوز والمطيع ، كان يحمل في عقله شيئاً آخر ، هو : واقع فرنسا .

لقد أعلن الضابط الصغير ، المتمرد على الواقع ، بدء المقاومة الفرنسية ضد العدو الألماني ، من خارج فرنسا . أما الضابط الكبير ، المطيع للواقع ، قد شكل حكومة بسرعة ، مقرراً على الفور الاستسلام للعدو الألماني .. على أرض فرنسا .

وانشقت فرنسا على نفسها – لأربع سنوات وهي منشقة على نفسها .

إن الأغلبية كانت تقف مع المارشال بيتان في تبريره للاستسلام تطبيقاً لنظرية « انقاذ ما يمكن انقاذه » .. والأقلية الضئيلة جداً هي التي وقفت مع الضابط المتمرد شارل ديجول ، المحكوم عليه بالاعدام ، في إيمانه بضرورة « الحرب بما يمكن توفيره » .

انشقت فرنسا على نفسها بين الرجلين – رجل يقدس الطاعة للأمر الواقع .. ورجل يتمرد على الأمر الواقع . الأول يرى أمامه واقعاً لا بد من الاستسلام له .. والثاني يرى أن تغيير هذا الواقع يبدأ من التمرد عليه . الأول يؤمن بأن الإنسان (ومن ثم .. المجتمع بأكمله) لا يساوي أكثر من قيمته المعلنة في السوق .. بينما

الثاني يؤمن بأن الإنسان (ومن ثم المجتمع بأكمله) تبدأ قيمته أولاً من ارادته .. وروحه .. وإيمانه بمجتمعه .. وبعدالة قضيته .. وتمسكه بمبدأه .

في النهاية انتصر المبدأ .. على الواقع .

وبعد أربع سنوات من النضال والمقاومة والدماء .. دخل الضابط الصغير المتمرد شارل ديجول إلى باريس بعد تحريرها من الإحتلال الألماني .. ولقي الضابط العجوز والمطيع بيتان مصيره مع زوال الاحتلال الألماني .

لقد دار الزمن دورة كاملة في أربع سنوات .. بحيث أصبح الشخص المطيع – الذي رأى في بلده من البداية الجزء المريض – مهزوماً .. بينما الشخص المتمرد – الذي رأى في بلده الجزء الشامخ – منتصراً .

ولكن الحياة لا تحقق غالباً مثل هذه الدورة الكاملة .. في مثل تلك المدة القصيرة .

الحياة تحتفظ للمتمردين غالباً بعذاب أكبر من ذلك ، وزمن أطول من ذلك ، قبل أن تصحح لهم رؤية الناس عنهم .

الحياة والبلاد والمجتمعات .. تنتشر فيها أحياناً أقراص فكرية وسياسية لمنع الحمل – أقراص ضد التمرد والمتمردين ، ضد الحمل بأفكار جديدة .. وتحديات جديدة .. وقضايا جديدة .

يحدث أحياناً أن تختار مجتمعات بأكملها راحة البال .. مضحية في ذلك بضرورة التطور .

يحدث أحياناً أن تستسلم مجتمعات بأكملها لمرض اسمه الرضاء عن النفس .

وفي مثل تلك اللحظات ، يحتاج كل مجتمع إلى عدد من أعضائه يقومون بمهمة دق جرس الخطر . جرس الإنذار . الإنذار ضد خطر الاستسلام للأمر الواقع ، والرضا بما هو قائم ، والإيمان بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان .

عن مثل هؤلاء الأفراد .. الذين يواجهون مجتمعات بأكملها بالحقيقة .. يدور هذا الكتاب .

إنه كتاب عن : أهمية أن يتمرد الإنسان ضد فساد ونفاق عصره ومجتمعه . ضد

الرضاء عن النفس . ضد الإستسلام إلى الواقع . ضد مبدأ « انقاذ ما يمكن انقاذه » .. الذي يتحول دائماً إلى « التفريط بما يمكن التفريط به » .

والقضية ، بهذا المعنى ، هي قضية كل فرد .. وكل مجتمع .. وكل عصر .

إن المجتمع هو ، كالفرد ، لديه استعداد للخير والشر معاً .. للصمود والاستسلام .. للواقع والخيال .. لتحقيق الأفضل والرضا بما هو أسوأ . والمجتمع هو ، كالفرد ، يسمو ويرتفع ، بقدر إصراره هو ، وإرادته هو ، في تغيير واقعه إلى الأفضل . اننا نستطيع إذن أن ننظر إلى نفس كوب المياه ، بعضنا يرى نصفها الفارغ .. وبعضنا يرى نصفها المليء .

فمن الواقع يبدأ التمرد .. ومن التمرد يبدأ التغيير .

إن التمرد هنا ليس هو كل شخص يتحدى الأمر الواقع .. فاللص والقاتل والمختلس ، هم أنماط متمردة على القانون .. وهم بتمردهم هذا يتحولون إلى قوة لكيان المجتمع نفسه .

لا .. ليس هذا هو التمرد .

إن التمرد الذي يتناوله هذا الكتاب .. هو أولاً التمرد لحساب قضية عامة ، وليس لمنفعة فردية . وهو تمرد لحساب مجتمعنا بأكمله ، وليس لحساب نزوة فرد أو طمع فئة . وهو أخيراً تمرد يستهدف في النهاية زيادة كفاءة مجتمعنا على التعامل مع تحديات عصره .

إن التمرد ، بهذا المعنى ، هو أقصى درجات الإيمان بمجتمعنا وبلادنا . الإيمان بأنها تستطيع أن تصبح أفضل ، وأقوى ، وأكفأ ، وأقدر ، وأسمى ، وأصدق .. مما هي عليه فعلاً .

والمتمرد ، بهذا المعنى ، يدفع بالضرورة ثمن قضيته العامة من حياته الشخصية . إنه واع من البداية إلى ضرورة التضحية ، وربما إلى فداحة هذه التضحية ، ومع ذلك فهو يقبل راضياً أن يجعل من نفسه قرباناً لافتداء مجتمعه . وإلى أن ينجح في ذلك ، إذا قدر له أن يعيش ليرى نجاحه ، فإن عليه أن يتحمل آلاماً لا تطاق .. وعذاباً بلا حدود .

وكل منا هو متمرد للحظة أو أخرى .. ولكن بعضنا فقط هو الذي يصنع من

هذا التمرد طاقة ايجابية دائمة لخدمة مجتمعه وبلده . والمجتمعات التي تغلق من البداية كل الأبواب أمام التعبير عن هذا التمرد .. إنما تحكم على نفسها مسبقاً بالموت البطيء .. وتختصر عقول أفرادها .. وتضبط حياتهم على صفارة .

نحن نجري على صوت صفارة .. ونتوقف على صوت صفارة .. ونزحف على الأرض عند سماع الصفارة .. ونصفق مع الصفارة .. وننام على صوت الصفارة ! نحن في الواقع تم تدريبنا من البداية على أن نعيش ونفكر ونموت .. بمجرد أن تخبرنا الصفارة بذلك . ان الصفارة تحذرنا من أن نشك ، أو نتردد ، أو نفحص ، أو نفكر ، أو نسأل أية أسئلة .. لأن كل الإجابات قد تقررت سلفاً .. ووضعها من يملك الصفارة !

ولكن ، الآن علينا أن نثير كل الأسئلة .. ونطرح عالياً كل علامات الاستفهام .

آن علينا أن نفعل ذلك .. لأنه لا بد من أجوبة جديدة على كل الأسئلة ، وفي مقدمتها سؤال هام وأساسي ، هو : كيف يجب علينا أن نعيش ؟ لا .. ليس هذا هو السؤال .. وإنما السؤال هو : كيف يجب علينا أن نعيش .. أحراراً ؟

إن الإنسان هو حيوان سياسي . وهو بهذه الصفة ، له هدفان عظيمان في هذه الحياة : أن يحفظ ذاته .. وأن يحترم نفسه .

إن حفظ الذات ، أو الشعور بالأمن ، يتصارع غالباً مع الشعور بالاحترام .. فكثيراً ما يكون الطريق إلى كل منهما متقاطعاً مع الآخر . في هذه الحالة .. ربما يختار الإنسان أن يضحي باحترامه لنفسه لكي يحافظ على حياته .. أو يختار التضحية بحياته لكي يحافظ على احترامه لنفسه . اننا جميعاً نقدر النوع الثاني من الاشخاص عن النوع الأول .. وهذا معناه أن الهدف الأسمى للإنسان هو الكرامة الإنسانية . ان هذه « الكرامة » لها مفهوم مختلف عند كل شخص .. ولكن في النهاية ، فإن الشرط الجوهري لاحترام الإنسان لذاته هو : الحق في الاختيار .

إن الحرية هي ، بالطبيعة ، حق الإنسان في الاختيار .. وبغير وجود القدرة على ممارسة هذا الاختيار .. لا توجد حرية .

والمشكلة التالية هي أنه لا توجد حرية بغير أحرار يدافعون عنها . فالحرية تظل

مجرد كلمة ، إذا لم يكن هناك جنود يتمسكون بها ويضحون من أجلها . وبغير هؤلاء .. فان الحرية ، ككلمة ، لا تملك قدرة ذاتية على أن تفرض نفسها على الواقع .. خصوصاً إذا كان هذا الواقع قائماً على تنمية قدرة الإنسان في التصفيق بدلاً من النقد .. والرضاء عن النفس بدلاً من الارتفاع بالنفس .. والطاعة بدلاً من التمرد .

إن التمرد هو بطبيعته احتجاج وتأكيد .. في وقت واحد .

انه احتجاج على فساد ونفاق عصر ومجتمع ، وبهذه الصفة فان الاحتجاج ليس حقاً فقط .. ولكنه واجب علينا . ان الاحتجاج هو جزء كامن في التجربة الإنسانية . فمن اللحظة الأولى لولادتنا .. نحن جميعاً نولد بصرخة احتجاج في أفواهنا . ان بعضنا يكتفي بها .. ولكن بعضنا لا يتوقف عن الاحتجاج بطريقة أو بأخرى من لحظة ولادته .. حتى لحظة موته .

ومن ناحية أخرى فإن التمرد هو تأكيد أيضاً . انه أولاً تأكيد بأننا ما زلنا مؤمنين بإمكانية خلق مجتمع أفضل .. وهو إيمان أكيد ، ومجتمع أفضل .. إلى درجة تستحق منا أن نتعذب ، وأحياناً نموت ، من أجله .

لهذا أقول وأكرر إن التمرد هو أقصى درجات الإيمان بالمجتمع ، والتفاؤل بمستقبله . فالشخص المعادي للمجتمع ، لن يكون حريصاً مطلقاً على أن يصرخ ، ويدعو ، ويعلن ، ويقنع بأفكاره . انه بدلاً من الاحتجاج العلني سوف ينغمس في ارهاب أو جريمة أو تآمر في الظلام . انه منفصل ، ولأنه كذلك .. فلا بد أن ينافق صباحاً ويتآمر ليلاً .

وطالما أن المتمرد يجب أن يكون حريصاً على العلانية ، والإقناع ، والدعوة إلى الإيمان بالمستقبل .. فان طريقه لا بد أن يتقاطع أحياناً ، وغالباً ، مع الأمر الواقع . مع سلاسل الأمر الواقع ، وجبروت السلطة . فلأن السلطة قوية ولها عضلات وأنياب ومخالب .. فإنها تتصور أنها حكيمة بقدر ما هي قوية . وهي قوية بقدر تتابع ضحاياها . وضحاياها يتتابعون لأن ضعفهم هو دليل اداناتهم . لهذا لم يكن غريباً مثلاً .. ذلك الرد الذي وجهه الزعيم السوفيتي الراحل جوزيف ستالين ، عندما أخبره رفاقه عن احتمال أن يعلن البابا في روما معارضته لأحد قرارات ستالين .

لحظتها تساءل ستالين متهكماً : حسناً .. كم فرقة مسلحة يملكها البابا ؟!

بالطبع .. البابا لا يملك قوة مسلحة . ولأنه كذلك .. فان احتجاجه أو رفضه لا قيمة له – هذا هو رأي ستالين !

فالكلمة الأخيرة اذن هي حق يحتكره الطرف الذي يمتلك القوة – تلك نظرية كان انتشارها هو دائماً مقدمة إلى أسوأ أنواع الطغيان والديكتاتورية والتسلط على أفكار الناس ومصادرة احتجاجاتهم .

ولكن للتاريخ رأياً آخر .

إن التاريخ يخبرنا بأن كل الإنجازات الرائعة في حياتنا الآن .. تمت بفضل أناس تمردوا في الماضي . وطوال تمردهم كانت السلطة تضطهدهم ، أو تحاربهم ، أو تقتلهم في بعض الأحيان .

إنني لا أتحدث هنا عن طائرة أو تليفون أو تليفزيون .. وكل تلك الأشياء التي هي أدوات للحضارة وليست الحضارة ذاتها .

أتحدث عن الذين أعطوا للإنسان صورة جديدة عن نفسه .. وسماء مرتفعة يحلق إليها .

أتحدث عن الذين تمسكوا دائماً باثنين على الأقل من المثل العليا : الحقيقة .. والحرية ، اننا بغير حرية لا نستطيع السعي إلى الحقيقة .. وبغير الحقيقة .. تصبح حياتنا مجرد تسجيل أقدمية زمنية .

ولقد كان السؤال المستمر دائماً في التاريخ الإنساني هو : إلى أي حد يستطيع الإنسان أن يضحي بحريته ثمناً لرغيف من الخبز ؟

إن الكاتب الروسي « فيودور ديستوفيسكي » يطرح هذا السؤال بقسوة على لسان المفتش العام في روايته « الأخوة كارامازوف » .. عندما يوبخ هذا الذي يفكر في أن يقدم للناس الحرية التي يخشونها بدلاً من الخبز الذي يريدونه . لقد تساءل ديستوفيسكي على لسان أحد أبطال القصة بصوت مرتفع : ماذا تساوي الحرية .. إذا كنا سنشتري الطاعة بالخبز ؟

إن هذا هو أيضاً عكس التساؤل الكاذب الذي طرحه جان جاك روسو ، عندما قال : « إن الإنسان يولد حراً .. ولكنه مكبل بالسلاسل في كل مكان » ..

أو «الناس يجب ارغامهم على أن يكونوا أحراراً» . لا . الناس لا يجب ارغامهم . الناس يجب فقط تنبيههم إلى أهمية أن يكونوا أحراراً .

الناس يجب تنبيههم ، ليس بالعضلات ولا بالسلاح ، ولكن بتذكيرهم بأننا إذا كنا نريد لجيلنا أن يكون أفضل من أجيال سابقة .. فإن نقطة البدء هي أن نؤمن بالحرية أكثر وأعمق منهم . نؤمن بالحرية ، ليس باعتبارها أكثر ربحاً من غيرها .. فهي قد لا تكون كذلك .. وليس لأنها وسيلة ، فالواقع اننا إذا ابتغينا الحرية باعتبارها وسيلة لأي هدف آخر .. نكون بالفعل قد خسرناها .

ولكن ما يحدث ، كثيراً وغالباً ، هو أننا نخسر حريتنا . ونحن نخسرها أكثر كلما أصبح رضاؤنا عن أنفسنا أكبر . ورضاؤنا عن أنفسنا يصبح أكبر ، كلما صادرت السلطة في مجتمعنا قدرتنا على الاحتجاج والتمرد .

ولماذا نذهب بعيداً ؟

إن مجتمعنا العربي كله قد فقد نهضته يوم فقد حريته . يوم انزلق إلى حالة دائمة من الرضاء عن النفس . يوم تسرب إليه من الداخل اقتناع بأن التمرد هو ترف لا ضرورة له .

من يومها تراكم في داخلنا خوف متتابع من التمرد . في البداية كانت السلطة تزرع هذا الخوف تصوراً منها أن الهدوء هو الأمن .. والصمت هو السلامة . أمن حكام وسلامة سلطة .. وليس سلامة مجتمع . في النهاية أصبحنا نخشى التمرد لأننا نخشى الأفكار المختلفة ، فـ «ما نعرفه أحسن مما لا نعرفه» كما تقرر أمثالنا الشعبية . لقد أصبحنا نحس بالاطمئنان أكثر مع ما هو مألوف لنا ، ونحس بعداء غريزي لكل ما هو جديد علينا أو مختلف عن أفكارنا . في النهاية ، أيضاً ، أدى هذا إلى اشاعة حالة من الكسل العقلي داخل مجتمعنا . كسل .. تصورناه توأماً لراحة البال .

ولكننا دفعنا غالياً ثمناً لراحة البال .

دفعنا تأخراً ، وتدهوراً ، وجموداً ، وفشلاً في مواجهة التحديات التي يطرحها علينا عصرنا . دفعنا الثمن دماء من مواطنينا .. وفقداناً لاستقلالنا .. واحتلالاً لأراضينا . وفي النهاية ، نهاية النهاية ، أصبح هناك من يطلب منا التهادن مع الواقع

لإنقاذ ما يمكن انقاذه .. وهي العلامة الأخيرة لأناس قرروا الانسحاب من عصرهم ، والاستسلام لواقعهم ، والتنازل عن أحلامهم .

والآن .. حان الوقت لكي ندفع ببندول الساعة إلى الاتجاه الآخر .

حان الوقت لكي نؤمن بأننا ، أفراداً ومجتمعات ، يجب أن نكون أفضل .. وأقوى .. وأكثر إيماناً .. مما نحن عليه . أكثر إيماناً بأنفسنا أولاً .. وبقدرتنا على صنع مستقبلنا بأيدينا ثانياً .. وبأن هذا المستقبل لن يولد إلا إذا حلمنا به ، وسعينا إليه ، ودفعنا الثمن الضروري من أجله .

لماذا إذن ، طالما اننا نفكر في المستقبل ، نتحدث في هذا الكتاب عن الماضي ؟ عن التاريخ ؟

لسبب بسيط : إن دارس التاريخ هو سياسي أدار وجهه إلى الخلف .. بينما المفكر السياسي هو مؤرخ حوّل وجهه إلى الأمام .

إن التاريخ هو بالضرورة سجل بسلوك البشر . وإذا لم يكن هذا السلوك في الماضي محلاً للدراسة والفهم والفحص والتأمل .. فاننا نصبح مهددين بعدم الاتجاه إلى مستقبل أفضل من الماضي ، ولكن إلى نسخة كربونية أخرى من هذا الماضي .

التاريخ إذن يعطينا على الأقل حالات تاريخية ، تصبح مادة للفحص والاختبار.

نحن إذن سوف نتناول في هذا الكتاب خمس شخصيات في تاريخنا العربي ، الإسلامي ، باعتبارها أولاً حالات للفحص والإختبار . حالات هي مجرد نماذج لما يمدنا به التاريخ . حالات .. فيها من الشمول بقدر ما فيها من الخصوصية . فنحن نحتاج إلى التاريخ في شموله ، ليس لكي نكرره.. ولكن لكي نفهمه .

نحن لا نريد أن نعيد التاريخ ، كأتباع الفيلسوف الألماني هيجل .. ولا نريد أن نتجاهله كالفوضويين .. ولا أن نتعسف في تفسيره ، كالماركسيين .

نحن لا نريد إعادة كتابة التاريخ .. وإنما نريد أولاً أن نفهمه .

من هنا فإن هذا الكتاب يتناول شخصيات خمس من تاريخنا العربي والإسلامي . ان هذه الشخصيات قد لا تبدو مترابطة زمنياً .. فبعضها عاش في القرن الحادي

عشر (كابن حزم) .. أو الثالث عشر (كابن تيمية) .. أو القرن التاسع عشر (كرفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم) .

وهذه الشخصيات قد تراوحت أعمارها .. بعضهم امتدت حياته إلى سن الثانية والسبعين .. وبعضهم اختصر القدر حياته إلى سن الحادية والخمسين .

وهذه الشخصيات منها من ولد في سوريا .. ومن ولد في الأندلس .. ومن ولد في أفغانستان .. ومن ولد في مصر .

وهذه الشخصيات منها من كان الدين هو وسيلته الأولى لإعادة بناء المجتمع .. ومنها من كانت اعادة بناء المجتمع هي وسيلته إلى رفع لواء الدين .

هذه الشخصيات الخمس ، هم اذن مختلفون من حيث العصر ، والبيئة ، والوسيلة ، والحدود الزمنية والعقلية والسياسية .

مع ذلك .. فانهم جميعاً يتفقون في أشياء أخرى أكثر أهمية .

فمن الناحية المبدئية ، هم ولدوا وعاشوا في عصر من الخطر الحاسم . خطر الغزو من الخارج .. أو خطر الإنهيار من الداخل . إن ابن تيمية مثلاً ، ولد وعاش في عصر جاءت فيه أوربا الينا حاملة سلاحها لكي تغزونا ، في أول حرب عالمية حقيقية يعرفها التاريخ . ليس هذا فقط .. بل جاء المغول والتتار يزحفون لغزو أراضينا .. فأصبح مجتمعنا (سواء نظرنا إليه في اطار عربي أو في اطار إسلامي) محاصراً بخطرين من الشمال والشرق .

وابن حزم ، ولد وعاش في ظل خطر يهدد الدولة العربية الإسلامية في الأندلس . خطر التفكك والانقسام . خطر الإنهيار من الداخل ، وهو ما حدث فعلاً فيما بعد .

ورفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم .. ولدوا وعاشوا في قرن عاد فيه الخطر من جديد . عادت أوربا الينا ، وهي في هذه المرة أكثر تفوقاً ، لكي تسوي حساب هزائم القرن الحادي عشر .

وفي كل تلك الحالات كان العصر هو عصر تحدي . وكانت هـذه الشخصيات الخمس هي تعبير عن نوع استجابتنا لهذا التحدي .

ومن ناحية أخرى .. فإن ما يربط بين هذه الشخصيات الخمس هو أنهم كانوا

متمردين على واقع مجتمعنا . متمردون لوجه الله . ليس لحساب أنفسهم ، ولا لحساب فئة هنا أو هناك ، ولكن لحساب مجتمعهم بأكمله . لقد رأوا الواقع أمامهم مخيباً للآمال .. ولكنهم تمردوا على هذا الواقع بهدف تغييره ، لكي يصبح محققاً لكل الآمال . انهم في تمردهم هذا ، كانوا في الحقيقة أكثر إيماناً بمجتمعنا من السلطة القائمة فيه . أكثر إيماناً بقدرتنا على تغيير الواقع ، وإعادة صناعته ، والارتفاع إلى مستوى تحدياته . ربما من أجل هذا حاربتهم السياسة دائماً بضراوة ، فالسلطة السياسية رأت في هؤلاء الناس تحدياً لها ، وتعرية لضحالتها ، وكشفاً للكسل العقلي ، بل الإنغلاق العقلي ، الذي أصيبت به .

لهذا فانهم جميعاً ، من البداية ، لم يكونوا على وفاق مع السلطة السياسية . وهم في النهاية ليسوا من النماذج التي ترضي السلطة .

لقد كان عيب ابن حزم مثلاً في رأي معاصريه انه «لا يزف آراءه بتدريج .. ولا يلطف بما عنده من تعريض» .. أما ابن تيمية فعيبه انه «كان فيه قلة مداراة ، وعدم تؤدة .. ولم يكن من رجال الدول» .. والطهطاوي كان يعوزه «ذكاء من يعاشر السلطان أو يتصل بالحكم ، وهو ضرب من الذكاء لا يألفه العلماء» .. وكل تلك هي في النهاية نفس «العيوب» التي تحدث عنها معاصرو الأفغاني وعبد الله النديم .

مع ذلك فإن هؤلاء الأشخاص الخمسة كانوا يرون أن إرضاء ضميرهم ، والقلق على بلدهم ، هو أهم ألف مرة من ارضاء حاكمهم . ان ابن حزم عندما يقول «اغضب الناس ونافرهم .. ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق» .. إنما يعبر عن نفس المبدأ الذي آمن به عبد الله النديم حينما كتب بعدها بثمانية قرون : «اتبع الحق وان عز عليك ظهوره» .

إن هذا يجعلنا نصل إلى نقطة الاتفاق الثالثة بين الشخصيات الخمس التي يتناولها هذا الكتاب . النقطة هي : الثمن .

إنهم جميعاً نذروا حياتهم من البداية لقضية عامة ، هي نهوض هذا المجتمع . لقد تمردوا على الواقع الموجود ، ولم يكن تمردهم هذا مجرد كلمة .. ولا مجرد نزوة عابرة .. أو نوعاً من إبراء الذمة . لا .. لا .. هؤلاء ليسوا متمردين مزيفين . هؤلاء متمردون دفعوا في تمردهم عمراً كاملاً . ان بعضهم دخل السجن ثلاث مرات

(كابن حزم) .. أو أربع مرات (كابن تيمية) .. أو عاش في المنفى بعيداً عن وطنه (كجمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم والطهطاوي) . ومع ذلك .. مع وجود هذا الخطر على حياتهم الشخصية .. فإنهم لم يترددوا لحظة واحدة . لم ينتابهم الشك في صحة قضيتهم ، ولا اهتز إيمانهم بمجتمعهم ، ولا اشتروا السلامة بالتراجع . في الواقع أن ثلاثة منهم حملوا السلاح فعلاً في سبيل قضيتهم .

لقد عاشوا وماتوا ، ربما حتى بغير أن يروا انتصارهم الأخير .. ومع ذلك فإننا الآن لا نستطيع مثلاً أن نفهم مصر المعاصرة بغير أن نفهم عبد الله النديم والأفغاني والطهطاوي . ولا نستطيع أن نفهم المجتمع السعودي المعاصر ، والحركة الوهابية التي قام عليها ، بغير أن نفهم ابن تيمية . ولا نستطيع أن نفهم سقوط الأندلس .. بغير أن نفهم ابن حزم .

إن الشخصيات الخمس هم إذن جزء من عدم رضائنا عن أنفسنا الذي يجب أن نعبر عنه .. بأكثر مما هم جزء من راحة بالنا التي استسلمنا إليها . لقد كانوا أكثر وعياً بتحديات عصرهم ، ومن ثم أكثر الحاحاً على الاستجابة لها . كانوا أسباباً ونتائج معاً للعصر الذي شاهدوه . لقد آمنوا بأن الإنسان ليس هو ما يأكله .. وإنما الإنسان هو ما يتمرد عليه .. وما يحارب من أجله .

ثم شيء آخر : ان هذه الشخصيات الخمس ، هذه النماذج الخمسة ، لم تمت !

إنهم ما زالوا أحياء بيننا ، ليس بأشخاصهم ، ولكن بنماذجهم . ما زال بيننا ابن حزم ، وابن تيمية ، والأفغاني ، والطهطاوي ، وعبد الله النديم . آلاف من عبد الله النديم . ان وجودهم هو فأل طيب للمستقبل .. ولكن فشلهم سوف يكون نذير شؤم للواقع .

ليس هذا فقط .. بل ما زالت بيننا أيضاً نماذج للسلطة التي عصفت بهم . السلطة التي تضحي بأمن مجتمعها وبلدها في سبيل أمنها هي .. وتبحث عن مصفقين بدل أن تستمع إلى متمردين .

نعم .. تغيرت الأسماء والتواريخ والعصور .. ولكن لم يتغير المضمون الحقيقي للأحداث . فالتحدي ما زال قائماً .. والتمرد ما زال حيوياً .. وضحاياه ما زالوا

يتساقطون .. لأن القضية الأساسية ما زالت قائمة . قضية : هل نواجه واقعنا بالاستسلام له .. أو بالتمرد عليه ؟

هل تقطعت أنفاسنا ، وترهلت عقولنا ، وتراخت أذرعنا ، ونخر السوس في عظامنا .. بحيث نرضى من هذا العصر بالفتات الذي تقذفه الأقدار الينا .. ؟

أو أننا ما زلنا نمتلك رصيداً من الحيوية ، والإرادة ، والإصرار ، والإيمان ، والقدرة ، والاستجابة للتحدي .. بحيث نحقق لمجتمعنا فعلاً .. تلك النهضة التي يستحقها ؟

القضية هي : هل قررنا أن نعيش لحساب واقعنا .. أو أن نعيد صناعة واقعنا لكي يصبح لحسابنا ؟

ولأنها قضية مبدأ .. واختيار .. فإن كل القضايا الأخرى تتفرع عنها . فالذين يسخطون على واقعهم يجب أن يرفضوا أولاً الإنهيار العصبي أمام هذا الواقع .. ويجب أن يكونوا بتمردهم جزءاً من خطوط دفاعنا النفسية والفكرية ضد النوم والموت على صوت صفارة .

ويا أيها الإنسان .. ان مجتمعنا عظيم ، بقدر ما نعطيه من عقولنا .. قوي ، بقدر ما نصب فيه من ارادتنا .. حي ، بقدر ما نجعله يتحمل .. متقدم ، بقدر ما نتمرد لحسابه .

محمود عوض

ابن حزم

رَجُل ..
مَاتَ مَرَّتَين !

الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد . له على النفوس حكماً ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ..
والمرأة - أعانها الله أثبت في حبها من الرجل ، وهي متفرغة البال من كل شيء ..
والناس حسبي الله - امتحنتني الدنيا بهم .. وبعض مودات الرجال سراب ..

هذا الرجل : كان كل شيء .. ولم يكن شيئاً على الإطلاق !

كان في رأي أصدقائه نموذجاً للإيمان .. وفي رأي أعدائه تمثالاً حياً للإلحاد !

لو صدقنا تلاميذه فهو فيلسوف مؤمن بالله ... ولو صدقنا مخالفيه فهو تلميذ مخلص للشيطان ، وفي أحيان كثيرة ، هو الشيطان نفسه !

اتهمه الصديق في سمعته .. قبل أن يطعنه القريب في ظهره .. وبعد أن أعطاه الغريب إعجابه !

رأى حزاماً من المعجبين يحيط به دائماً .. قبل أن يرى حبل المشنقة يهدد رقبته أحياناً !

رأى كثيرين من الرجال ، وأحب امرأة واحدة .. وفي أوقات محنته زال حبه للرجال .. وبقي وفاؤه للمرأة .

كان محارباً بغير سيف .. وعالماً بغير تشنج .. ومفكراً بغير تعقيد ..

ومؤمناً بغير تعصب .. وكاتباً بغير حماية .. وكان أيضاً : سليط اللسان !

كان مؤمناً بأقصى ما سمح به عقله .. وعاشقاً إلى آخر نبضة في قلبه . عشق الله والثقافة والمرأة .. واحتفظ لكل منهم بمكانه المناسب في جدول أعماله .

كان متشدداً في كلماته .. عنيفاً في معاركه .. بنفس الدرجة التي كان فيها ملتهباً في عواطفه .

اكتسب الثقافة من الكتب .. واكتسب الشخصية من الحياة .. واكتسب الألم من السياسة . من التجربة أخذ الخبرة .. ومن القراءة أخذ المعلومات .. ومن السلطة أخذ المرارة .. ومن المرأة أخذ الغيرة .

أخذ من الدنيا وأعطاها الكثير . لم يكن في هذا الكثير يعرف الوسط .. فلقد كانت حياته مزيجاً من النور القوي والظلال الحادة .

كانت النار كلماته .. والحدة في شخصيته .. والقوة في إيمانه .. والرقة في حبه .. والإستمرار في سوء حظه . إذا أعطته الدنيا فسبب كفاءته .. وإذا عاقبته فسبب قلة نصيبه .

ولكنه لم يلعن نصيبه مطلقاً !

إن الحياة بالنسبة له هي مزيج من العذاب والمتعة . لا بد من العذاب أولاً — الكثير من العذاب — قبل القليل من المتعة .

لهذا عاش حياته بكل ما استطاع من قوة . انه الإنفعال كله حينما يعيش .. وهو الإتزان كله حينما يكتب .. وهو الرقة كلها حينما يحب . إن هذا يعطينا الإحساس بأنه كان أكثر من شخصية واحدة في جسم واحد . انطباع صحيح . فهو أديب يحب الفلسفة ، وفيلسوف يعشق الأدب ، وعاشق يحلل المرأة ، وعابد يصلي إلى الله ، ومصلي يريد السياسة ، وسياسي يريد بالممكن أن يحقق المستحيل .

ولم يكن يخشى أحداً في سعيه نحو المستحيل . لم يكن يخشى إلا الله .. فصبر الله بلا حدود.. ولم يكن يؤذيه إلا الحاكم .. فسيف السلطان بلا رقيب .

و.. في المسافة بين الله والحاكم .. بين السماء والأرض .. بين الأمل والحقيقة .. يمكن أن توجد ظلال كثيرة !

إن هذا الرجل كان معقد التجارب ، حافل الحياة .. وطويل الإسم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، أعظم علماء أسبانيا (الأندلس) في عهدها الإسلامي ، وأوسعهم أفقاً ، وأكثرهم أصالة .. مع انه كان أيضاً أكثرهم محلاً للجدل . انه طوال حياته (٣٨٤ هـ — ٤٥٦ هـ) كان محلاً لصراع طويل بين حب يقع فيه .. وحرب يخرج منها . بين كتاب يؤلفه .. وجدول يخوضه . بين أمل يريده .. ويأس يهدده .

لقد بدأ حياته بأمل . كثير من الأمل . انه شاب ، وأبوه وزير ، وأسرته غنية ، وبيته قصر ضخم ، والقصر مزدحم بالحدائق المحيطة به والشرفات المطلة منه ، والجواري العاملات فيه ، والنساء العالمات من أهله .

إن هذه البيئة النسائية المحيطة به علمته في صباه أشياء كثيرة . علمته أولاً أن يشاهد المرأة عن قرب ، ويعلم من أسرارها ما لا يكاد يعلمه غيره «.. لأني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب .. وهن علمنني القرآن ، وروينني كثيراً من الأشعار ، ودربنني على الخط» .

من النساء في صباه تعلم ابن حزم إذن أسراراً وثقافة ، ولكنه أيضاً تعلم تلك النظرة النسائية للحياة . نظرة باحثة عن التفاصيل مليئة بالدقة مرة والرقة مرتين وسوء الظن أحياناً والغيرة غالباً والحب دائماً .

وبالأمل في الحب .. دخل الشاب ابن حزم تجربة الحب الأولى في حياته .

إنه في الثامنة عشرة ، وهي ما زالت في السادسة عشرة . شقراء الشعر حسنة الوجه دمثة الطباع عديمة الهزل بديعة الجسم حلوة الأعراض ، ثم – على موضة الجواري الحسناوات في عصره – تجيد الغناء والعزف على العود .

لقد فاض قلبه نحوها بالحب والشوق واللوعة والأمل وعدم الأمل إلى أن .. ماتت . لقد اختطفها القدر منه ، وعمره لم يبلغ بعد عشرين سنة .

وكانت تلك هي المأساة الشخصية الرابعة ، التي تقع له قبل أن يبلغ العشرين .

ففي سن السابعة عشرة ، توفي أخوه الأكبر وعمره لم يتجاوز اثنين وعشرين سنة .. وذلك في الطاعون الذي اجتاح مدينة «قرطبة» في شهر ذي القعدة سنة ٤٠١ هجرية . وكانت زوجة أخيه « .. لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها ، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها » .. وقد أصابها موت زوجها بالمرض و« .. الذبول ، إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً » .

وفي سن الثامنة عشرة ، توفي أبوه ، الذي كان هو الشخصية المؤثرة الكبرى في تشكيل ابن حزم . بعدها خرج ابن حزم وأسرته ، مضطراً ، من قرطبة إلى مدينة « المرية » لأن السياسة امتحنتهم « .. بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس » .. ثم « ضرب الدهر ضرباته وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر» ..

كل هذا وابن حزم لم يبلغ بعد سن العشرين . وكأن « كل هذا » لا يكفي .. فجاء أخيراً موت الفتاة الوحيدة التي أحبها .

إنه ، حينما يرثيها نثراً وشعراً يقول : «.. وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي ، وكانت فيما خلا اسمها نُعم . وكانت أمنية المتمني ، وغاية الحسن خَلقاً وخُلقاً وموافقة لي . وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومَرّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة . وكانت هي دوني في السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة أسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن . ولو قيل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف وببعض أجزاء جسمي العزيزة عليَّ ، مسارعاً طائعاً . وما طاب لي عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها . ولقد عفّى حبي لها على كل ما قبله ، وحرم ما كان بعده . ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس ان بـدت　　　وسائر ربات الجمال نجـــــوم
أطار هواها القلب عـن مستقره　　　فبعد وقوع ظل وهو يحـــوم

إنه ، فيما بعد ، سوف تكون له ملاحظات ومشاهدات وتجارب ، سوف يهوى ويحب و- ربما - يعشق .. سوف يتزوج ويؤسس أسرة وينجب ثلاثة أطفال .. ولكن ذكرى هذه الفتاة سوف تظل معه في عقله دائماً . انه لن يتذكرها بحسرة . لا حسرة ولا مرارة ولا ألم ولا عذاب سوف يسمم قلبه . لا شيء سيبقى معه منها بعد هذه التجربة سوى : الوفاء . الوفاء لأمل ضاع ويأس لم يدب فيه . ليس الآن . فمرة أخرى .. يولد اليأس في داخله أملاً جديداً .

لقد تأمل حياة النساء في داخل قصر أبيه من قبل .. وهو الآن يستدير ليتأمل حياة الناس حوله في المجتمع . انه يرى بلده - الأندلس - وقد انتهى عصرها الذهبي وبدأت عصراً جديداً مليئاً بالفوضى والإضطراب

والتفكك والصراع السياسي والقلق الفكري والفساد الإجتماعي . انه يرى الهجمات الفكرية الأجنبية ضد الإسلام تتزايد ، بينما الحكام يبنون القصور ويفرضون الضرائب و« .. عمدة ذلك أن كل مدبِّر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع في الأرض بفساد ، والذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في مِلْك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، ومسلِّطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم » .

إن ابن حزم يرى أيضاً ان الناس لم تعد تعرف الحلال والحرام فيما تكسبه ، وان رجال الدين أنفسهم قد أصبحوا أدوات تحلل الحرام وتبيح الفسق و« .. برهان ذلك أني لا أعلم ، لا أنا ولا غيري بالأندلس ، درهماً حلالاً ولا ديناراً طيباً يقطع على أنه حلال » .

هكذا تقوده تأملاته إلى ملاحظة بعد ملاحظة . انه يلاحظ أن العصر الذي يعيش فيه هو عصر اختلطت فيه أشياء كثيرة : اختلط الدين بالكفر ، واختلطت المرأة بالرجل ، واختلطت السياسة بالفكر ، واختلطت الرذيلة بالفضيلة ، والإيمان بالفساد . اختلطت الأجناس والحضارات والثقافات والسلالات ، بمثل ما اختلطت في حياته هو نفسه .

إنه يرى أيضاً أن الدولة الواحدة في الأندلس قد انقسمت إلى دويلات ، والخليفة الواحد أصبح ثلاثة .. كل منهم يستعين بالعدو ضد الآخر . انه يرى أن الخلفاء قد أداروا ظهورهم لكل شيء ما عدا الصراع

على السلطة . لقد دخل العلويون في صراع مع الأمويين على السلطة ، فأصبح كل منهم يحارب الآخر أو يقتله إذا أمكن ذلك .

إن ابن حزم – بالوراثة من أسرته وبالأصالة عن نفسه – يأمل في الأمويين خيراً أكثر . لهذا يقرر أن يضع أمله كله ، وحياته كلها ، في خدمة قضيتهم .

هكذا دخل الرجل باب السياسة الواسع .. ولن يخرج منه مطلقاً قبل أن يمتلئ قلبه بالجراح .. وجسمه بالشظايا .

إنه ، قبل أن يبلغ العشرين ، رحل عن قرطبة ليحارب مع الأمويين ، ففشل .. ودخل السجن . من السجن خرج إلى المنفى ليحارب من جديد مع صديقه الأموي الساعي إلى الخلافة . بعد ست سنوات انتصر صديقه وأصبح ابن حزم وزيراً . الآن تمت دائرة كاملة في حياته سوف تتكرر سريعاً . انه يصعد إلى كرسي الوزارة ، شهراً أو بالكثير شهرين ، ثم يهبط منه إلى السجن ساقطاً مع سقوط الخليفة . من السجن إلى احتمال الإعدام إلى العفو إلى النفي .. إلى الوزارة من جديد . من كرسي الوزارة تبدأ الدائرة مرة أخرى نحو مزيد من النفي والتشريد .

وفي ، كل مرة تصبح الوزارة بالنسبة لابن حزم مرتبطة بالقضية الأساسية التي يراها أمامه : قضية المحافظة على وحدة الدولة والوقوف صفاً واحداً أمام خطر الفرنجة في الشمال . وفي كل مرة أيضاً لا يسعفه الوقت ولا الظروف . فعندما أصبح « المستظهر » مثلاً خليفة ، واختار ابن حزم وزيراً ، لم تمر سوى أسابيع قبل أن يتعرض المستظهر لإنقلاب داخلي ، قاده ضده ابن عمه المستكفي محمد بن عبد الرحمن . انقلاب انتهى بقتل المستظهر والإلقاء بابن حزم في السجن لمدة سنتين ، جزاء له على بقائه في الوزارة لمدة سبعة وأربعين يوماً !

ثلاث مرات تسحبه السلطة إلى مركز الصراع فيها ، لكي تدفعه في سرعة بقوة الطرد المركزية إلى السجن مباشرة .. إلى أن يستولي خليفة منافس على السلطة . لقد دخل ابن حزم ميدان السلطة مؤمناً برأي مؤيداً لخليفة . الآن مات الخليفة وسقط الرأي .. وأصبح السجن والنفي يتعاقبان على حياته بمثل انتظام فصول السنة .

لقد طحنته السياسة ، لأنه بالنسبة لها كان الشخص الخطأ والنوع الخطأ . إن العصر هو عصر اضطراب .. وفي أوقات الإضطراب تحتاج السياسة إلى راقصين على الحبل بأكثر مما تحتاج إلى سياسيين . هكذا احتاج العصر إلى أناس يحتفظون بتوازنهم فوق السلك المرتفع . فوق الخطر .. مائلون الآن إلى اليمين ، والآن إلى اليسار . مائلون نصف درجة إلى الأمويين ، ثم نصف الدرجة التالية إلى العلويين . ان أنصاف المواقف وأنصاف الدرجات لا يجيدها دائماً إلا أنصاف الرجال .. ولم يكن ابن حزم نصفاً حتى الآن في أي شيء .

النتيجة : يمين بالطلاق على السياسة . من الآن فصاعداً : لا سياسة .

والنتيجة مرة أخرى : أن العالِم يجب عليه أن يبتعد عن رجال السلطان ، وإذا حدث ان «.. ابتلى العالم بصحبة سلطان ، فقد ابتلي بعظيم البلايا ، وعرض للخطر الشنيع في ذهاب دينه ، وذهاب نفسه وشغل باله وترادف همومه ... فلأن يتلف مظلوماً مأجوراً محتسباً محموداً .. أفضل من أن يبقى ظالماً مسيئاً آثماً مذموماً» .

ومرة ثالثة يدور الصراع في داخل ابن حزم . صراع بين الأمل واليأس . لقد هزم القدر من قبل أمله في فتاة أحبها . ماتت . بعدها هزم القدر أمله في الأمويين الذين حارب معهم . سقطوا . هل يسقط مع

دولتهم الآن كل أمل في داخله ؟ لا .. لا .. لا سياسة ، ولا سلطة ، ولا وزارة ، ولكن أيضاً : لا يأس .

إن الأمل يعود إلى الظهور مرة أخرى ، بقوة كاملة ، داخل عقله . ان نفس الأمل المبكر يعود اليوم إليه متنكراً في ثوب جديد . انه يريد أن ينصلح حال المجتمع ، ويشتد بنيان الدولة ، وتتوحد الأمة ، وتنهار الخرافات ، وتنتشر الثقافة . ان السلطة كانت وسيلة ابن حزم السياسي إلى تحقيق أفكار ابن حزم المثقف . الآن سقطت الوسيلة .. ولكن الأفكار لم تسقط بعد .

ماذا يفعل ابن حزم الآن بأفكاره ؟ يكتبها ؟ نعم . لماذا لا يسجل الآن تأملاته عن الله والناس والمجتمع في كتب ينشرها ؟ لماذا لا يحارب اليأس الذي أصابه .. بالأمل الذي ما زال يحتفظ به حياً في داخله ؟ الأمل في أن يتفرغ للبحث والمناقشة والتأليف والتأريخ والدين والفقه والمنطق . انه هنا -- وهنا فقط -- لن يحتفظ بولاء السلطة .. غير عقله . هنا سوف يقوم الأمل في داخله بأحسن وأروع معاركه .. ضد اليأس المتراكم حوله .

إن أحسن ، وأنبل ، وأشرف ، وأطول ، وأقسى معاركه .. سوف تبدأ الآن .

هكذا بدأ ابن حزم يتفرغ تماماً . يتفرغ ليكتب ، ويناقش ، ويؤلف .

إنه يكتب في الفلسفة والشريعة . يكتب في السيرة النبوية . في تفسير القرآن . في التاريخ والسياسة والأدب . يكتب في الشعر . في المنطق . في العلم . في الدين .. بمنطق وعلم . انه يكتب مجلداً ، ومجلدين ، وعشرة ، ومائة ، و.. أربعمائة . نعم .. ظل ابن حزم يكتب بطريقة

موسوعية في كل فرع من فروع المعرفة ، حتى وصلت مؤلفاته ورسائله إلى أربعمائة .. هي مزيج من النثر والشعر ، المكتوب في ثمانين ألف ورقة . ظاهرة جعلت واحداً من معاصريه يكتب عنه انه «أشهر علماء الأندلس اليوم» .

إنه يكتب لنا بدقة وبساطة ووضوح ومنطق يفتقده كثيرون من مؤلفي عصره . وهو ، حينما يكتب مثلاً مجلد «الفصل في الملل والأهواء والنحل» .. فإنه يعتبر في أوربا بعدها بقرون مؤسس علم الأديان المقارن . وحينما يكتب في السيرة النبوية ، فإنه يعتبر أكثر المؤلفين أمانة . وحينما يكتب في التحليل النفسي .. فإنه يعتبر «جاحظ الأندلس بلا منازع» .

ففي الحب مثلاً يلاحظ أن المرأة أكثر ثباتاً من الرجل .. وأن الشخص الذي يمل بسرعة .. لا يمكن أن يحب بصدق .

في التاريخ يلاحظ أن سرد الوقائع كلها لا يكفي .. وإنما لا بد للمؤرخ أن يستخدم عقله في التمييز بين الحق والباطل .

في اللغة يلاحظ أن بعض الناس يكتبون « .. كلاماً معقداً مغلقاً ، لا معنى له إلا التناقض والهدم لما يبنى ، وفي زماننا من سلك هذا الطريق في كلامه . فلعمري لقد أوهم خلقاً كثيراً أنه ينطق بالحكمة . ولعمري أن أكثر كلامه ما يفهمه هو .. فكيف يفهمه غيره ؟» .

في السياسة يلاحظ أن خلفاء المسلمين ، في فترات ضعفهم وانهيارهم ، يبدو أن في إضافة ألقاب تسبق أسماءهم ، وتوحي لأول وهلة بصفة خارقة لا توجد فيهم أصلاً . هكذا أصبحت للسلطان في فترات الضعف الإسلامي ألقاب مثل « .. ولي الدولة ، وركن الدولة ، وصمصام الدولة ، وبهاء الدولة ، وغياث الأمة ، وسيف الملة ، وشمس المعالي ، وزين الأيام والليالي .. الخ» .

إنه ينطلق من ملاحظة إلى ملاحظة ، ومن كتاب إلى كتاب ، ومن مجلد إلى مجلد .. مضيفاً بما يكتبه آراء جديدة إلى عصره ، وأضواء جديدة على شخصيته .

إن شخصيته كانت انعكاساً لأفكاره .. بمثل ما كانت انعكاساً للصراع في حياته . فلأن حياته كانت صراعاً جاداً بين الأمل واليأس .. فإن شخصيته أصبحت هي الأخرى معركة مستمرة بين الصلابة والرقة ، وآراءه تتراوح بين العناد والمرونة .. وكتبه مزيج من المنطق والعاطفة . انه ينفعل بسرعة .. ولكنه يحب ببطء . انه يرى الفساد أمامه .. ولكنه يحافظ على النزاهة في داخله . انه للدود في خصومته .. بقدر ما هو مخلص في صداقته . إن وفاءه لكلمة طيبة يسمعها .. لا يتساوى إلا مع عدم غفرانه لطعنة من الظهر يتعرض لها . انه عنيف حينما يختلف .. مجادل حينما يناقش .. رقيق حينما يحب .. انه يرى في نفسه صفتين « .. لا يهنئني معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما وأود التثبت من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر . تولده الالفة التي لم تعزف بها نفسي عماد ربته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته .. وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإني لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت ، وفي القلب ما فيه .. » .

إن هذا الصراع الحاد في شخصيته هو انعكاس للصراع العام في حياته . إذا كانت حياته صراعاً بين الأمل في الناس واليأس منهم .. فإن

شخصيته سوف تكون هي الأخرى صراعاً بين ضعف الإنسان وصلابة عقله . إن هذا يجعلنا أحياناً نرى الرجل .. ثم نرى عكسه بعد لحظة . انه يحكي لنا عن موقفين رآهما كثيراً ، فقد « .. حضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين ، وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع .. وفي الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع ، وأتحلل بلساني وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي » .

إن شخصاً يمثل هذه الصفات يمكن أن يصل في صلابته أحياناً إلى درجة العنف .. مثلما يمكن أن يصل في رقته إلى درجة الضعف . شخصاً هذه صفاته لا بد أن يحتفظ بأعصابه دائماً في حالة طوارئ .. وبحساسيته في أقصى درجات الإستعداد . إن هذا معناه أن يكون مخلصاً وصادقاً فيما يفعله .. ولكن معناه أيضاً أن عليه أن يدفع الثمن . ثمن احتفاظه بجهازه العصبي في مثل تلك الحالة من التوتر المستمر واليقظة الدائمة والعمل المتواصل والإهتزاز الذي لا ينقطع .

إن الرقة في شخصيته تدل على الحساسية .. وهذا يعطيه ميزة الأديب . ولكن ، هذه الرقة نفسها تتحول إلى محنة ولعنة حينما يتحول الأديب إلى سياسي . إن الذكاء الحاد في ملاحظاته سوف يجعله مصيباً في آراء كثيرة يقولها ويكتبها .. ولكنه أيضاً سيفقده الصبر على كل رأي غبي يسمعه . ربما من أجل هذا كان ابن حزم بالنسبة لكثيرين من معاصريه

حاد الطبع سريع الغضب ، وأحياناً ، طويل اللسان .

لقد دخل مرة في مناقشة مع الفقيه الباجي ، الإمام المالكي ، المعاصر له . قال الباجي لابن حزم : « أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لإنك طلبته وأنت معان عليه ، فتسهر بمشكاة من الذهب ، و(أنا) طلبته وأنا أسهر بقنديل ، بائت السوق » .

لحظتها رد عليه ابن حزم قائلاً : « هذا الكلام عليك ، لا لك . لانك إنما طلبت العلم وأنت في هذه الحال ، رجاء تبديلها بمثل حالي . وأنا طلبته في حال ما تعلمه وما ذكرته . فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة » .

إن مثل هذا الرد يصبح طبيعياً تماماً مع رجل مثل ابن حزم . انه كلام طبيعي لأن ابن حزم يؤمن بأن « كلام الإنسان من عمله » . يؤمن أيضاً بأن « .. لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته » . وهو يرى أن « المخلص من إذا عمل خيراً لا يهمه أن يحمده الناس » .

وابن حزم يؤمن بأن « الحق لا يصير حقاً بكثرة معتقديه ، ولا يستحيل باطلاً بقلة منتحليه » . ويؤمن بأنه « ان لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فاغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق » . ويؤمن بأن « بعض مودات الرجال سراب » .. وانه « .. لكل شيء فائدة ، لقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهي انه توقد طبعي واحتدم خاطري ، وحمى فكري ، وتهيج نشاطي ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف عظيمة المنفعة ، ولولا استثارتهم ساكني ، واقتداحهم كامني ، ما انبثقت تلك التواليف » .

إن أكثر ما يمجده هو الوفاء .

وأكثر ما يسترخصه هو الغدر ، و«.. لعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وان عظمت جريرته وكثرت إليّ ذنوبه ، ولقد دهمني من هذا غير قليل ، فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى» .

وأكثر ما يهاجمه ابن حزم هو الكذب . لإنه «.. ما أحببت كذاباً قط . وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن عظيماً ، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشى من أعلمه يكذب ، فهو عندي ماح لكل محاسنه ، ومعّف على جميع خصاله ، ومذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلاً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه وكل ذام فقد يمكن الإستتار به والتوبة عنه ، حاشى الكذب ، فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرني من رأى كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والمتعرض لمتاركته ، وهي سمة ما رأيتها قط في أحد إلا وهو مزنون في نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته ، نعوذ بالله من الخذلان» .

لهذا يذكرنا ابن حزم بما قاله بعض الحكماء : آخ من شئت واجتنب ثلاثة .. الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .. والملول ، فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدها يخذلك .. والكذاب ، فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر .

ويذكرنا أيضاً بما قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سئل هل يكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا .

وعن رسول الله أيضاً ، أنه قال : ثلاث من كن فيه كان منافقاً : إذا وعد أخلف .. وإذا حدّث كذب .. وإذا اؤتمن خان .

والحملة الضارية التي يقودها ابن حزم ضد الكذب هي حملة مستمدة من عصره في الواقع . عصر كذب من الحاكم على المحكوم ، ومن الراعي على الرعية ، ومن الأقلية على الأغلبية ، ومن القائد على جنوده ، ومن الكاتب على قارئه ، ومن الخطيب على مستمعيه .

وحينما ينبهنا ابن حزم إلى عيوب عصره ومجتمعه ، فإنه لا يفعل ذلك عن ترفع .. ولا عن ادعاء بإنه هو شخصياً بريء من العيوب . في الواقع إنه يكتب مسجلاً « إني والله أعلم من عيوب نفسي أكثر مما أعلم من عيوب الناس ونقصهم » .

ويقول : « كانت في عيوب ، فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قاله الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء والمتقدمين في الأخلاق ، وفي آداب النفس أعاني مداواتها ، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه . وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الإقرار بها ، ليتعظ بذلك متعظ يوماً ان شاء الله . فمنها كلف في الرضاء وإفراط في الغضب ، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقف عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الإنتصار وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً وصبرت على مضض في ذلك ، لإنها تمثلت ان ترك ذلك لؤم ..

« ومنها دعابة غالبة ، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح ، وسامحت نفسي فيها إذ رأيت تركها من الإنفلاق ومضاهياً للكبر .

« ومنها عجب شديد فناظر عقلي بما يعرفه من عيوبها ، حتى ذهب

كله ولم يبق له ، والحمد لله ، أثر .. بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع .

«ومنها حركات كانت تولدها غرارة الصبا وضعف الأعضاء ، فقصرت نفسي على تركها فذهبت .

«ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة ، فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة ، والله المستعان على الباقي ، مع ان ظهور النفس الغضبية إذا كانت منقادة للناطقة فضل وخلق محمود .

«ومنها إفراط في الأنفة بغضت إليّ انكاح الحرم جملة بكل وجه وصعبت ذلك في طبيعتي . وكأني توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت عليّ والله المستعان .

«ومنها حقد مفرط ، قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره ، وغلبته على إظهار جميع نتائجه ، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه ، وأعجزتني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً .

«وأما سوء الظن فيعده قوم عيباً على الإطلاق وليس كذلك إلا إذا أدى صاحبه إلى ما يحل في الديانة أو إلى ما يقبح في المعاملة ، وإلا فهو حزم ، والحزم فضيلة .

«وأما الذي يعيبني به جهال أعدائي من أني لا أبالي – فيما اعتقده حقاً – عن مخالفة من خالفته ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ، وإني لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زيهم الذي تعودوه لغير معنى . فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها ، ولعمري لو لم تكن فيّ (وأعوذ بالله) فكانت من أعظم متمنياتي وطلباتي عند خالقي عز وجل . وأنا أوصي بذلك كل من يبلغه كلامي ، فلن ينقصه اتباعه

الناس في الباطل والفضول إذا أسخط ربه تعالى وغبن عقله أو آلم نفسه وجسده وتكلف مؤونة لا فائدة فيها » .

إن ابن حزم يريد اذن أن يكون موضوعياً مع نفسه بمثل ما هو موضوعي في رؤيته للناس وتحليله لسلوكهم . وهو في موضوعيته تحكمه مبادئ محددة نذر نفسه لها ، وكرس قلمه للدفاع عنها . ربما كان هذا هو الذي سيجعل مستشرقاً اسبانياً مثل « بالنثيا » يكتب عنه بعد قرون قائلاً : « كان ابن حزم رجلاً صدقاً مخلصاً قوياً ، ذا ديانة وحشمة وسؤدد . وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها ، وكان مخلصاً لأصحابه يتفانى في سبيلهم ، لدوداً في خصومته ، لا يصفح ولا ينسى ثأره ، ولوعاً بالسخرية من خصومه شديد الإعتداد بما أوتي من علم ، وكان كريماً عفيفاً وسطاً في إيمانه : لا هو ساذج يقبل كل شيء ، ولا هو متشدد لا يقبل إلا حكم العقل ، بل هو أقرب إلى العقليين منه إلى العاطفيين ، كما يقول آسين بلاسيوس : « لان مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاذ والصلابة والقدرة على قبول الحقائق الجافة ، جعله بمنأى عن الإستغراق في فيوض الحياة الروحية » .

وربما يكون ملفتاً هنا عن ابن حزم كونه « شديد الإعتداد بما أوتي من علم » .. وهو التقييم الذي سيتفق فيه كلا من أصدقاء وخصوم ابن حزم في حياته . لقد كان هذا هو وحده المظلة الواقية التي عاش تحتها ابن حزم .. والتي جعلته في النهاية مستغنياً عن مدح الناس .. ولا مبتئس بذمهم . في الواقع أن ابن حزم لو اهتم بأن يحمده الناس لما كتب واحداً فقط من مؤلفاته الأربعمائة التي تركها خلفه .

لقد كان كل مؤلف منها تمرداً بشكل أو بآخر على الآراء السائدة في عصره . تمرداً يزيد انعكاسه شدة وضعفاً بحسب الموضوع الذي يطرقه .

انه تمرد الفرد الواحد ، والمفكر الواحد ، ضد الأغلبية المطلقة .

إن الأغلبية ترى مثلاً أن الكتابة في علم المنطق هي خروج صريح على الدين . انهم يرون أن الفلسفة شر ، والمنطق مدخل إلى الفلسفة ، ومدخل الشر شر .. اذن : المنطق شر .

ولكن ابن حزم يرى ان هذا الرأي خطأ . رأي الأغلبية خطأ . انه يبدأ بدراسة المنطق والدفاع عن الفلسفة ، فيقول : «ان الفلسفة علم الحقيقة . إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس ، وهذا نفسه ، لا غيره ، هو الغرض في الشريعة» .

لهذا يصدر ابن حزم كتاباً بعنوان «التقريب لحد المنطق» . انه يستخدم المنطق والفلسفة والشريعة ويقرب المسافة بينهما .. ولكن هذا لا يمنع في النهاية من انه يعقد هدنة لا تريدها الأغلبية .

والأغلبية ترى أن حكم الأمويين في الأندلس لا بد أن يسقط لكي يحكم العلويون . ولكن ابن حزم يستقرئ التاريخ فيرى ان الدولة العباسية اقترنت دائماً بانتشار عادات تقبيل الأرض والأقدام والأيدي ، وانها تحولت إلى دولة أعجمية ، وان السلطان فيها تحول من خادم للشعب .. إلى سيف ضده ، بحيث أصبح المسلم فيها يخاطب حاكمه بألفاظ مثل «يا مولاي .. يا سيدي .. الخ» .

لهذا فإن ابن حزم حينما يؤرخ ، فإنه يكتب مسجلاً : «.. وانقطعت دولة بني أمية ، وكانت دولة عربية ، ولم يتخذوا قاعدة ، إنما كان سكنى كل امرئ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة ، ولا أكثروا احتجان الأموال ، ولا بناء القصور ، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسويد ، أو يكاتبوهم بالعبودية والملك ، ولا

تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد ، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد ، فكانوا يعزلون العمال ، ويولون الأخر ، في الأندلس ، وفي السند ، وفي خراسان.، وفي أرمينية ، وفي اليمن ، فيما بين هذه البلاد» .

فإذا أضفنا إلى ذلك ماضي ابن حزم السياسي في مناصرة الأمويين الذين سقطوا .. يصبح أمامنا سبب جديد للاختلاف مع الأغلبية .

والأغلبية ترى أن المذهب المالكي هو الذي يجب أن يعلو المذاهب الإسلامية الأخرى في الأندلس . ان ابن حزم نفسه يبدأ ، كالأغلبية ، بالميل إلى المذهب المالكي ، ثم يميل عنه إلى المذهب الشافعي . وفي النهاية انحرف عن الجميع وبدأ يدعو إلى المذهب الظاهري ويعمل لنشره في الأندلس . انه مبدئياً مذهب نادى به لأول مرة داود بن علي بن خلف البغدادي (٢٠٢ هـ - ٢٧٠ هـ) . وهو ثانياً مذهب يتشدد في الأخذ بحرفية النصوص ، ويرى الاعتماد على القرآن والسنة والإجماع فقط كمصادر للدين ، ويتشبث في تفسيراته بظاهر المعنى ، أو بالمعنى الظاهر من تلك النصوص .. ومن ثم أصبح يعرف بـ «المذهب الظاهري» .

وهكذا فإن المذهب الظاهري يرفض الأخذ بالقياس ، ويستنكر مبدأ التقليد ، حتى ولو كان المقلَّد من الصحابة ، وفي ذلك فإنه يختلف مع ما أخذ به الأئمة الأربعة الكبار .. أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل .. ويضيق إلى أقصى درجة بالنسبة لمصادر التشريع .

مع ذلك فإن ابن حزم يأخذ في الدعوة للمذهب الظاهري .. قائلاً : إن «دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لا سر تحته ، كله برهان لا مسامحة فيه ... وكل من ادعى للديانة سراً وباطناً ، فهي دعاوى ومخارق ... وما كان عند الرسول عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن ،

غير ما دعى الناس كلهم إليه» . من هنا ينطلق ابن حزم إلى ضرورة الإعتماد على الكتاب والسنة والإجماع فقط ، ويختلف مع أئمة المذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى في رفض الإستنباط والقياس والإستحسان .. والرأي عموماً .

وبالطبع لا أحد يوافق ابن حزم على هذا الرأي .. والأخذ بالمذهب الظاهري هو في الواقع تعسف شديد في الدين .. ولكن تلك قضية أخرى .

إنما القضية الآن هي أن نفهم سر تعصب ابن حزم لهذا المذهب .. وهو المفكر الموسوعي .. الذي لا يتوقع منه أحد مثل هذا التعسف .

في الواقع إننا لا نستطيع أن نفهم هذا الموقف من ابن حزم .. إلا على ضوء معرفة حجم الفساد الذي عاصره في مجتمعه .

فلقد كان هناك فساد اخلاقي .. وفي كتابه «طوق الحمامة» .. الذي سنناقشه بعد قليل .. يحكي لنا ابن حزم عن امرأة ثرية ، علية المنصب ، غليظة الحجاب ، أعجبها فتى يمر من الطريق أمام قصرها .. فتعلقت به ، وتعلق بها ، وبدأت المراسلات الغرامية بينهما .

إن تلك المرأة لم تكن مجرد واقعة .. ولكنها كانت ظاهرة ، وحالة اجتماعية ، تفشت في المجتمع الأندلسي في تلك الفترة .. خصوصاً تلك الشريحة الثرية التي يدفعها ثراؤها ، وفراغها ، إلى البحث عن المغامرات اليومية . وابن حزم ، في كتابه هذا ، يقرر انه «.. كم داهية دهت الحجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ... ولولا أن أنبه عليها ، لذكرتها» .

حسناً . ان ابن حزم لا يذكرها . ولكنه يعيشها . يراها . يتألم من انتشارها ومن الفساد والإنحلال الذي أدت إليه .

وهناك أيضاً فساد فقهي . فبعد أن مات الحكم الثاني (المستنصر)

مثلاً .. خرج الفقهاء والعلماء والقضاة يبايعون لمنصب الخليفة ولداً لم يبلغ الثانية عشرة من عمره .. ليكون اماماً لهم ، وخليفة عليهم !

وحتى في الحقبة الأخيرة التي تلت سقوط الحكم الأموي في الأندلس ، وهي فترة يتحدث عنها ابن حزم كشاهد عيان ، فإنه يسجل عنها قائلاً : « .. اجتمع عندنا بالأندلس ، في صقع واحد : خلفاء أربعة . كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه . وتلك فضيحة لم يُر مثلها : أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام .. كلهم يتسمى بالخلافة وإمارة المؤمنين ، وهم خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام ، وشهد له خصيان ونسوان ، فخطب له على منابر الأندلس ، وسفكت الدماء من أجله . ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة . ومحمد ابن ادريس خليفة بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن علي ببشتر » !

هذا هو العصر الذي يراه ويعيشه ابن حزم . عصر ، قال عنه المؤرخ الإسلامي محمد عبد الله عنان : « .. كان عصر تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل ، وذلك بالرغم مما كان يبدو في بعض نواحيه من جوانب براقة . والواقع أن هذه الدول الصغيرة التي قامت على أنقاض الأندلس الكبرى ، والتي كانت تتسم بسمة الملك ، وتزعم كل منها لنفسها الإستقلال بشؤونها لم تكن – إذا استثنينا القليل منها – سواء برقاعها الإقليمية ، أو مواردها المالية ، تستطيع الحياة بمفردها » .

وفي مثل هذه الحال من الضعف والتفكك .. لا بد أن يتزايد اعتماد الحكام على الأقليات .. فنجد الخلفاء يقربون إليهم العناصر البربرية والإسبانية ، كما أن بعض اليهود قد تسللوا إلى أكبر مناصب السياسة .. الأمر الذي جعل ابن حزم يكتب : « إن أملي لقوي ، ورجائي مستحكم ،

في أن يكون الله تعالى يسلط على من قرّب اليهود وأدناهم وجعلهم بطانة وخاصة ، ما سلط على اليهود ... وهو يسمع كلام الله ... «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر» (آل عمران ١١٨) ... فمن سمع هذا كله ، ثم أدناهم وخالطهم بنفسه من ملوك الإسلام فإنه إن شاء الله تعالى قمين أن يحيق الله عز وجل به ما أحاق بهم من الذلة والمسكنة والهوان والصغار في الدنيا ...» .

بل إن ابن حزم يتصدى لما هو أسوأ . فلقد قام بعض خصوم الإسلام بالطعن في القرآن ، كما فعل اسماعيل بن نغرالة ، اليهودي الذي ألف رسالة في الإسلام ، طعن فيها في بعض آيات القرآن ، وهو وزير لدى أمير غرناطة المسلم باديس بن حبوس . ومع ذلك ظل الحاكم المسلم محتفظاً بوزيره الذي طعن في آيات القرآن !

إن ابن حزم كتب خصيصاً رسالة بعنوان «الرد على ابن النغريلة اليهودي» .. بعد أن رأى الأخير يقسم بأنه سينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها !

رأى ابن حزم كل هذا اذن ، وعاشه .. وآلمه أن يرى فقهاء عصره يتقاعسون عن التصدي له . لهذا فإنه كتب يخاطبهم بقوله : «... فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفسّاق والمنتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم» .

وكتب ابن حزم أيضاً ، في رده على ابن النغريلة اليهودي ، قائلاً : «اللهم ،إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم . وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم

اللازمة في معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموال ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم ، وعوناً لأعدائهم عليهم ، عن حيطة ملتهم التي بها عزوا في عاجلتهم ، وبها يرجون الفوز في آجلتهم ، حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة ، وانطلقت أهل الكفر والشرك ، بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همنا ، لإنهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الإمتعاض للديانة الزهراء والحمية الغراء ، ثم هم بعد مترددون بما يؤول إليه إهمال هذه الحال من فساد سياستهم ، والقدح في رياستهم ، فللأسباب أسباب ، وللمداخل إلى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب » .

إن تلك الكلمات ، ليست فقط كلمات رجل يتألم مما يراه أمامه في مجتمعه وعصره ، ولكنها كلمات رجل ينبه ، ويستنجد ، ويصرخ ، ويحذر ، من خطر ملح يراه على دينه وإيمان أبناء مجتمعه .

كلمات رجل يرى الفساد وقد امتد من السياسة إلى المجتمع إلى الفقه إلى الأمن الروحي لأبناء بلده .

ربما من أجل هذا نستطيع أن نفهم ونقدر ونتصور الظروف التي جعلت ابن حزم يدعو إلى المذهب الظاهري ، وهو مذهب يضيّق ولا يتوسع .. يشدد ولا يجتهد ، مختلفاً في ذلك مع الأغلبية من فقهاء عصره ومجتمعه .

ولقد رأينا من قبل كيف اختلف ابن حزم مع الأغلبية في اتجاهه السياسي .. وفي اتجاهه الفقهي .. والآن نقترب من منطقة جديدة يختلف فيها ابن حزم مع الأغلبية . منطقة متفجرة . منطقة ظلت ، حتى الآن ، مليئة بالألغام بالنسبة لرجل الدين .. فما الحال والرجل في هذه المرة هو إمام كبير كابن حزم ؟

إن الأغلبية ترى أن الفقيه العالم بالدين يعيبه أن يتعرض بالدراسة

لموضوع شائك مثل الحب بين الرجل والمرأة . ولكن ابن حزم لا يدرس هذا الموضوع فقط .. ولكنه يصدر فيه كتاباً كاملاً بعنوان «طوق الحمامة في الألفة والآلاف» . كتاب يروي لنا فيه ابن حزم ملاحظاته ومشاهداته وخبرته الشخصية ثم ، وهذا هو المهم ، اعترافاته من خلال تجاربه الشخصية . إنه يثير الأسئلة ، ويجيب عليها من وجهة نظره ووجهة نظر عصره . لهذا يحدد ابن حزم خطته في الكتاب مبدئياً بأنه «.. التزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك ، والإقتصار على ما رأيته ، أو صح عندي بنقل الثقات ، ودعني من أخبار الاعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا أتحلى بحلي مستعار» .

هي اذن دراسة في الحب ، وليست سرداً للتاريخ .. وهي دراسة تعتمد على ما يراه ابن حزم في مجتمعه هو ، وعصره هو ، وليس عصراً سابقاً .. أو مجتمعاً آخر .

ومرة أخرى .. يحدد ابن حزم في صدر كتابه انه يقسم الكتاب إلى ثلاثين باباً . عشرة أبواب في أصول الحب ، وإثنا عشر في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة ، وستة أبواب في الآفات الداخلة على الحب .. ثم بابان أخيران في قبح المعصية وفي فضل التعفف .

اذن ، فالنقطة المبدئية هي : ما هو الحب ؟

يقول ابن حزم :

«الحب ، أعزك الله ، أوله هزل وآخره جد . دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، و(الحب) ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل ..

«وقد اختلف الناس في ماهية الحب ، وقالوا وأطالوا ، والذي

أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة ، في أصل عنصرها الرفيع ..

«وسر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الإتصال والإنفصال ، والشكل دأباً يستدعي شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ..

«ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية ، لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ... ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ..

«وأما العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ..

«والحب ، أعزك الله ، داء عياء ، وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ ، وعلة مشتهاة لا يود سليمها البرء ، ولا يتمنى عليلها الإفاقة . يزيّن للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهّل عليه ما كان يصعب عنده ، حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة .. »

تلك هي الإجابات المبدئية لابن حزم عن « ماهية الحب » . انه بعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن « علامات الحب » .

يقول ابن حزم :

« .. وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدي إليها الذكي ، فأولها إدمان النظر ... فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوي بانزوائه ...

«ومنها الإقبال بالحديث (مع المحبوب) والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتي به وكأنه عين المحال وخرق العادات ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ،

واتباعه كيف سلك وأي وجه من وجوه القول تناول ..

«ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه ، والدنو منه ، وإطراح الاشغال الموجبة للزوال عنه ، والإستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ...

« ومنها بهَت يقع ، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة ..

«ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة ..

«ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، وكأنه هو الموهوب له والمسعّى في حظه ، كل ذلك ليبدي محاسنه ويرغّب في نفسه ، فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ القلب تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفل تزين ، وفقير تجمل ، وذي سن تفتى ، وناسك تفتك ، ومصون تبذل ..

« هذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعلته واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه ، فحينئذ ترى الحديث سراراً ، والإعراض عن كل ما حضر إلا المحبوب جهاراً ...

«ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذي بصر الإنبساط الكثير الزائد ، والتضايق في المكان الواسع ... ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء ، وتحري المكان الذي يقابله فيه ..

«ومنها علامات متضادة ، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة ، والأضداد أنداد والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها .. تشابهت .

قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام . فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد فعل فعل النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين ، وهذا في العالم كثير . فتجد المحبين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً أكثر بهما جدهما بغير معنى ، وتضادهما في القول تعمداً ، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها . كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه . والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعة الرضى : فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الإختلاف الذي لا يقدر ... فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة ... وسقط الخلاف وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة . هكذا في الوقت مراراً ..

«ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام في أخباره ... وحبك الشيء يعمي ويصم ..

«ومن علاماته حب الوحدة والأنس بالإنفراد ، ونحول الجسم دون حد يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلب ..

«والسهر من أعراض المحبين» ...

«و(الحب) من أعراضه الجزع الشديد والحمرة المقطعة تغلب عندما يرى من أعراض محبوبه عنه ونفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصعداء ..

«ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته ، حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته ..

«والبكاء من علامات المحب ، ولكن يتفاضلون فيه . فمنهم غزير

الدمع هامل الشؤون تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء ، ومنهم جمود العين عديم الدمع ، وأنا منهم ... وتكاد تشوقني النفس أحياناً ولا تجيب عيني البتة إلا في الندرة بالشيء اليسير من الدمع ..

« ويعرض في الحب سوء الظن واتهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها إلى غير وجهها ، وهذا أصل العتاب بين المحبين ..

« ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبعه لحركاته . ولعمري لقد ترى البليد بصيراً في هذه الحالة ذكياً ، والغافل فطناً .. »

هكذا ينطلق ابن حزم ، بعقل رجل لا يذم ولا يمدح ، ولكن يتأمل تلك العاطفة الإنسانية الكبرى – الحب . إنه لا يرفع السوط على أحد .. ولا يفرش البساط لأحد .. ولكنه يتأمل كل أحد . يتأمل الناس حوله .. ويتأمل نفسه .. مستخدماً لهجة الفيلسوف .. وأسلوب الأديب .. ومحاولة الإنسان الدائمة لكي يفهم نفسه ويفهم الآخرين .

إن ابن حزم ينطلق بعد ذلك ، طارحاً الأسئلة .. ومقدماً الأجوبة .

هل يمكن أن يوجد حب بالوصف ؟ هل يمكن أن يحب إنسان شخصاً آخر ، لمجرد سماع صوته أو توهّم صورته ؟ نعم . ممكن . وهذا يكون غالباً من ربات القصور والمحجبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، و« حب النساء في هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكنه منهن » .

ان ابن حزم يرى اذن ان الحب بالوصف ، ومن غير رؤية ، يمكن أن يحدث ، بل هو « قد وقع لغير ما واحد » .. ولكن هذا لا يمكن أن يكون حباً . انه في الواقع « بنيان هاو على غير أساس » .

سؤال آخر : هل يمكن أن يقع حب من النظرة الأولى ؟ أو : هل

يمكن أن يولد حب .. من مجرد نظرة واحدة ؟ نعم . وكثيراً . ولكن ، مرة أخرى ، لا يمكن أن يكون هذا حباً حقيقياً .. « فمن أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومخبر بسرعة السلو ، وشاهد الظرافة والملل . وهكذا في جميع الأشياء .. أسرعها نمواً أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً » .

ليس هذا فقط ، بل إن ابن حزم يسجل عن نفسه « .. وإني لأطيل العجب من كل من يدعي إنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب ، فما أقدر ذلك . وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً ، وأخذي معه في كل جد وهزل » .

ان مذهب ابن حزم هو : « ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً » .. ولذلك فإنه يتحدث عن انه « من الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة ، وكثير المشاهدة ، وتمادي الأنس ، وهو الذي يوشك أن يدوم ويثبت ، ولا يحيك فيه مر الليالي » .

سؤال ثالث : هل يمكن أن يحب المرء اثنين في وقت واحد ؟ بالطبع لا . هذا ما يقطع به ابن حزم ، فـ « .. من يزعم انه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة ... وهي على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق » . إن من يزعم غير ذلك هو كمن يزعم ان له عقلين .. أو له قلبين .. أو يؤمن بدينين .. كلاهما كاذب .

إن الحب ، عند ابن حزم ، هو عاطفة لا هزل فيها .. ولا كذب بشأنها .. ولهذا فهو يكتب : « اعلم أعزك الله ان للحب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمراً لا يخالف ، وحداً لا يعصي ، وملكاً لا

يتعدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذاً لا يرد » .. والحب « يحل المبرم ، ويحلل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحل الشغاف ، ويحل الممنوع » .

وبعض الناس يحب صفة ، لا يحب غيرها بعد ذلك حتى لو انتهى حبه الأول . هكذا يلاحظ ابن حزم ، ويضيف : « دعني أخبرك أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو انه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه . وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، ولا تؤاتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله » .

ثم ينتقل ابن حزم بعد ذلك إلى التعبير عن الحب . فالتعبير قد يتم بالقول ، إما بانشاد شعر ، أو بإرسال مَثَل ، أو تعمية بيت ، أو طرح لغز ، أو تسليط كلام . ويحكي ابن حزم هنا حكاية طريفة عن فتى وجارية كانا يتحابان ، ولكن الفتى أرادها في بعض ما لا يجمل ، فقالت له : إني والله سأشكوك في الملأ علانية ، وسأفضحنك فضيحة مستورة .

فلما كان بعد أيام حضرت الجارية مجلساً يضم بعض أكابر الملوك وأركان الدولة ، وفتاها في جملة الحاضرين . ولما جاء عليها الدور للغناء ، سوت عودها واندفعت تغني بأبيات قديمة ، تقول :

خضعت خضوع صب مستكـــين　　له .. وذللت ذلـــة مستهـــام
فصلْني يـا فـديتُك في حــلال　　فما أهــوى وصالاً في حـــرام

وعندما علم ابن حزم بالأمر ، علق عليه شعراً بقوله :

عتاب واقـــع وشكـــاة ظلـــم　　أتت من ظالـــم حكـــم وخصـــم
تشكت مـا بهـا لم يـدر خلـــق　　سوى المشكوّ مـا كانت تسمـــي

إن التعبير عن الحب يمكن اذن أن يكون بالكلام ، تلميحاً

وتصريحاً . ويمكن أيضاً أن يكون بالعين . ان ابن حزم يرى ان الإشارة بلحظ العين يمكن أن يكون عجيباً .. فبتلك الإشارة وحدها يتم الوصل أو يقطع .. وتلك الإشارة يمكن أن تهدد .. وتعد ، تنهر وتبسط ، تأمر وتنهى ، تضحك وتحزن ، تسأل وتجيب ، تمنع وتعطي . ان العين تنوب عن الرسل .. وإذا كانت الحواس الأربع هي أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس .. فإن العين هي أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً .

ثم يتحدث ابن حزم بعد ذلك عن المراسلات في الحب ، وعن دور السفير بين المتحابين . إنه يلاحظ مثلاً ان «أكثر ما يستعمل المحبون في ارسالهم إلى من يحبونه .. اما خاملاً لا يؤبه له ولا يُهتدى للتحفظ منه لصباه أو لهيئة رثة أو بذاذة في طلعته .. وأما جليلاً لا تلحقه الظنن لنسك يظهره أولسن عالية قد بلغها .. أوذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء ، كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسيج وما أشبه ذلك .. .. أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح بها عليه » .

وللحب صفات ، بعضها محمود .. مثل طي السر والكتمان لأن « هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع » .. وبعضها مذموم ، مثل الإذاعة والتشهير . فالمحب الذي يحرص على إذاعة حبه هو في رأي ابن حزم شخص يريد أن يختلس لنفسه أزياء المحبين . والمحب الذي يحرص على اشتهار حبه هو إنسان غير عفيف .. ولهذا يقول ابن حزم بكلمات حادة قاطعة : « .. قرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدّقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن . ولا أدري ما معنى هذا ، على انه يذكر عنهن العفاف ، وأي عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى ؟ » !

إن ابن حزم يرفض هذا السلوك رفضاً قاطعاً .. ولكنه من ناحية أخرى يقبل التذلل في الحب ، لأن الحب ليس فيه تكبر .. ولا مذلة .. ولا منتصر ومهزوم . ان تلك الكلمات تتغير معانيها بين المتحابين .. لأن الحب يغير الطباع ، فمن كان شرس الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القيادة ، ماضي العزيمة ، حمي الأنف ، عندما « يتنسم نسيم الحب ، ويتورط في غمره ، ويعوم في بحره ، فتعود الشراسة لياناً ، والصعوبة سهلة ، والمضاء كلالة ، والحمية استسلاماً » .

ثم يتحدث ابن حزم عن آفات الحب .. وهي : العذول ، والرقيب ، والواشي .

إنه يبادر أولاً إلى الحديث عن دور الصديق المخلص في الحب ، فـ « .. من الأسباب المتمناة في الحب أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقاً مخلصاً ، لطيف القول ، بسيط الطول ، حسن المأخذ ، دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخالفة ، عظيم المساعفة ، شديد الإحتمال ، صابراً على الإدلال ، جم الموافقة ، جميل المخالفة ، مستوي المطابقة ، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة ، نبيل المدخل ، مصروف الغوائل ، غامض المعاني عارفاً بالأماني ، طيب الأخلاق ، سري الأعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الأمانة ، مأمون الخيانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، ظاهر الغناء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، مستبق الوداد ، سهل الإنقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يألف الأمحاض ولا يعرف الاعراض ، يستريح إليه ببلابله ، ويشاركه في

خلوة فقره ، ويفاوضه في مكتوماته . وان فيه للمحب لأعظم الراحات . وأين هذا ؟ فإن ظفرت به يداك فشدّهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما امساك البخيل ، وصنه بطارفك وتالدك .. فمعه يكمل الأنس ، وتنجلي الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال ، ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلاً ، ورأياً حسناً » .

إن ابن حزم يرى ان مثل هذا الصديق هو عون ضروري للمحب ، لان « الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها » .. فإذا لم يجد المحب من يأتمنه عليها » .. لم يلبث أن يهلك غماً و يموت أسفاً» .

وفي مقابل مثل هذا الصديق .. ودوره الإيجابي في الحب .. هناك الوشاة والنمامون ، ودورهم في الحب مدمر ومخرّب . فالنميمة ، في رأي ابن حزم ، هي طبع « يدل على نتن الأصل ورداءة الفرع وفساد الطبع وخبث النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب » . والواشي قد يكون هدفه مجرد القطع بين المتحابين ، فوشايته هي « السم الزعاف » .. وقد يكون هدفه هو أن ينفرد بالمحبوب و يستأثر به .. أو قد يكون له كلا الهدفين ، وحباً في الوشاية لذاتها .. أو النميمة للمتعة بها .. وابن حزم نفسه يروي عن نمام عرفه ، وكان أكثر نميمة من المرآة .. و« أقطع بين الناس من قصب الهند» .

على أن ابن حزم يرى أن الحب إذا نجا من هذه الآفات ، فإنه يصبح « .. الصفاء الذي لا كدر فيه ، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأماني ، ومنتهى الأراجي . ولقد جربت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنو من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ،

ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال .. من الموقع في النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الإمتناع » .

ثم يتحدث ابن حزم عن الهجر بين المتحابين . ان الهجر أنواع . فهناك هجر يوجبه التحفظ من رقيب موجود ، فهو أحلى من كل وصل ، لانك ترى المحب حينئذ « .. منحرفاً كمقبل ، وساكناً كناطق ، وناظراً إلى جهة .. نفسه في غيرها » .

وهناك هجر يوجبه التذلل ، وهو (أيضاً) ألذ كثيراً من الوصال .. ولذلك لا يكون «إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه» ..

ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب ، وهذا «فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى .. يعدل ما مضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة ، وموقفاً من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا» .

ثم هناك هجر دافعه الملل .. وهنا يحدد ابن حزم موقفه بوضوح من الشخص الملول . ان الملول شخص لا أمان له ، حتى كصديق ، و« .. أهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة ، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد ، وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم إليه . فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك ، ولا تعنها بالرجاء في وفائه » .

إن ابن حزم يحلل هنا الظاهرة التي سوف تسمى فيما بعد «الدونجوانية» .. وهي ظاهرة سوف تصبح شخصية «دونجوان» رمزاً لها . شخصية لا يعنيها من الحب عمقه .. ولكن تعدده .. وهي لا تبحث عن حب في الواقع ، ولكن عن غزوة بعد غزوة . شخصية ، روى ابن حزم نموذجاً لها ، فيخبرنا عن رجل بمجرد أن يرى ضالته « .. فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الإغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه .. حتى يملكها ولو حال

دون ذلك شوك القتاد . فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شروداً ، والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان » .

وابن حزم لا يتحدث عن شخصية الملول .. أو الدونجوان .. باعتباره رجلاً أو امرأة . فالطابع الدونجواني يمكن أن يوجد عند كليهما . وقد وصف لنا الجاحظ من قبل نموذجاً نسائياً لتلك الشخصية حينما كتب يقول عن امرأة انها : « ... لا تكاد تخالص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتهما . فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست بأن سحرها قد تقلب فيه وأنه قد تغلغل في الشرك ، تزيّدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو إليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها .. » .

هكذا انطلق الجاحظ من قبل في رسم تلك الشخصية ، ثم أضاف عنها : « .. وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون الإجتماع ، ويتغايرون عند الإلتقاء . فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطي واحداً سرها والآخر علانيتها ، وتوهم أنها له دون الآخر ، وان الذي يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين ، وحرصها على الخلوة به دونهم » .

إن كلاً من ابن حزم ، والجاحظ ، يكتبان هنا عن شخصية واحدة .. أو نموذج واحد من الشخصية ، على اختلاف اسلوبهما وعصريهما . الثاني بأسلوب شاعر ، والأول بأسلوب محلل نفسي .

والواقع ان ابن حزم نفسه واضح في تأكيده على ان إيجابيات الحب وسلبياته لا تتوقف على طبيعة المحب من حيث هو رجل أو امرأة .. فـ «الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء» .

إن ابن حزم يخصص بعد ذلك في كتابه «طوق الحمامة» باباً عن الوفاء . إنه يروي أمثلة ووقائع لحالات رفيعة من الوفاء شاهدها بين المحبين ، وهو يرى أن الوفاء يكون أكثر وجوباً على المحب منه على المحبوب .. لإنه هو البادي والقاصد لتأكيد العودة . ولكن ، بصفة عامة ، فإن «.. للوفاء شروط على المحبين لازمة . فأولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته ، وتستوي علانيته وسريرته ، ويطوي شره وينشر خيره ، ويغطي على عيوبه ويحسّن أفعاله ، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ، ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه بما ينفرد منه ... وعلى المحبوب ان ساواه في المحبة مثل ذلك . وان كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ..»

وكما يعتبر ابن حزم ان الوفاء في الحب هو صفة نبيلة .. فمن الطبيعي اذن ان يكتب عن الغدر باعتباره صفة كريهة . انه هو نفسه يرى انه «ما من شيء أثقل علي من الغدر» .

أخيراً يناقش ابن حزم انتهاء الحب وأسبابه ، لأن «كل ما له أول فلا بد له من آخر» . متى يكون الانتهاء بسبب من المحب .. ومتى يكون بسبب من المحبوب .. الخ .

في النهاية يتحدث ابن حزم عن قبح المعصية ، وفضل التعفف . وفي

طريقه إلى ذلك يسجل ملاحظات فريدة تنطلق من خبرته وقيمه الشخصية فهو يقول مثلاً : « .. لست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً . وأعوذ بالله أن أظن غير هذا . واني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ، أعني الصلاح ، غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها إن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل اليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات » .

وبصفة عامة فـ « الصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد .. لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنار المشتعلة .. تحرق كل شيء » .

ثم شيء يصفه ابن حزم لكي « .. تراه عياناً . وهو اني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لا خفاء به . والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء ...

« ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم . وأصل ذلك اني لم أحسن قط بأحد ظناً في هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبت في ...

« فلم أزل باحثاً عن أخبارهن ، كاشفاً عن أسرارهن ، وكن قد أنسن مني بكتمان ، فكن يطلعنني على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن في السر ، ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب » .

تلك اذن هي خلاصة وافية لتلك الدراسة الكاملة التي كتبها ابن حزم في الحب . ومن الناحية المبدئية فإن ابن حزم لم يكن أول من ألف في الحب بالنسبة للمكتبة العربية .. فلدينا ذلك الكتاب الضخم الذي وضعه أبو بكر السراج بعنوان « مصارع العشاق » .. ولدينا ابن المقفع في « الأدب الكبير والأدب الصغير » .. والجاحظ في رسالته السابعة « في العشق والنساء » .. ولدينا الإمام ابن الجوزي في كتابه « ذم الهوى » ..

مع ذلك ، فإن ابن حزم في كتابه ليس مجرد سارد أو مؤرخ كأبي بكر السراج ، برغم أنه يستعين أحياناً بوقائع من مجتمعه . وهو ليس واعظاً كابن الجوزي ، مع انه يكتب في النهاية عن فضيلة التعفف .. ولا هو أديب كالجاحظ ، مع ان عباراته أدبية . ان ابن حزم يتميز هنا ، في هذا الكتاب ، بأنه متأمل ومحلل للنفس البشرية . انه لا يهدد في كل سطر بجحيم النار ولا يغري بالجنة . انه طبيب . والطبيب يهمه أولاً أن يجيد التشخيص للحالة التي أمامه .

وإذا كانت الكتب الأخرى في الأدب العربي : من حيث الزمن ، هي شريحة بالطول .. فإن كتاب ابن حزم هو شريحة بالعمق . في الواقع انه وثيقة عاطفية ، أو كاميرا دقيقة ، تصور حياة مجتمع بأسره ، هو المجتمع الأندلسي الذي عاصره ابن حزم ، من خلال علاقة الرجل بالمرأة .. ورؤية الحب كعاطفة أساسية في تركيبنا الإنساني .

من ناحية أخرى ، فإن ابن حزم ألف هذا الكتاب وهو متنبه مقدماً

إلى المخاطر التي تنتظره .. من خصومه على الأقل .

إنه يسجل في الكتاب : «يعلم الله ، وكفى به عليماً ، إني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، لقي الحجزة ، واني أقسم بالله أجل الإقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومنا هذا» .

مع ذلك ، فهذا لا يكفي . لهذا يعود ابن حزم ليكتب من جديد في نهاية الكتاب قائلاً : «.. وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصبين تأليفي لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته . قال الله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم» .

ولقد رأينا الرجل يختلف من قبل مع الأغلبية في المنطق والدين والسياسة . هذا الكتاب هو إضافة أخرى ، لرصيد الإختلاف .

وإذا كنا نستطيع ، ربما ، ان نفهم جزءاً من هذا الاختلاف .. إلا أننا سنجد من الصعوبة بمكان أن نفهم كل هذا الاضطهاد والتشريد الذي عومل به ابن حزم جزاء إخلاصه لآرائه التي آمن بها ودعا إليها طوال حياته .

إن الطريقة التي عاملته بها الأغلبية تصبح هنا أكثر أهمية من الحجم . لقد اعتبره الأوربيون فيما بعد مؤسس علم الأديان المقارن ، وترجموا كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» إلى الاسبانية . وقال فيه الحميدي ، أحد تلاميذه ، انه «كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه ، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متقناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، زاهداً بالدنيا ... وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمستندات شيئاً كثيراً ، وسمع سماعاً جماً» .

أكثر من ذلك ، فإن واحداً من الخصوم الذين ثاروا في وجهه يعترف له من البداية بـ «المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف» . انهم يشهدون له بالإخلاص في دوافعه والنزاهة في علمه والأمانة في سعيه نحو الحقيقة . ولكن هذا شيء .. وقدرته الهائلة على التمرد شيء مختلف .

ولم يكن من الممكن أن تمر آراء ابن حزم ومواقفه هذه على فقهاء عصره بسهولة . ان جزءاً منها فقط كان يكفي ، ولكنها جميعاً أدت إلى تراكم الخصوم أمامه . خصوم في السياسة والشريعة والفقه والأدب . لقد فتح ابن حزم على نفسه حرباً متعددة الجبهات ، وهو سوف يصطلي الآن بنارها . ان خصومه الذين تراكموا ضده يبدأون في معارضته والرد عليه ومطالبته بثأر قديم وانتقام بائت ومطاردة مستمرة . مطاردة حتى الموت .

لقد قال عنه ابن بسام : «كان كالبحر لا تكف غوار به ، ولا يروّى شاربه ، ولا يمكن نائله» .. وقال ابن حيان : «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب ، وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ... غير انه ...»

غير انه .. ماذا ؟

هنا يقول ابن حيان : «غير انه ... كان يجادل عن علمه هذا من خالفه ، على استرسال في طباعه ، ومَذْل بأسراره ، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ، (ليبيننه للناس ولا يكتمونه) .. فلم يك يلطف بما عنده من تعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ... فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيّرونه عن بلادهم ...» .

اذن ابن حزم «لا يزف» آراءه ومعارضته بتدريج .. وتلك جريمته عند

فقهاء عصره ؟ نعم . ان تشدد ابن حزم في الدفاع عما يعتقد انه حق .. ولكن هذا هو بالضبط ما يضاعف من سخط الأغلبية عليه . لقد بدأت الأغلبية من فقهاء عصره في اتهامه بالإلحاد والكفر و« .. تمالأوا على تضليله وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيّرونه عن بلادهم ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به » .

إن الحرب التي بدأت ضد ابن حزم بمعارضته أولاً ثم بإثارة الغبار حوله والتشنيع عليه ثانياً .. قد تطورت في النهاية إلى حسد وحقد عليه ، وكراهية له ، وتحذير من فتنته . حرب كانت من العنف بحيث بدأ بعض أصدقائه ينصحونه بعدم التمادي في الرد على معارضيه ، ولا المغالاة في التمسك برأيه . ولكنه في كل مرة يكون فيها محل اختيار .. فإنه كان يختار أن يفقد صديقاً عزيزاً ، عن أن يتنازل عن رأي يؤمن بأنه صحيح .

لقد تحول ابن حزم إلى معارضة . تحمل فقدان الأصدقاء . تحمل العزلة . تحمل الإضطهاد . تحمل النفي والتشريد . تحمل كل هذا بصدر مفتوح وقلب لا يشكو وعقل لا يستسلم .

إنه في إحدى المرات التي يكتب فيها من منفاه ، يصف لنا حاله قائلاً :
« .. فأنت تعلم ان ذهني متقلب وبالي مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والخلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه » .

إنه لم يشلك إلى الله عنف الحرب ضده . ولكن معارضيه هم الذين بدأوا بالشكوى منه إلى السلاطين . في الواقع ان سلاحهم أصبح هو التحريض ضده .. بأكثر مما كان المعارضة له . لقد لجأوا إلى الأمراء والحكام لطرده أولاً ، ثم لمعاقبته ثانياً . ان ابن حزم تحول فجأة إلى وباء لا بد من القضاء عليه . ان رأيه المختلف أصبح هو الشيء الذي لا بد من علاجه حالاً وفوراً ، لكي تصبح الدنيا أمامهم أقل من جنة وأكثر من مأوى . ان كل مرض سيعالج ، وكل مشكلة ستحل ، وكل وباء سيختفي ، وكل انقسام سيزول ، وكل فساد سينتهي ، ولكن فقط .. فقط .. بعد أن تزول أفكار هذا الرجل من الوجود . ان الحياة ستكون على ما يرام .. بمجرد أن تتم إدانة ابن حزم والتخلص منه .

هكذا استعان معارضوه بالمعتضد ابن عباد حاكم اشبيليه ، لكي يصدر القرار المطلوب في النهاية : الحرق .

نعم . قرر الحاكم احراق كتب ابن حزم ومؤلفاته علناً . لو كان ابن حزم موجوداً أمامهم لقتلوه . وطالما ان وجوده منفياً لا يتيح لهم ذلك .. فإن الحكم عليه بالموت أدبياً سوف يكون بديلاً عن الحكم عليه بالموت جسمانياً .. بديلاً وحلاً .

هكذا « مات » ابن حزم أدبياً للمرة الأولى بفعل خصومه .. قبل أن يموت طبيعياً بقضاء الله . هكذا أحرقت كتبه ومؤلفاته علناً ، وأمام الجميع لكي يأخذ هو الدرس ويرتدع .

ولكنه لم يرتدع . لقد فشل اليأس في داخله ، مرة أخرى ، في مغالبة الأمل في عقله . وبدأ هو يرد من منفاه على خصومه . رداً بليغاً مطولاً . رداً بالشعر يقول فيه :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الـذي تضمنه القرطاس ، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبـــي ويـنزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعــوني مــن احــراق رق وكاغــد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعــــودوا في المكـــاتب بــدأة فكم دون مـا تبغون لله مـــن ستر

لقد قيل دائماً ان أزهد الناس في عالم أهله .. وقيل أيضاً ان الحسد داء لا دواء له . ان هذه التجربة أدت إلى زيادة إصرار ابن حزم على آرائه . ولكنها أدت أيضاً إلى شحن صورته عن الناس بالمرارة . إن أمله في الله لن يخبو مطلقاً ، ولكن أمله في الناس كاد يتحول إلى يأس منهم .

إن واحداً من آرائه لم يهتز أو يسقط أمام كل الوشايات والأكاذيب والإفتراءات التي اختلقها خصومه ضده . وحتى حينما انضم ابن عمه إلى الناس ضده وأعان الزمان عليه .. حتى حينما انضم ابنه فيما بعد محارباً في صف ألد أعداء أبيه .. فإن آراء ابن حزم ظلت على ما هي عليه .

إن الأمل في داخله لم يستسلم لليأس .. ولكن حسن النية بالناس قد أفسح مكانه لشيء من المرارة . قليل من المرارة وكثير من الحسرة و.. لا شيء من الندم . انه لم يندم على رأي واحد أبداه في حياته مطلقاً . في الواقع انه انطلق من جبهة إلى جبهة .. ومن رأي إلى رأي مبتعداً ، في كل رأي جديد كان يدعو إليه من البداية ، نقطة أخرى عن موقع الأغلبية في مجتمعه وعصره .

لقد قرر ابن حزم باختياره أن يعيش حياته في موقع مختلف . لقد حكم على نفسه بالإنعزال ، واختار ، مقتنعاً ومؤمناً ، أن يعارض جيله ، ويعيش منفياً .. مختاراً ومضطراً .

إنه كسياسي يضع نفسه في الكفة الخاسرة . كمؤلف يجتهد برأي مختلف . كمفكر يستكشف أراض محرمة .

إنه يقيم سوراً من الأسلاك الشائكة بين نفسه وبين الذين انطلقوا

لقتاله . سور من الإغتراب والتشريد والنفي والإضطهاد . سور شائك .. وثمن مرتفع .. لنتيجة أخيرة أرادها ابن حزم لنفسه : الحرية . حريته في أن يسير أماماً .. أو ينزلق جانباً .. أو يقف وحيداً .. أو يموت مؤمناً .

وحينما مات ابن حزم للمرة الثانية ، موتاً طبيعياً هذه المرة ، فإنه مات مقتنعاً . مات عن اثنتين وسبعين سنة . لقد امتدت حياته من شهر رمضان سنة ٣٨٤ هجرية إلى شهر شعبان سنة ٤٥٦ هجرية (٩٩٤ م ١٠٦٤ م) . سنوات عاشها ابن حزم في صراع حاد بين الأمل واليأس .. وعاشها خصومه في مطاردة مستمرة لا تنقطع ضده . ضد رأي مختلف انطلقوا خلفه كالأشباح . مطاردة استمرت قروناً بعد وفاته .. حينما ظهر ضده كتاب «العواصم من القواصم» .. ثم «الدواهي والنواهي» لأبي بكر العربي .. مثلما ظهر كتاب «الزوائغ والدوامغ» لواحد من اسباطه .

مع ذلك فخلال تلك المدة نفسها ، بعد وفاة ابن حزم ، وقف أحد سلاطين الأندلس على قبر الرجل ليقول : كل العلماء عيال على ابن حزم .

وكتب المؤرخون بعد وفاة ابن حزم بقرنين انه : «.. أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء» .

في الواقع : ان ابن حزم لم يحصل على كثير مما استحقه .. ولم يستحق كثيراً مما أصابه .

شيخ ..
في خط النار

أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم .. ونصف متفقه ..
ونصف طبيب .. ونصف عالم .

١

للحديث مع أصحاب السلطان أصول وأدب . الأغلبية تجيد هذا الأدب ، والأقلية ترفضه .

٢

القاهرة . الصباح . انه شهر رمضان . ونحن في سنة ٧٠٠ هجرية .

هذا رجل من الأغلبية . اسمه محمد بن مالك . لا كفاءة ولا سمعة ولا معرفة ولا علم ولا دين ولا رأي ولا فضيلة ، ولكن .. كثير من الأدب مع السلطة . هذا النوع من الأدب . انه يعرف أن السلطان في مصر هو واحد من المماليك الذين يحكمونها منذ خمسين سنة . الحكم عسكري ، والدين مظهر ، وغرور الحاكم هو نقطة الضعف . المنافق يغذي في الحاكم دائماً غروره وضعفه .

دخل المنافق الذكي إلى السلطان ، بعمامة فوق رأسه ، ومذكرة في يده .

تناول السلطان المذكرة وناولها للحاجب ليقرأها عليه . ان السلطان ،

حاشا لله ، لا يتعاطى القراءة أو الكتابة . يتعاطى القتل بالسيف فقط .

الحاجب يقرأ ، والسلطان يستمع .

إنها مذكرة «.. يرفعها الفقير إلى رحمة ربه ، محمد بن مالك ، يقبل الأرض وينهي إلى السلطان أيد الله جنوده ، وأبّد سعوده .. انه عرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب .. وأمله أن يعينه سيد السلاطين ومبيد الشياطين — خلد الله ملكه ، وجعل المشارق والمغارب ملكه — على ما هو بصدد من افادة المستفيدين والمسترشدين بصدقه .. تكفيه همّ عياله ، وتغنيه عن التسبب في صلاح حاله ...»

وسكت الحاجب قليلاً ليرى وقع المذكرة على وجه السلطان . الوقع طيب ، والمذكرة بليغة ، وصاحبها «بتاع كله» .. والمهم انه يعرف أقدار الناس .. وخصوصاً السلاطين منهم !

اذن : الحاجب يواصل القراءة ...

«.. وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية الناصرية الناس ، خصوصاً وعموماً ، وكشف بها عن الناس أجمعين عموماً ، ولـمّ بها من شعث الدين ما لم يكن ملموماً ، فمن العجائب أن يكون المملوك من مرتدي خيراتها وعن يمين عنايتها غائباً محروماً .. مع انه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها ، وأقوم الموالين بمراعاة زمامها ، لا برحت أنوارها زاهرة ، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة ، وأياديها مبذولة موفورة ، وأعاديها مخذولة مقهورة» .

انتهت المذكرة . ان السلطان يفكر . انه يفكر ويفكر ويفكر ويفكر .

وأخيراً يقرر : يولى صاحب المذكرة منصب «القضاء والخطابة ونظر الأحباس ومشيخة الشيوخ ونظر الخزانة وتداريس كبار» .

(ملحوظة . بمفهوم القرن العشرين ، فإن هذا يعني : يولي صاحب

المذكرة وزيراً للأوقاف والعدل والتعليم العالي والخزانة والمالية والإعلام ، كلها .. مرة واحدة) !

إن السلطان يقدر الأدب . الطاعة والولاء والأدب .

٣

نفس اليوم . نفس السلطان .

الحاجب يقرأ البريد ، والسلطان يستمع .

إن فقهاء مدينة دمشق يشكون من زميل لهم ، هو شيخ الإسلام «ابن تيمية» . يقولون إن هذا الرجل قد كفر في تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم ، وكفر أيضاً في قوله للناس إن واجبهم في طاعة الحاكم يتساوى مع حقهم في طلب العدل منه .

وفكر السلطان : أما الكفر بالله ، فالله يحاسبه عليه . أما الكفر بالحاكم الظالم فيحاسب عليه أيضاً ، ولكن الآن .. وفوراً . اذن : ابعثوا في طلب هذا الشيخ .. الآن ، وفوراً .

٤

دمشق . رسالة السلطان في القاهرة تصل إلى نائبه في دمشق .

نائب السلطان ، واسمه «ابن الأفرم» .. ينصح الشيخ ابن تيمية بعدم الذهاب إلى مصر لإنه يتوقع من طلبه شراً عليه .

ورد الشيخ : ولكن السلطان قد أمرك بارسالي إليه ..

قال نائب السلطان : معلهش .. أنا أتمهل السلطان ، ثم أكاتبه ، وأصلح القضايا ..

رد ابن تيمية : أشكرك على المشورة .. ولكنني أطيع السلطان .. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ..

تمتم نائب السلطان مشفقاً : ولكن الرسالة فيها شر لك ..

لم يسمع الشيخ .

٥

تحت الحراسة . إلى القاهرة .

٦

لم تكن هذه أول مرة يذهب فيها ابن تيمية إلى القاهرة . لقد مضت سنوات على المرة الأولى . هذه المرة تختلف . انه في هذه المرة يسير بلا رفيق معه سوى أخيه ، وحراسه ، وذكرياته . ذكريات ابن تيمية ترجع إلى ٤٤ سنة مضت .

٧

ولد أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في يوم الاثنين ، العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ هجرية (١٢ يناير سنة ١٢٦٣ ميلادية) . ولد بمدينة حران في الشام . مدينة كان أبوه شيخها وخطيبها وحكيمها ، بحكم تفقهه في الدين وتخصصه في فقه المواريث . ولكن أحمد بن تيمية له تجربة لا ينساها في تلك المدينة ، وهو ما يزال في السادسة من عمره . تجربة وقعت في سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) . ففي تلك السنة اضطرت أسرته إلى الفرار من المدينة .. وغادرتها ليلاً .. بسبب غزو التتار . ان الأسرة استأجرت عربة متهالكة لتحمل متاعها ، والأهم من

ذلك تلك الكتب النفيسة التي يحتفظ بها الأب ، في فرارهم من كارثة الغزو الأجنبي .. تهددهم طلائع جيش التتار في كل لحظة .. حتى وصلوا إلى دمشق .. للإقامة فيها .

هكذا ولد ابن تيمية في عصر من الغزو والتفكك والضعف والانحلال والإختلاف . عصر بدأت الأمة الإسلامية تعاني فيه من الأخطار ضدها .. بعد قوتها الأولى .

إن الدولة الواحدة انقسمت إلى دولتين : في الشرق عباسيون .. وفي الغرب أمويون . والشعب العربي انقسم إلى فريقين متصارعين : ذلك ينادي بالعروبة أولاً .. وذلك ينادي بالإسلام أولاً . والدين الواحد انقسم إلى دينين : دين لأهل الكتاب والسنة ، وهم الأغلبية .. ودين للشيعة والخوارج والرافضة وغيرهم – وهم الأقلية .

كان الناس يعيشون في حالة توتر ديني . فبعد قوة الدفع الأولى التي أعطاها الإسلام للعرب .. بدأ النزول إلى أسفل . لقد اتفق العرب على الإسلام ، فتوحدوا .. واختلف العرب في الإسلام ، فتفرقوا .

وكان الناس يعيشون أيضاً في حالة توتر سياسي . الدين نفسه أصبح وسيلة من وسائل السياسة .. فكل فريق يلجأ إلى الدين مستغيثاً به ضد الآخرين .

وفي غياب نظرية سياسية واضحة ، فالسلاطين كانوا دائماً ضد الحوار السياسي ، أصبحت المشكلة في الدولة الإسلامية هي : لمن الحق في الحكم ؟

لم تكن هناك نظرية ، فتقدم السيف ليؤدي مهمة النظرية . لقد أصبح المألوف هو الوصول إلى الحكم بانقلاب عسكري .. الأمويون

في المغرب ، والعباسيون في العراق ، والمماليك في مصر .. وصلوا بانقلاب عسكري .

ولأن الذين وصلوا إلى السلطة بالقوة يخشون دائماً من فقدانها بالقوة .. فقد أصبح الإستمرار في الحكم ، بأي ثمن ولأطول مدة ، هو هدف في حد ذاته .

كان الخطر اذن ينمو من الداخل . ولكن الإنهيار تأجل قليلاً ، بسبب قدوم الخطر من الخارج . خطر الصليبيين .. ثم خطر التتار .

٨

سقطت بغداد

انتهت الخلافة ، وانتهى معها عصر كامل . الآن عصر جديد .

٩

كان الخطر الصليبي هو أول حرب عالمية في التاريخ ، بكل معنى الكلمة . فهي حرب اشتركت فيها كل القوى الرئيسية في أوربا .. ضد كل القوى الوطنية في العالم العربي .

وكان الخطر المغولي هو اعصار مدمر ، اختصر في أربعين سنة كل الدمار الذي حققه الصليبيون في مائتي سنة .

وفي مواجهة الخطر في كلتا المرتين ، تراوح بندول الدراما السياسية في المنطقة ، ابتداء من مصر إلى سوريا والعراق مرة ، ثم من العراق إلى سوريا ومصر مرة ، بين منتهى اليأس من مواجهة الخطر .. وبين منتهى التنبه إلى ضرورة رفض الإستسلام له ، كمقدمة أكيدة لمواجهته .. ومن ثم ، الانتصار عليه .

وفي كلتا المرتين جرب العالم العربي كل وسيلة ممكنة في التعامل مع العدو .. ابتداء من التحالف معه إلى معايشته ومهادنته .. ثم أخيراً إلى مواجهته .

وفي كلتا المرتين كان هناك دائماً ألف مبرر ومبرر للتوقف عن الصمود للخطر .. ابتداء من الفقر إلى الضعف إلى الإنقسام إلى الأزمة الاقتصادية إلى النقص في السلاح . ولكن .. في مقابل ذلك كان هناك مبرر واحد للصمود ، هو : الأمن . أمن مصر بالدرجه الأولى .. وأمن العالم العربي بالدرجة الأكبر .

وفي كلتا المرتين أيضاً ، سلك العالم العربي كل الطرق .. ابتداء من طريق «السلام المنفرد» الذي جربته مصر مع الصليبيين مرة .. ثم العراق مع التتار مرة .. إلى طريق «المواجهة الشاملة» ضد العدو المشترك . وفي كل مرة رأى العالم العربي بعينيه النتائج العملية التي انتهى إليها كل واحد من الطريقين .

لهذا كله .. فإن الدروس المستفادة من مواجهة الخطر في كلتا المرتين .. هي دروس تكلفت خبزاً ودماء .. ودخلت إلى تاريخ مصر والعراق ، والعروبة بوجه عام ، معجونة بأضخم التضحيات وأنبلها .. وأكثرها مدعاة للفحص والتأمل .

وفيما يتعلق بالجيل الذي انتمى إليه ابن تيمية ، والعصر الذي عاشه ، وتاريخ الأمة بوجه عام .. فإن تلك الدروس الغالية والفادحة الثمن ، هي في الحقيقة دروس للأمن الشامل للعالم العربي ، وهي أيضاً دروس للأمن الخاص بكل دولة على حدة .

إن أول هذه الدروس هو : خطر السلام المنفرد .

لقد جاءت الموجة الأولى من الحروب الصليبية في سنة ١٠٩٧ م .

جاءت تمثل حرباً استعمارية بكل معنى الكلمة ، لها أهداف سياسية محددة ، ومع ذلك فإنها زودت نفسها بشعار الصليب كمجرد غطاء ديني يستهدف استرداد القدس من أيدي أولئك «الكفار» المسلمين !

مع ذلك ، فبمجرد أن تحقق للصليبيين انتصارهم الكبير الأول ، بالاستيلاء على انطاكية .. فانهم بادروا بتقديم عرض مدهش إلى مصر . إن العرض هو : أن تستولي مصر على القدس !

وللوهلة الأولى أصبح هذا العرض دليلاً أكيداً على حسن نوايا هذا العدو القادم من أوربا .. نحو مصر . والأكثر من ذلك أن مصر وجدت في داخلها من صدق هذا وآمن به .. ثم نفذه فعلاً .

هكذا دخل المصريون بيت المقدس فعلاً في سنة ١٠٩٧م (٤٩١ هـ) .. وذلك بعد استيلاء الصليبيين على انطاكية بشهر واحد .. وعقد الخليفة الفاطمي في القاهرة حلفاً دفاعياً مع الصليبيين في الشام .. وأرسل أول سفير له هناك .

وكانت دوافع الخليفة الفاطمي في هذا التحالف الغريب مثيرة حقاً . إن الخليفة أعطى السلطة الفعلية في الدولة لوزيره «الأفضل شاهينشاه ابن بدر الجمالي» .. الذي أصبح يقوم بعمل «وزير التفويض» .. (رئيس الوزراء) .. في مصر ، بعد أن «قلدك أمير المؤمنين جمع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره» .. على حد تعبير خطاب التفويض له .

وبمقتضى هذه السلطة ، أقنع الوزير خليفته ، بأن التحالف مع الصليبيين سوف يجعلهم يتفرغون لتصفية المسلمين السنة في الشام .. الأمر الذي يقوي المسلمين الشيعة في مصر .. فضلاً عن الميزة العاجلة ، وهي الحصول على القدس .

وكانت هناك ميزة أكبر وهي : توفير نفقات الحرب ، والخراب تجره الحرب ، على مصر وشعبها .

ولكن هذه الحرب ، أو المواجهة مع الصليبيين ، التي كان الخليفة الفاطمي يهرب منها .. فاجأته بشكل لم يتوقعه ، وبسرعة لم يتخيلها . فالدولة الصليبية كان هدفها من البداية هو تحييد مصر ، حتى تتفرغ لحروبها في الشام . وبمجرد أن حسمت الحرب في الشام لصالحها .. استدارت على الفور إلى الهدف الأصلي لها ، وهو : مصر .

هكذا انقضت الدولة الصليبية على المصريين في ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩م – أي خلال سنتين اثنتين فقط من «معاهدة التحالف والصداقة» مع مصر .. وذبحت المصريين عن آخرهم في مدينة القدس ..

إن الخليفة الفاطمي في القاهرة قد تنبه أخيراً ، ولكن بعد فوات الأوان . لقد قرر أن يعبئ جيشه للحرب ضد الدولة الصليبية .. ولكن الصليبيين فاجأوا هذا الجيش في مركز تعبئته – مدينة «عسقلان» .. وذبحوا الجنود المصريين ، وأحرقوهم أحياء ، عن آخرهم .

ومرة أخرى يستمع الخليفة الفاطمي إلى نصيحة انهزامية من وزيره الإنهزامي . في هذه المرة أصبحت الحجة هي : ان الصليبيين في فلسطين يملكون قوة عسكرية ضخمة ، ولا قبل لمصر بها . اننا نستطيع أن نتفادى خطرهم .. عن طريق رشوتهم !

هكذا حكم الخليفة ووزيره على شعب مصر بدفع مزيد من الضرائب .. لكي يجمع منها الاتاوة التي يدفعها بالذهب للدولة الصليبية في فلسطين !

مع ذلك فإنه حتى هذه اللحظة ، بل ولسنوات طويلة بعدها ، كان يمكن طرد الصليبيين من فلسطين كلها بهجوم بري واحد .. بشرط أن

يتجاوز الخليفة الفاطمي في القاهرة عن خلافاته مع الإمارات العربية في الشام ومع الخليفة السني في العراق .. ويتحد معهم ضد الخطر المشترك . لقد كانت الدولة الصليبية الجديدة ما تزال تفتقر إلى العمق اللازم للدخول في معركة حاسمة . وفيما عدا مدينة القدس ، ومدينة الرها ، فإن كل المدن الداخلية في الشام وفلسطين .. كانت ما تزال تحت السيطرة العربية الإسلامية .. ابتداء من دمشق وحمص وحلب وبعلبك ، وكلها تمثل سلسلة جاهزة من القواعد لخدمة الهجوم العربي المضاد .. فيما لو تقرر شنه ضد العدو المشترك .

ولكن لا أحد تحرك في قصر الخلافة الفاطمية (ومذهبها شيعي) في القاهرة ، أو الخلافة العباسية (ومذهبها سني) في بغداد . بل ان سكان فلسطين .. حينما أرسلوا وفداً منهم إلى السلطان العباسي في بغداد يستغيث به من مذابح الصليبيين في فلسطين .. حصلوا منه على دموع غزيرة للمواساة ، ولكن : لا شيء سوى الدموع !

كانت الفكرة الخاطئة هي ان كل سلطان ، في العالم العربي ، يريد أن ينجو بجلده من الخطر الصليبي . يريد سلاماً منفرداً .

وهكذا استطاع الصليبيون أن يتحالفوا مع دمشق مرة .. ضد حلب ، لمدة ثلاث سنوات .. ثم عادوا ينقضون على دمشق .

وتحالفوا مع طرابلس ضد دمشق .. ثم استولوا عليها .

وتحالفوا مع الموصل ضد حلب .. ثم استداروا ضدها .

وتحالفوا مع القاهرة ضد دمشق .. ثم انقلبوا عليها .

وفي كل تلك المراحل كان الصليبيون يستديرون ضد ضحيتهم التالية ، بعد أن أصبحوا أكثر قوة .

وهكذا وصلت ضخامة القوة العسكرية الصليبية في فلسطين إلى درجة

أنهم فرضوا حمايتهم العسكرية على مصر ، أكبر دولة في المنطقة ، مقابل اتاوة عاجلة تبلغ أربعمائة ألف دينار ذهباً .. بالإضافة إلى مائة ألف دينار من دخل مصر سنوياً !

ولكن ، سرعان ما اكتشف الخليفة الفاطمي في القاهرة أن قوة الحامية الصليبية التي جاءت إلى مصر لتحميها ضد خطر الشام .. قد جاءت في الواقع لكي تغزوها وتستعمرها .

إن الخليفة قد تنبه أخيراً ، ولكن بعد ٦٤ سنة من النوم الطويل ، والبحث عن سراب الحل المنفرد والسلام المنفرد ، فأرسل إلى نور الدين ، سلطان دمشق يستغيث به قائلاً : « هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الإفرنج » .

إن دمشق أغاثت القاهرة ، ولكن بعد أن ضاعت الخمسة وسبعين سنة الأولى من المواجهة العربية / الصليبية في سراب الحلول المنفردة ، التي جعلت من العرب جميعاً مجرد جثث منفردة .

إن تلك الجثث المنفردة لم تتحول إلى جيش مقاتل فعال ، إلا على ضوء استراتيجية جديدة تماماً ، تعتمد على مفهوم شامل للأمن العربي ، والمواجهة العربية الشاملة ، ضد عدو مشترك أدرك الجميع ، بتكاليف مرتفعة للغاية ، انهم جميعاً سيكونون ضحاياه .

وهكذا استطاع الحاكم الجديد في مصر ، صلاح الدين الأيوبي ، خلال ثلاث سنوات فقط من حكمه ، أن يوحد القاهرة ودمشق وحلب والموصل ضد الخطر المشترك في فلسطين . ان صلاح الدين أدرك في القاهرة أن أمن مصر يبدأ بالنهوض ضد الخطر في فلسطين . وخلال ستة عشر سنة فقط من تلك الإستراتيجية الجديدة .. كان العرب بقيادة صلاح الدين يحصلون على أضخم انتصاراتهم في «حطين» ضد الصليبيين .

انتصار .. أصبح هو المقدمة الحتمية لزوال الدولة الصليبية نهائياً في القرن التالي .

في هذه المرة كانت مصر هي التي استردت أمنها أخيراً .. بعد أن أخطأت بالتفريط فيه .

ولكن .. سرعان ما جاء درس آخر .. فقدت فيه مصر أمنها .. بسبب تفريط الآخرين فيه .

ومرة أخرى يكون السبب هو : سراب السلام المنفرد .

ففي بداية القرن الثالث عشر الميلادي ظهرت غارات المغول (والمغول اسم لقبيلة من التتار سكنت في آسيا ، وينتمي إليها جنكيز خان ، الذي أسس امبراطورية مغولية من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ ، وفي وقت قياسي ، وبدمار وخراب ومذابح تعتبر من أفظع المذابح في التاريخ) . ظهرت اذن غارات المغول ، قادمة من وسط آسيا بقيادة جنكيز خان ، وأخذ سلطانهم يمتد غرباً حتى وصل إلى نهر الدنيبر في روسيا ، وإلى نهر اندوس في الهند .

وأصبح الزحف المغولي يهدد العراق .

ولكن الخليفة العباسي ، بدلاً من أن يتنبه للخطر المغولي على أبواب دولته ، ذهب في نوم عميق .. تصوراً منه أن مسالمة جنكيز خان ، ثم خليفته هولاكو ، سوف تبعد عنه شروره .. وتجعله يعيش في سلام .

والوزير الأول (رئيس الوزراء) للخليفة العباسي «المستعصم» .. كان وزيراً مرتعداً من الخطر المغولي .. الأمر الذي جعله ينصح الخليفة المستعصم بمزيد من الخنوع والإستسلام . بل ان هولاكو أرسل إنذاراً إلى الخليفة المستعصم ، يطلب فيه تسليم بغداد وفتح حصونها .. كثمن للاحتفاظ بحياته ــ حياة الخليفة .

وكانت نصيحة الوزير لخليفته هي أن يدفع اتاوة إلى هولاكو .. اتقاء لخطره .

ثم نصحه بتخفيض عدد الجيش من مائة ألف إلى عشرين ألفاً .. كدليل على حسن النية من جانب الخليفة العباسي نحو هولاكو .

ونفذ الخليفة العباسي ، رعباً وخوفاً ، كل هذا .. لكي يفاجأ في سنة ١٢٥٨ م (٦٤٩ هـ) بان اللعبة قد انتهت . كان هذا قبل مولد ابن تيمية باثنتي عشرة سنة . انتهت اللعبة إذن .. والمغول ينصبون مدافعهم خارج أسوار بغداد .

إن الخليفة مستعد لأي شيء .. إلا الصمود والمقاومة .. وهكذا أرسل وزيره (مؤيد الدين العلقمي) لكي يتفاوض مع هولاكو .

وخلال أيام بدأت جيوش هولاكو تقصف بغداد .

وأرسل الخليفة وزيره من جديد إلى هولاكو أملاً في استرضائه . وعاد الوزير يخبر خليفته بانه قد حصل له من هولاكو على عرض مدهش هو : أن يسلم نفسه مع كل أفراد أسرته وحاشيته وأعضاء حكومته إلى هولاكو .. ومقابل ذلك فإن هولاكو يضمن للخليفة حياته ، بل وربما أيضاً .. استمراره كخليفة اسمياً .

ونفذ الخليفة نصيحة وزيره بكل أمانة . انه يريد أن ينجو بجلده وبمنصبه بأي ثمن .

وهكذا ذهب الخليفة ، مع المئات من أسرته وحاشيته وموظفيه الرسميين ، إلى معسكر هولاكو .. بناء على النصيحة المخلصة من وزيره ، والاتفاق المدهش الذي أبرمه مع هولاكو . وخلال لحظات قليلة اكتشف الخليفة الأحمق الخدعة الكبرى : ان وزيره كان من البداية عميلاً

سرياً لحساب هولاكو .. وكانت مهمته من البداية هي اقناع الخليفة بعدم جدوى المقاومة .

وخلال لحظات أخرى انقض جنود هولاكو على الخليفة وأسرته وحاشيته لكي يذبحهم جميعاً فرداً فرداً ـ بما فيهم النساء والأطفال ـ ثم دخل هولاكو بغداد لكي يقتل مليوناً من سكانها .. في أبشع مذبحة عرفها تاريخ الحروب .

إن الخليفة لم يدفع وحده ، بحياته ، ثمن سراب السلام المنفرد مع هولاكو .. ولكن العراق كلها دفعت الثمن خراباً .. وموتاً .. ودماراً .. واحتلالاً .

وهكذا ، لأول مرة خلال ستة قرون منذ وفاة النبي محمد ، اختفى منصب الخلافة الإسلامية .

ولم تكن بغداد وحدها هي التي جرت وراء سراب «السلام المنفرد» مع العدو القادم إلى المنطقة .. ولكنها دمشق وحلب وصيدا أيضاً .. بكل أولئك الحكام والأمراء الذين تصوروا أن الخطر ما زال بعيداً عنهم بما فيه الكفاية .

وبمجرد أن اجتاح الإعصار المغولي بغداد .. استدار إلى الآخرين .

لقد اجتاح هولاكو كلاً من دمشق وحلب وصيدا في غمضة عين .. بعد أن ذبح خمسين ألف مسلم في مدينة حلب وحدها .

الآن جاء الدور على مصر .

لقد أرسل هولاكو انذاراً مدوياً آخر إلى «قطز» سلطان مصر يطلب منه فيه الاستسلام بلا قيد ولا شرط «.. فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأي أرض تأويكم ، وأي طريق ينجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص» .

ومرة أخرى تستمع مصر إلى صوتين من داخلها : صوت يقول إن ما يجري في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين بعيد عنها بما فيه الكفاية .. وإن الخطر القادم من الشرق لا بد أن يتوقف إذا رأى مصر مسالمة بما فيه الكفاية .. خصوصاً وأن المغول قوم « لا يقهرون » والمواجهة العسكرية معهم متحيلة ولن تنتهي إلا إلى الخراب والدمار والهزيمة .

وصوت آخر يقول : إن مصر إذا لم تخرج للتصدي لمواجهة الخطر في فلسطين ، فانها ستفاجأ به داخل شوارعها ، بعد أن يكون الخطر قد أصبح أكثر قوة .. ومصر أصبحت أكثر ضعفاً .

ولأن دروس المواجهة بين صلاح الدين الأيوبي وبين الصليبيين كانت ما تزال ساخنة .. ولأن روح المقاومة التي أشعلها صلاح الدين في شعب مصر كانت ما تزال حية .. ولأن السلطان في مصر كان يتمتع برؤية سياسية وعسكرية ناضجة .. فإن مصر خرجت إلى فلسطين لتواجه الخطر هناك . ان شعب مصر اكتشف ان أمنه في القاهرة قد انهار .. نتيجة لتفريط الخليفة العباسي في بغداد في الأمن العربي الشامل .. وبحثه عن سراب السلام المنفرد .

وهكذا خرج الجيش المصري إلى فلسطين ، لكي يواجه ويخوض المعركة الفاصلة ضد المغول في ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، محققاً انتصاراً مدوياً في عين جالوت . انتصار كتب عنه المؤرخ الإسلامي المقريزي مسجلاً أن المغول حينما « لحقهم الطلب إلى أرض حمص ، ألقوا ما كان معهم من متاع وغيره ، وأطلقوا الأسرى ، وعرجوا نحو طريق الساحل ، فتخطف المسلمون منهم ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، وأسروا أكثر . فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره ، وقتل نائبه كتبغا ، عظم عليه .. فانه لم ينكسر له عسكر قبل ذلك ، ورحل من يومه » .

إن هذا الانتصار لم يحفظ فقط أمن مصر لمائتين وخمسين سنة بعدها فقط ، ولكن تقييمه الحقيقي ، بكلمات مؤرخ بريطاني مشهور هو انتوني ناتنج .. هو « ان نجاح مصر في إيقاف التقدم المغولي خلف الحدود المصرية ، وخروجها لمواجهته في فلسطين بدلاً من التفكير في انتظاره ، قد أنقذ مصر من المصير المرعب الذي سقطت فيه سوريا والعراق .. ومن ثم فإنه ضمن لمصر زعامة ثقافية وسياسية للعالم العربي ، استمرت بلا منازع لستة قرون بعدها » .

نفس النتيجة توصل إليها أيضاً المستشرق الفرنسي هنري لاووست .. حينما سجل ان خروج مصر لصد الخطر المغولي في فلسطين قد جعل القاهرة تصبح « قطب الجاذبية ، وبدأت تحتل مقام الرأس من جسم العالم الإسلامي العربي ، وظلت تحتفظ بهذا المركز حتى وقتنا الحاضر » .

إن الذي حقق انتصار حطين في القرن الثاني عشر كان هو صلاح الدين .

والذي حقق انتصار عين جالوت في القرن الثالث عشر كان هو الظاهر بيبرس .

إن شخصية كل منهما تختلف تماماً عن الآخر ، فالأول أسد ، والثاني نمر .. والأول جرب أحياناً أسلوب التعايش مع الخطر الصليبي فدفع ثمنه غالياً .. بينما الثاني رفض هذا الأسلوب بأكمله من البداية .

ومع ذلك فإن ما يجمع بينهما كثير ، وجوهري : فكلاهما رأى في وحدة القاهرة ودمشق وبغداد مدخلاً وحيداً لمواجهة الخطر . وكلاهما رأى أن في بحث أي عاصمة عربية عن السلام المنفرد خطراً عميقاً على العالم العربي كله ، ومصر في المقدمة . وكلاهما استوعب تماماً الدرس الجوهري في أمن مصر .. وهو أن ما يجري في فلسطين ، بل وفي سوريا

ولبنان والعراق ، هو من صميم الاهتمامات الجوهرية التي يجب أن تعبر عنها سياسة مصر ومعاهداتها وأحلافها ، وأن كل خطر جديد يأتي إلى المنطقة .. قد لا يبدأ بمصر .. ولكنه سينتهي حتماً إليها .

وفي حالة الخطر الصليبي فإن السلام المنفرد بينه وبين مصر كان مقدمة لانهيار أمن مصر نفسها .. أما في حالة الخطر المغولي ، فإن السلام المنفرد بينه وبين العراق كان مقدمة أخرى لتهديد مصر .

وفي جميع الحالات كان السلام المنفرد هو الخطر .. والوحدة (في اطار عربي أو إسلامي) هي العلاج .

على أن هذا ليس هو الدرس الوحيد الذي خرج به أمن مصر من حالتي الخطر ، الصليبي والمغولي . فالدرس الآخر هو ان النجاح المبدئي للحروب الصليبية في فلسطين ، والفشل المبدئي في مواجهة مصر لها .. كان يرجع إلى عدم تنبه في الجانب المصري ، إلى ظهور السلاح البحري كعامل حاسم في القتال . ان مصر تعتمد على تفوق جيشها براً .. بينما الصليبيون اعتمدوا على تفوق جيشهم بحراً .. أو بتعبير الظاهر بيبرس « أنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول » .

مع ذلك فإن حسن استخدام مصر لقدراتها في القتال البري .. قد امتص تماماً التفوق البحري الصليبي .

والدرس الثالث هو : إن الخطر في كل مرة – بمجرد أن يدعم قاعدته في المنطقة – سرعان ما كان يحاول التحالف مع الأقليات الدينية في كل مجتمع عربي ، محاولاً تحويلها إلى أقليات سياسية تعمل ضد هذا المجتمع من الداخل . هكذا لجأ الصليبيون مثلاً إلى إثارة الشيعة في حلب ضد المسلمين السنيين .. والأقباط في مصر ضد الشيعة المسلمين .. ثم الدروز في سوريا ضد السنيين . وهكـذا لجأ المغول أيضاً إلى تحريك

المارونيين في لبنان ضد المسلمين (وهي استراتيجية سوف تكررها اسرائيل بعدها بثمانية قرون) .

والدرس الرابع هو أن نظرية التعايش مع الخطر الأجنبي هي دائماً نظرية تكلف غالياً . والذي يدفع ثمنها في النهاية هو الشعوب نفسها . ان وجود قاعدة للخطر الأجنبي في المنطقة سرعان ما يفرض على هذا الخطر التمدد خارجياً (من فلسطين في حالة الصليبيين ، والعراق في حالة المغول) إلى المنطقة كلها . إن صلاح الدين نفسه جرب هذا الأسلوب مع الصليبيين أحياناً .. وفي كل مرة كان يكتشف أن «التعايش» من جانبهم مع العرب هو بالنسبة لهم مجرد فرصة لالتقاط الأنفاس . لقد اكتشف أنهم تهادنوا معه لكي ينقضوا على دمشق مرة .. ومرة يستعدون لغزو المدينة المنورة .. ومرة تراجعوا مسالمين إلى مدينة صور لكي يعدونها فيما بعد لتكون قاعدة انطلاق للحرب الصليبية الثالثة .

إن هذا يعيدنا من جديد إلى ابن تيمية .

فلقد رأى ابن تيمية تلك الدروس قادمة من القرن الثاني عشر الميلادي الذي لم يعشه .. وممتدة إلى القرن الذي يعيشه هو . وحينما رأى ابن تيمية ذلك فإنه رآه في إطار إسلامي . إن الإسلام هو الرسالة .. والتمسك بالإسلام هو الطريق إلى القوة .. والوحدة الإسلامية هي أسلوب هذه القوة . لقد رأى المغول والتتار في هجمتهم على الإسلام .. وله في طفولته المبكرة تجربة حية في الذعر الذي كانت تثيره هجمات المغول . والآن فإن الصليبيين ما زالت لهم ذيول في سواحل لبنان .. وللتتار أيضاً ذيولهم المتفرقة هنا وهناك .

ولأن ابن تيمية قد ولد بعد تولي الظاهر بيبرس السلطة في القاهرة بثلاث سنوات .. وحينما توفي بيبرس كان عمر ابن تيمية هو الخامسة

عشرة .. فإن ابن تيمية قد شاهد في صباه المبكر نتائج وآثار تلك الصحوة القومية والدينية التي خلفتها انتصارات بيبرس والوحدة السياسية التي بناها ، وجعلته يقيم في دمشق بقدر ما يقيم في القاهرة . وحدة نبهت العالم العربي كله إلى عوامل وإمكانيات قوته .. وإلى قدرته في مواجهة الخطر .

ولكن الآن مات بيبرس .. تولى السلطة من بعده طابور من السلاطين .. الذين لم يكونوا يعمرون في الحكم أكثر من سنتين أو ثلاثة ، وأحياناً يأتون ويذهبون في السنة نفسها .. كما حدث في حالة السلطان « شلامش » .

إنه عصر جديد اذن .. عادت فيه أخطار الإنقسام من الداخل تهدد العالم العربي الإسلامي . نعم .. لا أحد يعلم النتيجة بعد .. ولكنه عصر جديد .

١٠

لم يكن ابن تيمية جزءاً من عصره . كان استثناء ضده واحتجاجاً عليه . انه الآن عصر يفتقر إلى شخصيات في قوة بيبرس .. بأمراء وسلاطين تزخر حياتهم الخاصة باللهو والأعمال الحقيرة المتلاحقة .. وكل منهم يحيط نفسه بعدد من المتملقين والمنافقين يوزعون عليهم سلطات الدولة .. والفقهاء أنفسهم يخضعون شيئاً فشيئاً لسلطان الأمراء .. وأصبح السكر والدعارة من مصادر الضرائب التي يفرضها الأمراء كدلالة واحدة ضمن دلائل عديدة على تدهور السلطة الدينية والأخلاقية ، التي ستأتي حياة ابن تيمية بمثابة احتجاج عليها .

ومن الناحية العامة فقد أصبحت دمشق العاصمة السياسية الثانية للدولة الموحدة .. وعاصمتها القاهرة . ومنذ كان بيبرس يقيم بها .. فإنها أصبحت

مركزاً عسكرياً بعد أن تم ترميم قلعتها . وأصبحت الناس والأموال تتدفق على دمشق نظراً لمركزها السياسي الجديد .. وازدهرت الصناعات المحلية بها وخصوصاً الصناعات الحربية .. وأصبح اشعاعها الثقافي متألقاً .. كما أصبح النشاط الديني فيها كثيفاً . وكان المذهب الحنبلي قد تأصل في دمشق منذ أكثر من قرن ، وقامت في زمن ابن تيمية مدرسة حنبلية شامية كرد فعل ضروري للهجمات الصليبية والمغولية المبكرة .

ولقد كانت أهم طبقتين في المجتمع ، هما طبقة الأمراء الذين يتولون السلطة السياسية والعسكرية .. ثم طبقة الفقهاء والعلماء .. الذين كان دورهم الإجتماعي على درجة كبيرة من الأهمية ، فقد كانوا يستفتون في كل الأمور ، وفي معظم القضايا الحيوية الجارية . وكانت كلمتهم مسموعة ويتمتعون بمهابة عظيمة ، والحكام يعهدون إليهم أحياناً بكثير من المهام السياسية .

ولكن العلماء أصبح دورهم في تلك الفترة مشوشاً ، كجزء من تشوش العصر كله . إن السلطة المركزية في القاهرة بدأت تضعف .. والإمارات يتزايد اتجاهها إلى الاستقلال أمام ضعف الخطر الأجنبي كما كان في البداية .. والاتجاهات الصوفية يتزايد انتشارها يوماً بعد يوم .. وكان المظهر الشعبي لها هو انتشار الزوايا التي تصبح آهلة بالفقراء والزهاد ، تصوراً منهم ان الدين معناه الانقطاع عن الدنيا والتفرغ لعبادة الله — وهو مفهوم يتعارض جوهرياً مع الفهم الصحيح للإسلام .

ولقد رفض الظاهر بيبرس ، في سنوات حكمه ، أن يبني مثل تلك المنشآت .. مفضلاً بدلاً منها المدارس والمارستانات (المستشفيات) .. ولكن السلاطين الذين جاءوا من بعده بدأوا ينشئون تلك المباني الصوفية ، التي تركزت في القاهرة ودمشق والقدس وحلب .

وكانت المشكلة هي أن في السماح بنمو تلك الاتجاهات .. سماحاً في الواقع بانتشار الشعوذة ، والعزلة الإجتماعية للفرد ، تصوراً منه بان الزهد المتطرف هو تقرب إلى الله .. الأمر الذي يشيع تقوى ملوثة وخاملة تحت شعار العزوف عن الدنيا .

وهكذا انتشر مثلاً تقديس الأولياء انتشاراً واسعاً ، وأصبحت زيارة أضرحتهم هي وسيلة للتوسل والتماس البركات .. الأمر المنافي شكلاً وموضوعاً للدين الإسلامي .

وفي مثل هذا الفساد في الفهم الحقيقي للدين كان طبيعياً أن يتضاعف إيمان الناس بالخرافات .. حيث صدقوا مثلاً معجزة الثور التي وقعت في سنة ٦٩٥ هـ ، وهي الخرافة التي تسجل لهذا الثور انه تكلم فجأة قبل أن يموت .. فسجلت تلك الخرافة على انها معجزة تحرر بها محضر أمام القاضي .. وأرسل المحضر إلى القاهرة !

وسوف نرى ان جزءاً كبيراً من حياة ابن تيمية ، وجزءاً كبيراً من متاعبه أيضاً ، سوف يأتي من محاربته لهذه الاتجاهات الصوفية المتطرفة .. لأن هذه الاتجاهات هي هدم لجوهر الإسلام .. وهي اتجاهات قد تسللت إليه في الواقع من خارجه . فمع انتشار نظام الرهبنة ، الذي يرفضه الإسلام ، لم يعد الإسلام نظاماً سياسياً .. وهو كدين يتحول عن حقيقته الإجتماعية . فحينما يصبح المثل الأعلى في نظر المؤمن هو الإنقطاع عن الدنيا لعبادة الله عبادة تأمل ومناجاة .. يتحول المفهوم الإيجابي للإسلام – الذي نجح في صد الاكتساح الصليبي والمغولي – إلى نشاط سلبي خامل وهادئ وهابط يشجع الفرد على الهروب من المجتمع والتهرب من الواجبات الأساسية التي يتطلبها الدين .

جزء كبير من حياة ابن تيمية سوف يذهب في توضيح حقيقة

الإسلام ، الذي يرفض بشدة مثل تلك العزلة الفردية .. وفي توضيح المفهوم الحقيقي للإيمان والورع والتعبد .

ولكن الآن .. ونحن ما نزال في شباب ابن تيمية .. فإن ما نراه هو انه فقيه في الدين .. في وقت يتراجع فيه الدين . وهو جريء في الحق .. في عصر ينتشر فيه الباطل . وهو صريح في الرأي .. في عصر ينتشر فيه النفاق .

إن النفاق ، والصراحة ، والجبن والبطولة ، والخوف والشجاعة ، والكذب والصدق ، كلها صفات لا تنقسم إلى أجزاء . انها توجد أو لا توجد . والإنسان اما أن يكون صادقاً مع الجميع .. أو منافقاً مع الجميع . انه لن يكون منافقاً مع السلطة .. صادقاً مع ضميره ، أو منافقاً في الصباح .. ليصبح صادقاً في المساء .

وهذا الرجل ، ابن تيمية ، كان صادقاً في وقت انتشر فيه النفاق .. عادلاً في وقت تعسفت فيه السلطة .. صغيراً في وقت تسلط فيه الشيوخ .. جريئاً في زمن انتشر فيه الخوف .

إنه خوف الناس من الشيوخ ، وخوف الشيوخ من الحكام ، وخوف الحكام من بعضهم البعض . انه زمن للخوف والنفاق والتفكك والتراجع .

ابن تيمية لم يتراجع .

لقد عرف أن الإسلام كان ثورة ، وهو الآن يعيش في زمن الثورة المضادة . عرف ان الدين أصبح تجارة ، وهو الآن يريد اعادة الإيمان . لقد آمن ودرس وتفقه لكي يصبح شيخاً من شيوخ الإسلام . لقد تعلم الخط والحساب وحفظ القرآن وبرع في النحو والفقه ، بحيث انه في سن

التاسعة عشرة بدأ يفتي للناس ، خطيباً ومفسراً .. سريع الحفظ ، بطيء النسيان ، ذكي العقل ، قوي الحجة ، خطيباً يوم الجمعة ، لا يتوقف ولا يتلعثم .

لقد أصبح ، بشهادة أحد معاصريه « .. يغترف من بحر ، وغيره من من الأئمة يغترفون من السواقي » .

وبشهادة شيخ آخر : إذا تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، أو ذاكراً لحديث فهو صاحب علمه ورايته .

ولكن في ابن تيمية مزايا أخرى ، أصبحت هي عيوب عصره . انه مثلاً : « .. أعان أعداءه على نفسه بدخوله في مسائل كبار ، لا تحتملها عقول أبناء زماننا ولا علومهم » .

وعيب آخر : انه لا يعمل من باطن السلطة .

هذا طبيعي . ففي الوقت الذي ترهل فيه الفقهاء ، اختار هو لنفسه موقعاً إلى جانب رجل الشارع ، وليس إلى جانب سلطان يغدق عليه ويحميه بسلطته ويعينه على الحظ .

لقد أدرك ابن تيمية ان الخطر الآن هو من العدو الخارجي . الأمة في حالة خطر . ان الصليبيين ما زالوا في بعض سواحل الشام .. والتتار متربصون .

ولأن الفقهاء وقتها هم قيادات الرأي العام .. ولأن القيادات في وقت الخطر يجب أن تتقدم الصفوف .. فإن ابن تيمية يريد أن يكون في المقدمة . هذا ما ينادي به الدين .

ولكن الواقع كان قد انفصل عن الدين قبل وقت طويل .

١١

ابن تيمية يتقدم الصفوف .

لقد كان التفكك سبباً في الهزيمة .. والآن يجب أن تكون الوحدة مقدمة إلى النصر . إن ابن تيمية يدعو إلى الوحدة ، فالعدو مشترك والخطر عاجل ، وسيف التتار لن يفرق بين مسلم سني ومسلم شيعي ، ولا بين شامي ومصري ، ولا حاكم ومحكوم . هذا عدو شرس ، وخطره على الجميع واحد .

إن الجميع يدعون إلى القتال ، ولكن ابن تيمية يسبقهم إليه . انه في الصف الأول .. لا واعظاً ، ولا داعياً ، ولا مستنفراً ، ولكن مقاتلاً بالسيف . في الطعام هو الأخير . في القتال هو الأول .

لقد وصفه أحد معاصريه بقوله : «هو من أشجع الناس وأقواهم قلباً . ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه ، ولا أعظم في جهاد العدو منه . كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده . ولا يخاف في الله لومة لائم ... كان إذا حضر في عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم .. ان رأى من بعضهم هلعاً أو جبناً شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة ... وكان إذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان ، ويقوم كأثبت الفرسان» .

وعندما بدأت المفاوضات مع قائد جيش التتار ، اختاره الجميع ليتفاوض نيابة عنهم . وقتها «.. جلس الشيخ ابن تيمية إلى السلطان غازان — قائد التتار — حيث تحجم الأسود آجامها ، وتستقطب القلوب داخل أجسامها .. خوفاً من ذلك السبع الفتاك ، والنمرود المختال ، والأجل الذي لا يدفع بحيلة محتال» .

كان امتحان الشجاعة أمام الشيخ هو أن يحارب .. فحارب . وكان امتحان الشجاعة هو أن يفاوض .. ففاوض .

١٢

عاد الخطر .. فعاد القتال .

١٣

٦٩٩ هـ . التتار يقتربون من دمشق . الناس فزعة ، والجنود يهربون ، والشيوخ تبتهل وقائد القلعة يتراجع . لقد عرض عليه قائد القلعة أن يستسلم مقابل إعطاء الأمان لأهل دمشق . وقبل أن يرد قائد القلعة ، نصحه مشايخ القوم بأن يستسلم .

ولكن ابن تيمية قرر شيئاً آخر : لو لم يبق في القلعة إلا مجرد حجر واحد .. فلا نسلمهم ذلك .

وعاد الجميع إلى القتال .

١٤

المغول يعودون إلى الهجوم . انهم يزحفون . الوسيلة هي الشام ، والهدف النهائي هو مصر . الشام وحدها ربما تستطيع أن تقاوم . أما الشام — ومصر إلى جانبها — فتستطيع أن تنتصر .

وبدأ أهل دمشق يفكرون بسرعة . يفكرون تحت النار . من أين تبدأ القوة ؟ انها تبدأ من الوحدة . من أين تبدأ الوحدة ؟ انها تبدأ من القاهرة .

اذن : يسافر ابن تيمية إلى القاهرة .

١٥

في القاهرة قرروا له ديناراً كل يوم كمرتب ، و«بقجة» قماش

كملابس . لقد رفض الشيخ . انه لم يحضر لاجئاً . لقد جاء مستغيثاً . الآن بدأت الإستغاثة .

إن القاهرة ، التي وصلها ابن تيمية في ١١ جمادى الأولى سنة ٧٠٠ هـ ، لم تكن هي قاهرة الظاهر بيبرس . انها الآن قاهرة السلطان محمد ابن قلاوون . ومن الصحيح أن السلطان يتمتع بالوعي السياسي والعسكري . ولكن أركان الدولة حوله لم يكن لديهم بعد العزم والحزم الذي يجعلهم يتخذون قرارهم على الفور .

وكما يحدث دائماً في كل الإختيارات الحاسمة .. فإن هناك حججاً خاطئة كافية يرددها كل الذين يريدون الهروب من المواجهة . إنهم في البداية تعللوا لابن تيمية بأن المطر والبرد قد يمنع من وصول النجدات بسرعة . بعدها تعللوا بأن الناس تعبت من الجهاد . و.. و..

ولكن ابن تيمية يجادل الجميع ، ويفحم الجميع . ان التهديد المغولي الذي تجدد الآن (من سنة ٦٩٩ هـ .. وسوف يستمر إلى سنة ٧٠٢ هـ) هو تهديد يتم بعنف منقطع النظير . لقد استولى المغول على حلب .. وما لم يتم ردعهم مبكراً في الشام .. فإن كل تأخير سيكلف مصر فيما بعد غالياً .. دماء وأموالاً . ثم ان مصر هي الدولة الحاكمة في المنطقة .. وهي التي يدخل في نطاق مسؤوليتها السياسية والعسكرية ، والأهم من ذلك .. الأخلاقية والدينية ، ان تنصر أهل الشام . وإذا لم تفعل مصر ذلك فإن هذا يعني انسحاباً مصرياً .. ليس عسكرياً وسياسياً فقط .. وإنما انسحاباً فكرياً وثقافياً وأخلاقياً ودينياً .. الأمر الذي سيجعل مصر نفسها منعزلة عن عالمها العربي والإسلامي .. ومن ثم يجعل أمنها نفسه مهدداً بأكبر الأخطار في المدى الطويل . ثم ان رغبة الناس ، أوعدم رغبتهم في الجهاد .. هو أمر يتوقف على كمية الإرادة والعزم والصمود التي يتم

صبيا في نفوسهم وعقولهم .

ثم .. ثم ان النصر والهزيمة هي أولاً إيمان عقلي بضرورة النصر أو بحتمية الهزيمة . اذن ، النتيجة أخيراً هي : هيا إلى الجهاد .

١٦

٧٠٢ هـ . الشام . القتال . رمضان . انها المواجهة الحاسمة .

منذ معركة «عين جالوت» الشهيرة ، وهي التي هزم فيها المصريون هولاكو قبل أربعة وأربعين سنة ، والتتار يتطلعون إلى تصفية الحساب مع المصريين .

الآن جاءهم المصريون .

إنها واقعة «شقحب» .. قرب دمشق . القتال شديد والنتيجة متأرجحة ، وكل طرف لن يلقي السلاح قبل أن يقضي على الآخر .. تماماً .

أين الشيوخ في هذا القتال ؟ انهم يقفون بجانب السلطان .

وأين ابن تيمية ؟ ان السلطان طلب إليه هو الآخر أن يقف بجانبه ، ولكنه يرد : ان مكاني هو في ساحة القتال الفعلي . لقد كانت السنة أيام رسول الله هي أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم . وأنا معهم حتى النصر .

السلطان يرد : قل إن شاء الله ..

والشيخ يقرر : ان شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً .

١٧

تمت تصفية الحساب .

١٨

ابن رجب ، المؤرخ ، يكتب في طبقاته عن دور ابن تيمية في القتال ضد المغول والتتار ، فيقول : «إن الله أحيا به الشام بل والإسلام .. بعد أن كاد ينثلم ، بتثبيت أولي الأمر لما أقبل حزب التتار والبغي في خيلائهم ، فظنت بالله الظنون ، وزلزل المؤمنون ، واشرأب النفاق ، وأبدى صفحته» .

نعم . في هذه الحروب مع العدو لا سلطة ولا سلطان ولا نفوذ ولا محسوبية إلا بحق السيف . في الحرب تصبح الشجاعة امتحاناً ولها ثمن . ابن تيمية دفع الثمن .

الآن انتهت الحرب ، وبدأت معارك السلام .

إن ابن تيمية يستدير إلى تلك الاتجاهات المنحرفة عن الإسلام . يستدير إلى هؤلاء الذين ينشرون بين الناس ان الورع هو في العزلة عن المجتمع .. والتقوى هي في التفرغ لعبادة الله . ليس هذا فقط .. بل إن ابن تيمية يرى حوله بعض المذاهب الصوفية وقد انحرف أتباعها عن الشريعة بشكل لا يصدقه عقل . إحدى الفرق مثلاً .. يدخل أتباعها في النار المشتعلة ، ويأكلون الثعابين ، ويتحلون بقلائد وعقود من حديد ، ويحملون سلاسل حديدية فوق أكتافهم ، ويجمعون شعرهم على شكل كتلة متماسكة .. الخ !

إن ابن تيمية يرى « .. انهم وان كانوا منتسبين إلى الإسلام ، وطريقة الفقر والسلوك ، ويوجد في بعضهم من التعبد والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة ، فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر والبدع في الإسلام والأعراض عن كثير مما جاء به الرسول صلى الله عليه

وسلم ، والكذب والتلبيس وإظهار المخارق الكاذبة ، كطلي أجسامهم لدخول النار بدهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الطلق ..»

إن موكباً ضخماً ، على رأسه ابن تيمية ، يقابل حاكم دمشق ، ويبين له ان هؤلاء الصوفية يدخلون البدع على الإسلام .. وإنه يريد أن يفحمهم أمامه بالحجة .. حتى يعرف الناس جميعاً ضلال وفساد تلك الاتجاهات .

وعلى الفور .. يقرر الحاكم ، واسمه الأفرم ، إقامة تلك المناظرة . بعدها قرر أن كل من يخرج عن الكتاب والسنة تضرب عنقه .

ولكن .. لم تكن تلك هي نهاية القصة .. فلم تكن تلك الاتجاهات المنحرفة موجودة في دمشق وحدها .. وإنما لها أتباع في مصر أيضاً . ولسوف يمر بعض الوقت قبل أن يتحرك ضده آخرون .. من مصر في هذه المرة .

أما الآن .. فإن على ابن تيمية أن يدرك ان الخصم في الحرب كان واحداً وواضحاً ، ولكن الخصوم في السلام كثيرون وملتوون . الحرب تحتاج إلى مقاتل .. ولكن السلام يحتاج إلى مناور .

١٩

ابن تيمية ليس بمناور .

٢٠

تكلم ابن تيمية في مسائل كثيرة . تكلم في صفات الله فمنع تأويلها . وتكلم في مهمة رجل الدين فوضح حدودها . وتكلم في دور الدين في حياة الناس فأوضح مفاهيمه .

إنه يرى ان «أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم ، ونصف متفقه ،

ونصف متطبب ، ونصف نحوي . هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان ، وهذا يفسد اللسان» .

وابن تيمية يرى نفسه بكلماته «أنا رجل ملة .. لا رجل دولة» . إن هذا معناه ان ابن تيمية لا يريد ، ولا يستطيع ، أن يكون رجل سياسة .. انه فقط رجل دين .. . ان معركته هي الحق ضد الباطل .. وهدفه هو الخير ضد الشر .. ووسيلته هي الإيمان ضد الكفر .. ودعوته هي للإسلام ضد الخارجين عن الإسلام .

إنه معجب بالإمام أحمد بن حنبل ، ويعتبره أكثر من مؤسس للمذهب الحنبلي .. «مع أني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي ، ولا انتصرت لذلك ، ولا أذكره في كلامي ، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها» .

وابن تيمية يتصدى لكل ما هو خروج عن الدين .. ابتداء من متطرفي الصوفيين .. إلى المنجمين الذين يعرضون على بسطاء الناس استقراء طالعهم مقابل أجر .. إلى الباطنية الذين قال عنهم انهم يسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في كأس الأنبياء .

وابن تيمية يستنكر الفساد والإنحلال الذي استشرى في المجتمع الإسلامي عقب الحروب الصليبية والمغولية ، ولا علاج في رأيه لهذا الفساد إلا بعودة الناس جميعاً إلى كتاب الله وسنة رسوله .. وباستقامة الولاة وعدلهم لأن فساد الأمة راجع إلى فساد الولاة وسوء اختيارهم لعمالهم . لذلك فإن ابن تيمية سيقدم نموذجاً فكرياً للحكم الإسلامي الصالح كما يراه ، نموذج سيؤلف عنه كتاباً خاصاً بعنوان «السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية» .

ومن الناحية المبدئية فإن السياسة ، عند ابن تيمية ، يجب أن تقوم على

الدين . ونحن لا نستطيع أن نفهم هذا الموقف من ابن تيمية ، معزولاً عن انفعاله بأحداث عصره . لقد كانت الأخطار ضد الإسلام ضخمة في الداخل والخارج . ففي الداخل نحن رأينا الاتجاهات المتطرفة التي تهدد المسلمين بالبعد عن جوهر الإسلام .. بالإضافة إلى خطر التفكك السياسي نتيجة للمنافسات الداخلية .. ولهذا فإن ابن تيمية يؤكد ويلح على ضرورة الوحدة الإسلامية . ومن ناحية أخرى فهناك الأخطار الخارجية ، التي عبر عنها المؤرخ الإسلامي «ابن الأثير» بقوله : «لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم ، منها ظهور هؤلاء التتر قبحهم الله ، أقبلوا على المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها ... ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر ...» .

لهذا فإن الإسلام ، في نظر ابن تيمية ، يجب أن يكون هو أساس الحكم .. وعلى الولاة دائماً أن يكون هدفهم هو رفع راية الدين والانتصار له . والوالي يجب أن يكون عادلاً لكي تكون طاعته واجبة على الرعية .. فلا طاعة للوالي في معصية الله . ويجب أن يختار الوالي نوابه وأمراءه دائماً على أساس الكفاءة ، وليس على أساس المودة .. اقتداء بقول رسول الله : «من ولي من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» . إن هذا يعني ان على السلطان أن يولي الأصلح من الناس وليس الأقرب إليه أو الأنفع لشخصه . وأموال المسلمين هي أمانة في أيدي الولاة .. ولذلك فإن ادارتهم لأموال الدولة الإسلامية لا تجعلهم ملاّكاً لها .. وإنما هم مجرد أمناء ونواب ووكلاء مسؤولون أمام الله وأمام الناس عن رعايتها .

إن الحكم المثالي في نظر ابن تيمية هو الذي كان قائماً في زمن

الخلفاء الراشدين . ولأن ذلك الحكم لم يعد قائماً .. فقد أصبح من الضروري وضع ضوابط ، مستمدة من الشريعة ، تحدد صلاحية الحكم .. لإن هناك فرقاً بين الحكم العادل والحكم الظالم . لهذا يجب « .. على كل من ولي شيئاً من أمر المسلمين .. أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه ... فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ، لأجل قرابة بينهما ، أو ولاء عتاقة أو صداقة ، أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس ... أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب ، أو لضغن في قلبه على الأحق ، أو عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» . وعلى الحاكم أن يستشير الجماعة دائماً ، من العلماء وقادة الرأي .. فلم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله نفسه .

ورغم كل ما يراه ابن تيمية أمامه من أخطار وانقسامات وانحرافات .. فإن ابن تيمية يحتفظ بتفاؤله دائماً .. من قدرة الإسلام والمسلمين على التصحيح الذاتي .. بشرط أن يعي المسلمون تماماً دروس الماضي .

ولأن ابن تيمية يرى الأخطار أمامه فادحة ضد الإسلام .. لذلك فإن أفكاره كلها ، ودعواته كلها ، بل ومعاركه كلها ، سوف تكون للإسلام وفي سبيل الإسلام . إنه في هذا الصدد سيدعو دائماً إلى تنقية المجتمع من الأفكار المنحرفة .. ومن البدع التي تغزو الإسلام تحت رايته .

لهذا فإن ابن تيمية يرى مثلاً ان الكافر ليس هو فقط من عاش في الجاهلية ، ولكنه أيضاً من يفكر تفكير الجاهلية . ان علينا أن نعبد الله ، ولكن ليس علينا أن نعبد ضريحاً ولا ولياً ولا شفيعاً . الإسلام لا يحب وساطة بين الإنسان وربه . وحينما نفعل غير ذلك فإننا نصبح مشركين . ان الشرك شرك مهما كان موضوعه .. نبياً أم ولياً أم شجرة أم قبراً أم

ضريحاً . من هنا يصبح التعبد لأتقياء وأولياء الله الصالحين ، مهما بلغ تقاهم وصلاحهم ، هو شرك يماثل عبادة الأوثان .

تلك آراء سوف يأخذها الناس بتفهم واقتناع فيما بعد ، ولكنها ليست كذلك في زمن ابن تيمية . زمن انتشر فيه الصوفيون والمشبهون والباطنيون و - فوق ذلك - الكثيرون من حساده بين شيوخ المسلمين أنفسهم .

إن ابن تيمية أصغر منهم سناً ، وأوضح حجة ، وأشد بياناً ، وأقوى دليلاً ، وأغزر عقلاً .. ولذلك فإن مواجهتهم الصريحة معه قد جعلتهم حتى الآن خاسرين .

لهذا اختار حساده نوعاً آخر من المواجهة . لقد حاربوه بالإشاعات يطلقونها من حوله ... والتقارير يلفقونها للسلطان ضده .

وعندما استدعاه ممثل السلطان أمامه .. رفض الحضور . ولكنه رأى الرفض يصبح إشاعة جديدة ضده ، فغير رأيه . لقد ذهب هو إلى أحد الأمراء ، وأرسل من عنده إلى الفقهاء من معارضيه ومطلقي الإشاعات ضده : ألستم تريدون تبادل الحجة ؟ هذا هو الرجل .. احضروا إليه .

٢١

لم يحضر أحد .

٢٢

٧٠٥ هـ . التحريض يتكرر من جديد . لقد فشلوا مرة ومرة ، ولكنهم يجربون من جديد . انهم ضعفاء وهو قوي . انهم أغلبية وهو بمفرده . انهم أصحاب نفوذ وهو صاحب عقل . إن مجرد وجوده واستمراره هو

إدانة ضدهم . إدانة أخلاقية على ممالأة رجال الدين للسلطة .. وإدانة سياسية على احتكار السلطة لحرية الرأي .

في هذه المرة توجد أدلة أكثر قوة ضد الشيخ – هي نفس آرائه التي بدأ الناس يؤمنون بها . فالشيخ يقول للمسلمين : لا تصدقوا إنساناً يزعم لنفسه انه من أصحاب الكرامات . هذا إنكار لله وللدين . هذا دجل وشعوذة . هذا كفر .

وطلب رجال الطائفة الأحمدية من نائب السلطان أن يكف الشيخ عنهم ويتركهم لحالهم . ولكن الشيخ رفض . انه يستطيع أن يجامل ويسكت .. ولكن يجامل في دينه ؟ في ضميره ؟

٢٣

٧٠٥ هـ . الحديث يعود من جديد في صفات الله : هل القرآن ذكرها على سبيل الحقيقة ، أم على سبيل التشبيه ؟

إن الشيخ ما زال عند رأيه .

سؤال آخر : هل الناس ملتزمون شرعاً بطاعة الحاكم الظالم ؟

والشيخ يرد : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه .. أوشك أن يعمهم الله لعقاب من عنده . هذا حديث شريف .

هنا ضبط الخصوم هذا الرأي . ان الشيخ متلبس بالتحريض على الثورة . ليس هذا فقط .. ولكنه أيضاً يسعى إلى الاستيلاء على السلطة !

وعلى الفور لفقوا للشيخ آراء أخرى وأرسلوا بها إلى السلطان في القاهرة : ان الشيخ كفر بالله .. والشيخ كفر بالحكام .

اذن : هاتوا الشيخ .

وهكذا تم إرسال ابن تيمية ، مع البريد ، من دمشق إلى القاهرة .

انها المرة الثانية التي يأتي فيها إلى القاهرة .. ولكنها المرة الأولى التي يجيء فيها مقبوضاً عليه .

٢٤

الأحد . ٢٣ رمضان .

القضاة والمشايخ وأكابر الدولة يستمعون إلى الإدعاء . ان أكثرهم اهتماماً بالأمر كله رجل محدد هو الشيخ المنبجي ، رئيس الصوفية بالقاهرة ، والصديق الشخصي للسلطان الذي هو الآن بيبرس الجاشنكير .

لقد بدأت المحاكمة .

قال المدعي : هذا الشيخ أمامكم قد كفر في تفسير آيات القرآن الكريم . انه يدعي ان الله على العرش حقيقة لا مجازاً .. وان الله يشار إليه بالإشارة الحسية ، ويتكلم بحرف وصوت .

وسأل القاضي المتهم : ماذا تقول يا فقيه ؟

السلطان يتفرج ، والمتهم يرد : أما بعد ، الحمد لله والثناء على محمد رسول الله وآله و...

القاضي يقاطعه : أسرع ، أنت لم تحضر إلى هنا لكي تخطب ..

تساءل ابن تيمية : هل أمنع من الثناء على الله تعالى ؟

رد القاضي : انتهينا من حمد الله .. أجب ..

الشيخ يسكت .

القاضي يتعجل ويصرخ : أجب ..

سأله ابن تيمية : من هو الذي سيحكم ؟

أشار السلطان : القاضي أمامك ، ابن مخلوف ، هو الذي سيحكم .

كان هذا القاضي هو من ألد معارضي ابن تيمية ، متضامناً في ذلك

مع الشيخ المنبجي .. وهو أكبر حساده على علمه ، وينتمي إلى مدرسة أخرى في الفقه تعارض مدرسته .

هنا استدار ابن تيمية إلى القاضي متسائلاً : أنت خصمي .. فكيف تحكم فيَّ ؟

غضب القاضي . هل المتهم يتصور حقاً ان المطلوب هنا هو العدل ؟ اذن ، فليعرف الحقيقة ..

صرخ القاضي : أجب على الإتهام ..

والمتهم يرد متمتماً : اللهم أهد قومي ، فإنهم لا يعلمون ..

القاضي يصرخ : هه ؟ ماذا تقول ؟ قف يا فقيه .. ممنوع الجلوس !

من تلك اللحظة منعوا عنه الجلوس والعدل والحرية . ان الحكم هو السجن ، والعقوبة هي إلزام الناس بتكفيره أو يدخلون السجن معه .

وعلى الفور أرسل السلطان كتاباً بذلك إلى الشام ، يأمر فيه الناس بالحط من ابن تيمية وهجر آرائه . كتاب أذيع في الأسواق والمساجد . (لم يكن عندهم راديو ولا تليفزيون) .

٢٥

السجن . الوحدة . الظلم مع الوحدة .

إن الشيخ يعرف جيداً لماذا هو هنا . ليس بسبب الدين . ليس بسبب الرأي . انه هنا بسبب السلطة . إن السلطة حكمت عليه بالسجن ، بغير تاريخ ولا مدة . السجن .. إلى أن يتراجع عن آرائه .

ولكنه لم يكفر لكي يتراجع . ماذا يفعل اذن ؟

لقد وجد في السجن ان المسجونين يلعبون طول اليوم النرد والشطرنج ، مهملين تماماً أداء الفرائض .. فظل يعظهم ويحاضرهم ويعلمهم أصول

الدين .. حتى اختار المساجين الإقامة معه والتفقه على يديه .

ثم .. إذا كان المقصود بالسجن هو العقاب .. فإن ابن تيمية قد جعله فرصة لكي يكتب ويؤلف ويقرأ ، ويدعو الله ، وينتظر الفرج .

٢٦

الفرج .

إن السلطة هي التي تستطيع أن تتفاهم مع السلطة . لقد أعيدت محاكمة ابن تيمية ست مرات .. ولكن الشرط في كل مرة ، للإفراج عنه ، هو أن يتراجع عن آرائه . وفي كل مرة يرفض .. وفي كل مرة يستمر السجن .

ولكن .. بعد ثمانية عشر شهراً من السجن .. نجحت وساطة الأمير مهنا بن عيسى ، أمير البدو ، لدى السلطان . ولأن الجميع عرفوا بنجاح الوساطة ، وبنية السلطان في الافراج عن ابن تيمية ، فانهم حكموا بتبرئته عندما انعقد مجلس جديد ، وأخير ، لمناقشة ابن تيمية .

لقد خرج الشيخ من السجن .. إلى قصر السلطان ! ان الرجل الذي كان متهماً أمس .. أصبح اليوم ضيفاً على السلطان ، ومدعواً للمبيت في قصره .. والناس تأتي إليه أفواجاً للإعلان عن احتفالهم بالإفراج عنه .. وليطلبوا منه البقاء في القاهرة .

وبدأ الشيخ يفكر : هل يعود إلى دمشق .. أو يبقى في القاهرة ؟ لا .. لن يعود إلى دمشق .. ففي دمشق فقهاء يغارون منه ويدسون له وينافقون السلطان على حسابه . اذن : فليبتعد عنهم .. ويعيش في القاهرة .. يؤلف ، ويتحدث ويخطب ويفتي .

ولكن الشيخ نسي شيئاً هاماً . إن الحسد والغيرة لا يخضعان

للجغرافيا . الحسد هناك .. وهنا . والنفوس الصغيرة والعقول الصغيرة هناك .. وهنا . والصراحة يحاسب عليها هناك .. وهنا .

إنه عالم بلا حماية ، وفقيه بغير سلطة . والناس ، هنا وهناك ، لا تغفر لإنسان أبداً ان يتفوق عليهم ويبرز أمامهم بمجرد عقله وموهبته . ان نهشهم لسمعته هو دفاع عن قصورهم .. وتبرير لعجزهم .. وتغطية لجهلهم .

لقد عادت الخصومة من جديد . الشيخ يخطب ، ويفسر ، ويفتي ، ويوضح .. والمعارضون يخشون ، وينزعجون ، ويلفقون له التقارير ، ويحرضون ضده السلطة .

أخيراً نظموا مظاهرة ضده .. واتجهوا بها إلى السلطان مظاهرة تزعمها شيخ الصوفيين . ومرة أخرى يتقرر عقد مجلس لمحاكمته ، والقرار هو أن يختار ابن تيمية بين ثلاثة أشياء : إما العودة إلى دمشق .. أو الإقامة في الاسكندرية بشروط .. أو الحبس .

قال ابن تيمية : اذن .. أعود إلى دمشق .

في اليوم التالي استدعوه من الطريق : أنت اخترت حلاً .. ولكننا نختار لك حلاً آخر . نختار لك الحبس – في الإسكندرية هذه المرة !

إن خصوم الشيخ استطاعوا أن يجعلوا السلطان يغير قراره . لقد كان السلطان مؤدباً حينما وضع للشيخ حلولاً ثلاثة يختار بينها ، ولكن الشيخ لم يكن مؤدباً حينما اختار أخف الحلول الثلاثة !

وشيء آخر : ان الحيطة من الشيخ ، ومن انتشار آرائه ، تستوجب وجوده في مكان محدد .. حيث تتم السيطرة على زواره .. وعلى آرائه أيضاً ! ولكي لا يتصور الشيخ انه سيعامل كمسجون .. فانه سيجهز له « مكان مناسب » في سجن القضاة بالاسكندرية .. وسيتم السماح له بأن يصحب

معه خدمه .. وستكون زنزانته فسيحة ، ولها نافذتان تطلان على البحر ! !

٢٧

للمرة الثانية ، السلطة هي التي تتفاهم مع السلطة !

لقد أصبح في مصر الآن سلطان جديد ، هو الناصر محمد بن قلاوون ، ولم يكن ابن تيمية محتاجاً إلى أقل من ذلك حتى يزول الظلم ضده .

لقد بقي ابن تيمية في السجن ، خلال هذه المرة الثانية ، ثمانية أشهر ، وعندما وصل قرار السلطان الجديد بالإفراج عنه ، وباستدعائه إلى القاهرة للاحتفال به رسمياً رداً لاعتباره ، غادر الشيخ مدينة الإسكندرية محاطاً بعدد ضخم من المعجبين .

دخل ابن تيمية على مجلس السلطان في القاهرة .. حيث السلطان يجلس على مقعد مرتفع ، وعن يمينه قضاة مصر ، وعن يساره قضاة الشام .. وباقي الحاضرين خلفه .

عندما لمح السلطان ، من كرسيه المرتفع ، ابن تيمية داخلاً .. نهض قائماً .. فقام الحاضرون جميعاً . ثم نزل السلطان من كرسيه ليسير بنفسه مستقبلاً ابن تيمية .

قال السلطان لابن تيمية : هؤلاء هم خصومك أمامك .. ماذا تحب أن أفعل لك بهم ؟

وارتعش الخصوم . انهم لفقوا لابن تيمية تهمة بعد تهمة . انهم كفّروا آراءه .. وأهدروا دمه . لقد كان سيف السلطان في أيديهم فاستخدموه ضد رقبته . والآن أصبح السيف في يديه هو .. ضد رقابهم .

ماذا يختار ابن تيمية ؟

يختار العفو .

واسترد الخصوم أنفاسهم ، فقال كبيرهم : والله ما رأينا أكثر من ابن تيمية مروءة اننا سعينا في دمه .. فلما قدر علينا .. عفا عنا .

لقد خرجوا برقابهم سليمة ، وخرج الشيخ بعقله ودينه . الآن يستطيع أن يطمئن .. ويفكر .. ويناقش .. ويخطب .. ويكتب في هدوء لأول مرة في حياته .

قرار مبدئي يتخذه ابن تيمية : لا سياسة . لا مقابلة مع سلطان ، ولا اختلاط برجال سياسة . انه رجل دين لا رجل دولة . وهو ، كما سيكتب مؤرخ اسلامي فيما بعد ، لم يكن فيه « شيء من صفات رجال الحكومة » .

الآن اذن وقت للدين فقط ، وللشريعة فقط ، وللكتابة عن أصول السياسة كما يراها الدين وتحددها الشريعة . الآن سوف يقيم ابن تيمية في حي الحسين بالقاهرة لكي يكتب ويقرأ وينفع الناس باجتهاده وعلمه .

هل يتركه خصومه في حاله هذه المرة ؟

إنهم حاولوا أن يفعلوا ذلك في البداية . في النهاية عجزوا . ولإنهم لا يستطيعون مواجهته بالحجة والمنطق والعقل .. فإنهم قرروا أخيراً أن يواجهوه بالعصا !

وهكذا فإن الشيخ ذات ليلة ، وهو في طريقه من المسجد إلى منزله .. فوجئ بمجموعة تتربص به في مكان قفر .. وانقضوا عليه يضربونه بوحشية . وبمجرد انتشار الخبر .. تجمع أنصار ابن تيمية في حي « الحسينية » بالقاهرة .. وقرروا الذهاب إلى هؤلاء الخصوم في عقر دارهم .. ليهدموها فوق رؤوسهم .

هنا يصف لنا أحد شهود العيان ما جرى بقوله : « جئت إلى مصر (القاهرة) فوجدت خلقاً كثيراً من الحسينية وغيرهم رجالاً وفرساناً ، يسألون عن الشيخ (ابن تيمية) ، فجئت فوجدته بمسجد الفخر كاتب

المماليك على البحر ، واجتمع عنده جماعة ، وتتابع الناس وقال له بعضهم : يا سيدي قد جاء خلق من الحسينية ، لو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا . فقال لهم الشيخ : لأي شيء ؟ قالوا : لأجلك . فقال الشيخ : هذا لا يجوز . قالوا : فنحن نذهب إلى بيوت هؤلاء الذين آذوك ، فنقتلهم ونخرب دورهم ، فإنهم شوشوا على الخلق ، وأثاروا الفتنة على الناس . فقال لهم : هذا ما يحل . قالوا : فهذا الذي فعلوه معك .. يحل ؟ هذا شيء لا نصبر عليه ولا بد أن نروح إليهم ، ونقاتلهم على ما فعلوا . فنهاهم الشيخ عن ذلك وحال بينهم وبين غرضهم . وأمام الحاحهم الشديد قال لهم في النهاية : إما أن يكون الحق لي .. فهم في حل . وان كان لهم ، فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني وافعلوا ما شئتم . وان كان الحق لله .. فالله يأخذ حقه كما يشاء إن شاء » .

إن الشيخ لا يريد أن يرد على الحقد .. بحقد . وهو لا يريد أن يواجه تشنج خصومه بتشنج من جانبه . وإذا كانوا هم لم يجدوا ما يستخدموه سوى ذراعهم .. فإن الشيخ له من الحكمة والعقل ما يستخدمه في سبيل الله والمؤمنين .

وهكذا استمر ابن تيمية في القراءة والكتابة والفتوى والتأمل .. إلى أن قرر أخيراً أن يعود إلى دمشق في صحبة الجيش المصري الذي توجه إلى الشام لمقاتلة التتار بعد أن عادوا إلى عدوانهم من جديد .

وهكذا غادر ابن تيمية القاهرة في سنة ٧١٢ هـ .. بعد أن تجاوزت إقامته بها سبع سنوات .

٢٨

دمشق . انها سنة ٧١٨ هـ . ابن تيمية متفرغ تماماً للتأليف والإفتاء

والتعليم . انه لا يريد أن يزاحم أحداً بعقله وعلمه . مع ذلك .. ومرة جديدة .. هل يتركه خصومه في حاله ؟

لم يحدث .

لم يتركوه في حاله . لقد عادت الدسائس من جديد . ما زال الرجل يعيش في غير عصره . هذا عصر للهدوء والنفاق والسكوت والصمت . عصر للنفوس الصغيرة . انه لا يريد أبداً أبداً أن يدرك ذلك . اذن : يدفع الثمن . ثمن صراحته في الرأي .. وعلمه في الدين .. واخلاصه في الفتوى .. وسوء أدبه مع السلطة .

في البداية صدر قرار بمنعه من الفتوى . لم يمتنع . قرار بمحاكمته . لم يذنب . قرار بمنعه من الخطابة . لم يسكت . قرار بمنعه من التأليف . يؤلف .

أخيراً أمسكوا له بفتوى – صحيح انه لم يكتبها بقلمه ، ولكنه قالها بلسانه : ان السفر لأضرحة الأولياء غير مشروع ، بل هو معصية من أشنع المعاصي .

لم يكن هذا رأياً جديداً .. فالشيخ أفتى به من قبل . ولكنه ، أيضاً ، لم يرتدع من قبل .

اذن : يعود إلى السجن .

وهكذا تم اقتياد ابن تيمية من جديد ، إلى سجن القلعة بدمشق .. ودخله في أول شعبان سنة ٧٢٦ هـ . دخله سعيداً ، لانه كان يعلم بمصيره من البداية . وطالما هو لم يعص الله .. اذن فهذا قدره .

مع ذلك فإن خصومه لم يكتفوا بذلك . لقد بدأ اضطهاد اتباعه والقبض عليهم وتكفيرهم وحبسهم . أتباع وتلاميذ ، ومن بينهم اسم سوف يكون مشهوراً فيما بعد هو : ابن القيم الجوزية .

٢٩

قلعة دمشق . السجن .

هذا ابن تيمية يصلي ويفتي ويهدي المساجين إلى دينهم . انه يكتب ويؤلف ويضع الكراريس — حتى الآن خمسمائة كراسة . لقد أرادوا له من السجن عقاباً ، فحوله هو إلى فرصة للدراسة والمراجعة والتأمل .

إنه يتأمل عدم استقرار الحكام الذين عاصرهم في حياته . فبعد وفاة بيبرس في سنة ٦٧٦ هـ لم يدم حكم « بركة خان » و« سلامش » أكثر من سنتين لكل منهما . بعدها ثبّت قلاوون سلطانه بصعوبة .. ثم قلاقل داخلية في الشام .. ثم خليل — ابن قلاوون — الذي مات مقتولاً .. ثم ثورة أخرى بالشام .. ثم محمد بن قلاوون والصراع الداخلي على السلطة .. بعدها « كتبغا » و« لاجين » لسنتين لكل منهما .. ثم محمد بن قلاوون من جديد .. الذي اضطر للتنازل عن الحكم لأحد الأوصياء عليه .. ثم عاد من جديد إلى الحكم في سنة ٧٠٩ هـ لكي يبدأ عهد من الازدهار والإستقرار .

ربما من أجل هذا كان ابن تيمية يرى بضرورة وجود سلطة مركزية مستقرة ، ليس فقط لتحقيق الخير للناس ، ولكن أيضاً لمواجهة الخطر الخارجي وتوفير الأمن من هذا الخطر .

وابن تيمية يتأمل أيضاً .. كيف أدى وجود هذا الخطر الخارجي .. وتجدده بين وقت وآخر .. إلى النظر بجدية إلى قضية الأمن .. سواء اعتبرناه أمن العالم الإسلامي .. أو أمن العالم العربي .. من العراق شرقاً إلى النوبة جنوباً إلى لبنان شمالاً إلى الأندلس غرباً .

وابن تيمية رأى ، في حياته ، كيف ان فترات الحكم القوي والمستقر والواعي بدروس التاريخ كانت ترى ان كل ما يحدث في الشام (فلسطين

ولبنان وسوريا) .. وما يحدث في ليبيا .. بل ما يحدث في تونس .. يدخل في صميم حماية أمن مصر . ان الجيش المصري لم يذهب فقط ، في حياة ابن تيمية ، إلى الشام ليصد هجمات المغول ويطهر سواحل الشام من الصليبيين .. ولكنه ذهب أيضاً إلى تونس في سنة ٧١١ هـ مساندة للحكم الوطني .. خصوصاً بعد استعادة أوربا للأندلس .

إن هذا الوعي بالمصير المشترك ، وبالأمن المشترك ، جعل ابن تيمية يفخر به .. مسجلاً هذا الفخر في كتابه «الرسالة القبرصية» .. لأنه اعتبر أن هذا الوعي هو الذي يمكن أن يحقق مجداً يقترب من المجد الإسلامي أيام الخلفاء الراشدين .

ومع ذلك .. بل لإن هذا التنبه لم يبدأ إلا متأخراً .. فإن سموم الأخطار الخارجية كانت قد تسللت فعلاً إلى المجتمع من الداخل ، سواء نظرنا إلى هذا المجتمع في اطار عربي .. أو نظرنا إليه في اطار إسلامي كما فعل ابن تيمية . وجزء كبير من هذه الأخطار هو الذي نذر ابن تيمية حياته وأفكاره لصدها ومحاربتها .

وإذا كان ابن تيمية ، نتيجة لعوامل مختلطة من الحسد والغيرة والدسيسة التي حاربه بها خصومه .. ونتيجة أيضاً لأنه لم يكن رجل دولة بتعبيره .. إذا كان بسبب هذا كله قد أصبح الآن في السجن .. فإنه سيكتب ويقرأ ويتأمل .. في مراجعة أخيرة لأفكاره .

مع ذلك .. ما زال هذا أمراً لا يرضي خصومه . خصوم يعرفون كيفية التعامل مع السلطة وتجنيدها لحسابهم . هكذا أفتى بعض المتأدبين مع السلطة أخيراً بضرورة قتله ، ولكن : الرجل له أتباع كثيرون يخشى ممثل السلطان من ثورتهم .

اذن .. ما العمل ؟

هنا همس أحدهم في أذن ممثل السلطان بفكرة خبيثة ومدهشة .. فنفذها ممثل السلطان فوراً .

٣٠

٧٢٨ هـ . جمادى الآخرة .

قرار من ممثل السلطان إلى مدير السجن : امنعوا ابن تيمية من الكتابة . وهكذا أخرجوا من عنده الكتب والأوراق والمحبرة . لا أوراق ، ولا كتب ، ولا دواة ، ولا قلم ، ولا شيء .

كان هذا هو كل شيء .. فلقد عرفوا أخيراً كيف يقتلونه بغير سيف .. ويعدمونه بغير مقصلة .. ويقضون عليه بغير ثورة .

في الشهر الأول صبر ابن تيمية . في الشهر الثاني دعا الله . في الشهر الثالث مرض . في الرابع اشتد المرض . في الخامس مات .

٣١

٢٠ ذو القعدة . الاثنين – ٧٢٨ هـ .

هذه جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية . مائتا ألف رجل وخمسة عشر ألف امرأة .. خرجوا جميعاً يشيعون جثمان الشيخ ويصلون عليه في المسجد الأموي بدمشق . لقد توقفت الحياة في المدينة تماماً ، وأغلقت الأسواق ، وخرج الناس جميعاً وراء الجثمان . هذه مظاهرة وليست جنازة . انها دمشق عن بكرة أبيها . انها الدموع .. وسيلة جديدة للاحتجاج ضد ظلم ، وحسد ، وغيرة ، واضطهاد ، وسلطة . احتجاج صامت من طوفان من البشر .

إن الشوكاني ، المؤرخ الإسلامي ، سوف يقول عن تلك النهاية لابن

تيمية فيما بعد : «إن هذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية ، ويفوق أهل عصره ، ويدين بالكتاب والسنة ، فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون ، ويقع له معهم محنة بعد محنة ، ثم يكون أمره الأعلى وقوله الأولى ، ويكون له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين ، ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره . وهكذا حال الإمام (ابن تيمية) ، فإنه بعد موته عرف الناس مقداره ... وطارت مصنفاته ، واشتهرت مقالاته» .

نعم . سوف يتم تسجيل هذا فيما بعد . ولكن الآن .. في هـذه الجنازة .. وهذا الطوفان من البشر .. فإن واحداً منهم يتمتم لرفاقه :

ألـم يـك فيكـم رجل رشيد   يرى سجن الإمام فيستشاط ؟

لا . لم يكن .

وسجن الشيخ لا يرضـاه مثلي   ففيه لقدر مثلكـم انحطـاط

نعم . انحطاط .

٣٢

في المساء ، جلس الرجل نفسه يكتب صفحات من كتابه التاريخي «تتمة المختصر في أخبار البشر» . انه يتساءل شفوياً : لماذا دفع شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الثمن الفادح ؟

ورد الرجل على نفسه ، تحريرياً هذه المرة : كان فيه قلة مداراة ، وعدم تؤدة غالباً ، ولم يكن من رجال الدول .

نعم . كان ابن تيمية مفكراً خارج السلطة . انه لم يدرك أن للحديث مع أصحاب السلطان أصول وأدب .

٣٣

ولكن .. أي أدب ؟

رفاعة الطهطاوي

شيخ ..
بين خطرين

إن بلدي «معشوقة السكنى» .. محاسن الدنيا عليها مفروشة ..
وصورة الجنة فيها منقوشة !

مرسيليا .

يوليو .

١٨٢٦ .

هذه سفينة حربية فرنسية اسمها «لاترويت» ترسو في الميناء ، ويهبط منها واحد وأربعون شاباً قادمون من الاسكندرية . انهم مصريون جاءوا أعضاء في أول بعثة تعليمية كبرى إلى فرنسا ، والسفينة الحربية قد قطعت بهم المسافة من الاسكندرية إلى مرسيليا في ٣٣ يوماً كاملة .

إنهم يسيرون في شوارع مرسيليا ، إلى حيث المقر المؤقت لهم قبل استئناف الرحلة داخل فرنسا . يسيرون بعيون مبهورة تتطلع إلى الناس والمباني والطرق والأشياء . كلهم تحولت عيونهم إلى كاميرات تلتقط صوراً فورية لهذا البلد الغريب الذي وصلوا إليه ، والشعب الآخر الذي يرونه الآن لأول مرة .

واحد منهم فقط يختزن هذه الصور لكي يحولها فيما بعد إلى كلمات مكتوبة .

إنه من اليوم الأول يسجل انطباعاته على الورق كاتباً ...

«.. لم نشعر في أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة في غالبها ، وذلك انهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية ، لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسي للجلوس عليها لإن هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض ، فضلاً عن الجلوس بالأرض ، ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحاً من القزاز ، وسكيناً ، وشوكة ، وملعقة ، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح ، وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حوالي الطبلية كراسي ، لكل واحد كرسي ، ثم جاءوا بالطبيخ ، فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيراً ، أو صحنين ، ليغرف أحد أهل الطبلية ، ويقسم على الجميع ، فيعطي لكل إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكين التي قدامه ، فلا يأكل إنسان بيده أصلاً ، ولا بشوكة غيره أو سكينه ، أو يشرب من قدحه أبداً ..»

باريس .

. ١٨٢٦

وصل الواحد وأربعون طالباً القادمون من مصر إلى محطتهم الأخيرة : باريس . مع ذلك .. فإن واحداً منهم فقط هو الذي ما زال يواصل تسجيل انطباعاته على الورق ، بعد أن أصبح الآن في باريس ، التي هي ، على حد تعبيره ، «كرسي مملكة الفرنسيين» .. أي عاصمتهم .

إنه يسجل على الفرنسيين أولاً أن «آداب سفرتهم وترتيبها عظيم جداً» .

ثم يضيف مفصلاً : «.. وابتداء المائدة عندهم الشوربة ، واختتامها الحلويات والفواكه ، والغالب في الشراب النبيذ على الأكل بدل الماء . ويكثر في باريس شرب الشاي عقب الطعام ، لإنهم يقولون إنه هاضم

للطعام ومنهم من يشرب القهوة مع السكر ، وفي عوائد أغلب الناس أن يفتتوا الخبز في القهوة المخلوطة باللبن ويتعاطوها في الصباح .

«.. ومع كثرة تفننهم في الأطعمة والفطورات ونحوها فطعامهم على الاطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة في فواكه هذه المدينة إلا في الخوخ» .

هذا عن الطعام في باريس .

«وأما خماراتها فإنها لا تحصى ، فما من حارة إلا وهي مشحونة بهذه الخمارات ولا يجتمع فيها إلا أراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشراب ، الشراب ...

«.. وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب ، وبيوتهم دائماً مفرحة ، بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضعاً عظيماً ، يجلب النور والهواء ، وظرفات الشبابيك دائماً من القزاز ، حتى إذا أغلقت فإن النور لا يحجب أصلاً ، وفوقها دائماً الستائر للغني والفقير ، كما ان ستائر الفرش التي هي نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس ..

«.. وملابس النساء ببلاد الفرنسيين لطيفة بها نوع من الخلاعة ، خصوصاً إذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى ، فإن حليهن هو الحلق الذهب في آذانهن ، ونوع من الأساور الذهب يلبسنه في أيديهن خارج الأكمام ، وعقد خفيف في أجيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبداً ..

«.. ولهن كثير من الحيل ، ومن خصالهن التي لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنها منهن عدم ارخائهن الشعور كعادة نساء العرب ، فإن

نساء الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائماً مشطاً ونحوه ..

« .. ومن متنزهات باريس الحدائق العظيمة العامة ، ففي باريس نحو أربعة بساتين كبرى ، يتماشى فيها الخاص والعام ، فمنها حديقة تسمى « الشمبزليزه » ، معناه بالعربية « رياض الجنة » ، وهي من أرق المتنزهات وأنضرها ، وهي بستان عظيم يبلغ أربعين أرباناً ، والأربان هو قياس يقرب من الفدان ..

و« .. اعلم أن هؤلاء الخلق حيث انهم بعد اشغالهم المعتادة المعاشية ، لا شغل لهم بأمور الطاعات ، فانهم يقضون حياتهم في الأمور الدنيوية واللهو واللعب ، ويتفننون في ذلك تفنناً عجيباً ، فمن مجالس الملاهي عندهم محال تسمى التياترا بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية ، والسبكتاكل ، وهي يلعب فيها تقليد ما يقع . وفي الحقيقة فإن هذه الألعاب هي جد في صورة هزل ، فإن الإنسان يأخذ منها عبراً عجيبة ، وذلك لإنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى وذم الثانية ، حتى ان الفرنساوية يقولون : انها تؤدب أخلاق الإنسان وتهذبها ، فهي وإن كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات . ومن المكتوب على الستارة التي ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاتينية ما معناه باللغة العربية : قد تصلح العوائد باللعب ... »

هذا عن المسرح في باريس .

وشيء آخر : الصحف ، وهي « .. ورقات تطبع كل يوم . وتذكر كل ما وصل إليهم علمه في ذلك اليوم ، وتنشر في المدينة ، وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوي ..

« .. فهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر

لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسناً أو قبيحاً ، وأن تقول رأيها في تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ما لم تضر بذلك ، فإنه يحكم عليها ، وتطلب بين يدي القاضي» .

هكذا بدأ الشاب ، المبعوث من مصر ، انبهاره بالمائدة الفرنسية .. وسرعان ما وصل بهذا الإنبهار إلى المسرح الفرنسي ، والصحافة الفرنسية .

إنه يسجل انطباعاته بسرعة وأمانة وتلقائية . انطباعات شاب يجد أمامه أشياء غريبة ، لإنها مختلفة عن ما رآه واعتاد عليه في بلده . وهو يعبر عنها بأبسط كلمات ممكنة ترد إلى ذهنه . كلمات مصري لم يتمكن بعد من الترجمة الدقيقة عن اللغة الفرنسية .. وانطباعات سائح يأخذ الأمور بمظهرها الأول .

مع ذلك ، فإن تلك الإنطباعات لن تستمر انطباعات سائح لمدة طويلة .

إن تأمله سرعان ما سيمتد إلى أشياء أكثر جوهرية . أشياء تتراوح بين النظم الصحية والنظم السياسية في باريس .. وحقائق ستزداد خبرته باكتشافها يوماً بعد يوم مع امتداد إقامته في عاصمة فرنسا .

لكنه الآن ، في شهوره الأولى هنا في باريس ، ما زال حريصاً على أن يتأمل ويتساءل ويندهش ويتجول .

إننا نراه في كل مرة متجولاً كما هو : قصير القامة ، عظيم الهامة ، واسع الجبين ، أسمر اللون ، صحيح البنية ، قوي الأعصاب ، مهمل الثياب . ثياب سوف تظل إلى النهاية : جبة ، وقفطاناً ، وعمامة .

إن ثيابه لا تنم فقط عن دراسته في الجامع الأزهر بالقاهرة ، ولكن سحنته ولهجته توضحان على الفور أنه جاء من صعيد مصر . في الواقع .. هو من أعماق الصعيد .

إن اسمه هو : رفاعة رافع الطهطاوي .

وهو من مواليد «طهطا» بمديرية جرجا . وعندما ولد في سنة ١٨٠١ كان الدهر قد أخنى على أسرته ، فأصبح أبواه فقيرين ، يبحثان عن رزقهما بالتجول من قرية إلى قرية في صعيد مصر . إن الفتى حفظ القرآن وتعلم مبادئ العلوم الفقهية .. وعندما بلغ السادسة عشرة ذهب إلى الأزهر بالقاهرة لينتظم بالدراسة به .

ولم تكن حال أسرته تسمح بالإنفاق على ولدها بالقاهرة .. لولا ان أمه بدأت تبيع ما تبقى لها من حلي ، والفتى نفسه بدأ يعطي بعضاً من الدروس الخصوصية .. إلى أن تخرج من الأزهر بعد ثمان سنوات من الدراسة .

وأصبح الفتى واعظاً وإماماً في أحد لايات الجيش المصري النظامي الذي أسسه محمد علي ، والي مصر .

وخلال سنة واحدة سوف يصبح الفتى مرشحاً للالتحاق بأول بعثة يرسلها محمد علي إلى فرنسا .. بحيث انه عندما وضع قدمه على الباخرة الفرنسية المتجهة إلى مرسيليا كان عمره ما زال خمسة وعشرين سنة .

إن هذه الواقعة سوف تمثل الشرارة الثانية التي ستشكل شخصية رفاعة رافع الطهطاوي طوال حياته بعد ذلك .

كانت الشرارة الأولى هي أحد أساتذته في الأزهر ، وهو الشيخ حسين العطار ، أحد كبار علماء الأزهر في تلك الفترة .

لم يكن حسن العطار مجرد واحد من الفقهاء الذين يأخذون عملهم وظيفة لكسب لقمة العيش . ولكنه كان عقلاً مستنيراً ، يسعى إلى اكتشاف الحقائق والناس أمامه وحوله . انه يقرأ في الجغرافيا والتاريخ والأدب والطب ، ويرحل إلى البلاد العربية ويقيم في بعضها ، ويقرض الشعر ،

وينتقد باب الإجتهاد وعدم انتشار المعرفة ، ويطالب بنشر روح التجديد والإبتكار ، ويرى انه «.. لا بد أن يتغير حال بلادنا ، ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها» .

ليس هذا فقط ، بل ان الشيخ حسن العطار يشعل في ذهن تلاميذه ، وفي مقدمتهم رفاعة الطهطاوي ، حب القراءة والمعرفة والإكتشاف ، وهو يرعاهم رعاية أستاذ حقيقي يسعده اكتشاف بذرة نبوغ أو بشائر موهبة .

هكذا كان الشيخ حسن العطار الذي رشح رفاعة الطهطاوي ليكون إماماً للبعثة الأولى ، التي قرر محمد علي ايفادها إلى فرنسا .

سافر رفاعة اذن إماماً للبعثة ، لا طالباً من طلابها .

سافر وعمره خمسة وعشرون سنة .. وتلك هي الشرارة الثانية .

إن أفكاره لم تتجمد بعد ، وأفقه لم يضق ، وآراؤه لم تصبح بعد كهوفاً يختبئ في داخلها ويتشبث بها . إنه في السن التي تحدد شخصيته كإنسان ما زال في رجولته المبكرة . وهو في العقلية التي تفتحت أمامها ألف علامة استفهام طرحها أستاذ مستنير . ثم انه يسافر في هذه البعثة الأولى ، ليس فقط إلى مكان مختلف وبلد مختلف ، ولكن إلى حضارة أخرى وعالم آخر .

لقد هبط رفاعة الطهطاوي على أرض مرسيليا ، ودخل باريس ، بعمر متفتح للتجربة ، وعقل يشتاق إلى المعرفة ، لكي يصطدم بحضارة أخرى أصبحت الآن أكثر تفوقاً وانتصاراً . حضارة قوم جاءوا إلى بلده – مصر – كغزاة قبل ٢٨ سنة ، وفي يدهم سلاح متفوق وتفكير مختلف .

إن هذه الصدمة الحضارية ، التي جعلت الطهطاوي يستغرب كل شيء أمامه على أرض فرنسا .. كانت هي الشرارة الثالثة التي ستكمل

تشكيل شخصيته طوال عمره بعد ذلك . شخصية سوف تتمرد باستمرار على واقعها وظروف بلدها . شخصية سوف تؤمن دائماً بالشعار الذي زرعه فيها أستاذ مستنير مبكراً .. لا بد أن يتغير حال بلادنا ، ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها .

إن هذا الشاب ، الصعيدي القادم من الأزهر ، ربما يعرف الآن هدفه ، ولكنه لا يعرف بعد طريقه إلى هذا الهدف . إن كل ما يعرفه فقط البحث عن المعرفة ، ومزيد من المعرفة .

إنه من اللحظة الأولى له على الباخرة لا يريد أن يكون مجرد إمام يعظ الناس ويؤمهم في الصلاة . في الواقع كان هناك معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، ولكن أحداً منهم لم يتطلع إلى أبعد من وظيفته .

أما رفاعة الطهطاوي فقد قرر من البداية أن يتعلم « علوم الفرنسيين » بهمة عالية وعزيمة صادقة ، واتخذ له بعد وصوله باريس معلماً خاصاً على نفقته .. كما يسجل عنه علي مبارك . ولمدة ثلاث سنوات تالية سوف يقتطع من مرتبه (الذي يبلغ ٢٥٠ قرشاً شهرياً) لكي يجيد اللغة الفرنسية ويتعلمها في أقل وقت ممكن .

إن البرنامج اليومي لأعضاء البعثة ثابت ومنتظم داخل البيت الواحد الذي يسكنونه . ويسجله هو على النحو التالي : « نقرأ في الصباح كتاب تاريخ نحو ساعتين . بعد الغداء درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية ، ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوي ، وفي كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة . وفي مبدأ الأمر كنا نأخذ كل يوم درساً ، ثم انتهى الأمر إلى أن تعلمنا الخط ، فانقطع عنا معلم الخط ، وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع ، ومكثنا جميعاً في بيت واحد دون

سنة ، نقرأ معاً في اللغة الفرنساوية ، وفي هذه الفنون المتقدمة . ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية ، إلا مجرد تعلم النحو الفرنساوي ، ثم بعد ذلك فرقنا في مكاتب متعددة ، وكل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا في مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو في بيت مخصوص ، وعند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم ، نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم» .

باريس .
أول أغسطس .
١٨٢٧ .

اليوم ورد صندوق إلى «مسيو رفاعة الطهطاوي» شخصياً . صندوق ضخم . ان أهل البيت الذي يقيم فيه رفاعة تجمعوا حوله . هذا بيت مسيو شواليه ، الذي أصبح أستاذاً له الآن .

الطهطاوي يفتح الصندوق .

ما هذا ؟

كتب ؟ أي كتب ؟

في الواقع انها كتاب واحد من سبعة مجلدات جيدة التجليد ، ومموهة بالذهب . ان معها رسالة يفتحها الطهطاوي بسرعة . رسالة من الأستاذ «جومار» .. رئيس لجنة الامتحان السنوي الذي تم عقده لأفراد البعثة قبل خمسة أشهر .

إن الطهطاوي يقرأ الرسالة الموجهة إليه : «قد صرت مستحقاً لهدية اللغة الفرنساوية ، بالتقدم الذي حصلته فيها ، والنمرة التي نلتها في الامتحان العام الأخير . ولقد حق لي أن أهنئ نفسي بارسالي لك هذه الهدية ، من طرف الأفندية النظار ، دليلاً على التفاتك في التعليم ، ولا

شك أن الوالي يسر ، متى أخبر أن اجتهادك وثمرة تعلمك ، يكافئان المصاريف العظيمة التي يصرفها عليك ، في تربيتك وتعليمك ، وعليك مني السلام ، مصحوباً بالمودة » .

كان الكتاب هو رحلة « انخرسيس » في بلاد اليونان ، وهو مكافأة للطهطاوي عن تفوقه في الامتحان العام الأول .

في الامتحان التالي سوف يتلقى الطهطاوي هدية أخرى : كتاب « الأنيس المفيد للطالب المستفيد ، وجامع الشذور من منظوم ومنثور .. للمستشرق الفرنسي المعروف سلفستر دي ساسي » .

إن هذا المستشرق الفرنسي نفسه ، سلفستر دي ساسي « يسجل ان الطهطاوي قد « تأهل لأن يكون نافعاً في بلاده ، وله عندي منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة » .

والأستاذ الفرنسي « جومار » معجب بتفوق الطهطاوي ، فيتابعه ويشجعه ويتنبأ له بانه « سيكون من الذين ينفعون مصر فيما بعد أعظم منفعة » .

لقد وضع الأستاذ الفرنسي يده على المفتاح الحقيقي لعقل الطهطاوي في باريس .. بتسجيله لتلك النبوءة .

إن الطهطاوي يتعلم في باريس كل شيء .. منسوباً إلى مصر . إن البوصلة التي ترشده في تفكيره هذا ، بسيطة وحاسمة . فلو « تعهدت مصر ، وتوفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ، ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم : مصر أم الدنيا » .

إنه في باريس معجب بعادات الفرنسيين ، معجب بنظافتهم ، بنومهم على الأسرة ، وبرش الطرق والميادين بالماء في الحر ، ونظافتها .

ولكن اعجابه يمتد لما هو أكثر . فمن أوصاف الفرنسيين » .. توفيتهم

غالباً بالحقوق الواجبة عليهم ، وعدم اهمالهم أشغالهم أبداً ، فإنهم لا يكلون من الأشغال سواء الغني أو الفقير » .

إنهم « .. يحبون دائماً معرفة أصل الشيء والإستدلال عليه ، حتى ان عامتهم أيضاً يعرفون القراءة والكتابة ... فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الانعام ، كعوام أكثر البلاد المتبربرة » .

إنهم يحبون السفر ، ويعتنون بالعلم عناية كبرى ، ولديهم مكتبات ومطابع بحيث « .. لا تمر سنة بمدينة باريس إلا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير » .

مع ذلك فإن إعجاب الطهطاوي ليس انبهاراً أعمى . اعجاب لن يخلق فيه مركب نقص ، ولا سيثير فيه بعد عودته عقدة التعالي على مواطنيه . اعجاب يبدأ وينتهي بكلمة واحدة تعيش في داخله .

إنها مصر .

فحتى وهو يصف باريس ، فإنه يوازن بين ربوعها وربوع القاهرة ، و « .. شتان بين هذا وبين النيل والروضة والمقياس ، فإن نزهة الإنسان في الروضة والمقياس لا تضاهى ، لإن الخليج يعبر مصر ، والسين يعبر باريس ، إلا أن نهر السين بتمامه يشق باريس ، وتجري بها السفن العظيمة الوسق ، وبه الأرصفة الجيدة والنظافة على حوافيه ، ومع ذلك فنزهته غير سارة ، وشتان أيضاً بين ماء النيل والسين من جهة الطعم وغيره ، فإن ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله ، كما هو العادة في ماء نهر السين ، لكان من أعظم الأدوية ... وبالجملة والتفصيل ففرق بعيد بين تربة مصر وباريس ، ومياههما وفواكههما إلا في نحو الخوخ وإقليمهما فلولا نجابة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم ، وحسن تدبيرهم واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلا شيء » .

إن في إعجابه شيء من الحسرة ، وهي حسرة على تمتع «.. هذه البلاد بذلك ، وخلو ممالك الإسلام منه» .

وهو يتذكر ان الفرنج يعترفون «باننا كنا أساتذتهم في سائر العلوم ، وبقدمنا عليهم ، والفضل للمتقدم «.. ولكن هذا هو نفسه الذي يجب أن يدفع بالبلاد الإسلامية إلى كسب ما لا تعرفه ، وجلب ما تجهل صنعه» .

إنهم في الغرب متفوقون علينا علمياً الآن ، هكذا يفكر الطهطاوي ، وقد «قويت شوكة الافرنج ببراعتهم ، وتدبيرهم ، بل وعدلهم ، ومعرفتهم في الحروب ، وتنوعهم واختراعهم فيها . ولولا أن الإسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كلا شيء ، بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم» .

وهذه القوة هي نفسها التي يود الطهطاوي أن يسعى إليها ، ويدفع إليها بني وطنه . ان ما يهم الآن هو أولاً قوة المعرفة . هذا هو الدرس الذي سيحرص إليه الطهطاوي من الآن وإلى آخر العمر . إنه سيظل يدعو إلى التنور والتعليم والمعرفة .. ويدعو إلى تربية جيل جديد بثقافة عصرية .. ويدعو إلى الانفتاح الفكري على الآخرين .. بغير ان يتكلم أو يفكر من تحت قبعة .

في الواقع ان الطهطاوي نفسه ظل حريصاً وهو في باريس على «أداء الفروض والسنن أتم قيام ، ولم يأكل شيئاً مما لم يذكر عليه اسم رب الانام ، وواظب على تلاوة القرآن الشريف ، ومطالعة العلم المنيف».

إن بلده تنبض دماً داخل شرايينه . لقد تخلفت وتقدم الآخرون ، والآن يجب أن تتقدم قبل أن يسود الآخرون . والطريق إلى تقدم بلده لا

يكون بالإنفصال عنها ، أو التعالي عليها ، أو التنصل منها . إنه مصري الآن وفي كل ثانية . ربما يأكل في باريس طعاماً فرنسياً ويسير في شوارع فرنسية ، ويقرأ كتباً فرنسية ، ولكنه يفعل هذا كله في ظل انشغال حقيقي بمصر ، التي يحلم لها حقاً بأن تكون «أم الدنيا» لأنه يؤمن بانها «أشرف الأمكنة» ، فهي «الكنانة ، ذات المنعة والمكانة» .

إنه سوف يبدأ بنفسه . سوف يرى ويتأمل ويقرأ ويترجم . لقد ترجم في العلوم والأخلاق والتاريخ والجغرافيا والطب والهندسة ، وترجم الدستور الفرنسي ، والحرب الروسية العثمانية ..

إنه يقرأ ويترجم نهاراً وليلاً .. وعندما أصيبت عينه اليسرى بالضعف، نصحه الطبيب بالراحة والامتناع عن القراءة ليلاً .. ومع ذلك فإنه خالف نصيحة الطبيب خشية أن يتأخر تقدمه .. واستمر على ما كان فيه .

لقد جاء إلى باريس إماماً للبعثة المصرية ، ولكنه تحول الآن إلى طالب فيها . إن البعثة لن تستمر إلى ما لا نهاية ، فلا بد أن يعود إلى مصر سريعاً . وفي عودته يجب أن يكون قد حصل من المعرفة على أكبر قدر تسعفه به العين والعقل والقلم .. لكي ينقله إلى مواطنيه في مصر ، بأبسط أسلوب وبأسرع طريقة .

القاهرة .

١٨٣١ .

نحن الآن في أواخر السنة ، وها هو الطهطاوي يعود إلى القاهرة ، بعد أن قضى أكثر من خمس سنوات في فرنسا .

ومبدئياً يعين الطهطاوي مترجماً ومدرساً للغة الفرنسية بمدرسة الطب بأبي زعبل . المرتب : ١٢٢٣ قرشاً .

وثانياً ، هو سوف يندفع بأقصى سرعة في خدمة بلاده من الطريق التي أصبح يجيدها الآن أكثر من غيره . طريق الترجمة . لقد سجل هذا التصميم بقوله : «.. قد تكفلنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى ، وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون ، حتى تعد دولته من الأزمنة التي تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة في مصر مثل تجددها في زمن خلفاء بغداد» .

وثالثاً ، يقرر الطهطاوي أن يخرج انطباعاته كلها طوال سنوات البعثة في فرنسا ، في كتاب سرعان ما سيصبح مشهوراً . كتاب بعنوان «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» .

إنه يهدي الكتاب إلى حاكم مصر ، الوالي محمد علي ، الذي يأمر بدوره بطباعته وتوزيعه على دواوين الحكومة والمواظبة على تلاوته .

كان أول المرحبين بالكتاب ، هو رجل كبير له عند الطهطاوي منزلة كبرى . انه أستاذه الأول : الشيخ حسن العطار .. الذي حرض الجميع على قراءة الكتاب لإن فيه «.. ما يحرض العاقل على الأسفار ، والتنقل في الأمصار ، حتى يزداد بذلك علماً يقيناً ، ويفوق بالإحاطة بأحوال عباده في الزمن اليسير ، بما لا يدركه القاطن بداره ، ولو عاش من السنين مئيناً» .

لقد أثار الكتاب اعجاباً ضخماً ، وحفنة من الاشاعات .

إحدى الإشاعات سمعها في القاهرة المستشرق «لين» .. وهو جالس عند أحد باعة الكتب بالقاهرة .

إن رجلاً أتى ليطلب من البائع نسخة من رحلة رفاعة الطهطاوي ..

وهنا تطوع أحد الحاضرين قائلاً : ولماذا تشتري الكتاب ؟ دعني أقص عليك نبأ هذه الرحلة بالحق . انها تحتوي على وصف سفر رفاعة

من الاسكندرية إلى مرسيليا .. وعلى ما جرى له أثناء هذا السفر ، عندما سكر وعربد .. فأمر ربان الباخرة بشد وثاقه إلى صاري السفينة وجلده . ثم نزل بعد ذلك في بلاد الإفرنج ، حيث طاب له لحم الخنزير ومعاشرة النساء الافرنجيات ، وبعد أن ارتكب من الموبقات كل ما يعد له مقعده من النار .. عاد إلى مصر !

القاهرة .

١٨٣٦ .

سراي الألفي بالأزبكية .

هنا يتم افتتاح أول مدرسة للترجمة (سميت فيما بعد مدرسة الألسن) . ان صاحب هذا الاقتراح كان هو نفسه رفاعة رافع الطهطاوي (والذي أصبح ناظراً لها من السنة التالية) . إن الوالي محمد علي ، عندما تحمس للاقتراح ، اختار للمدرسة موقعاً على النيل ، هو سراي الألفي ، بجوار قصر زينب هانم ، كريمة محمد علي .

لقد بدأت المدرسة بخمسين تلميذاً ، سرعان ما ارتفعوا إلى مائة وخمسين . والمواد التي تدرس في المدرسة هي آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية والإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية .

باختصار ، وبمفهوم العصر الحديث : هي كلية للآداب والحقوق معاً .

وخلال ثلاث سنوات سوف تتخرج من المدرسة أول دفعة ، من عشرين طالباً ، وسوف يقف الطهطاوي خطيباً يقول فيهم :

«إن أصل تصدينا لإنشاء هذه المدرسة ، حب إيصال النفع إلى الوطن ، الذي حبه من الإيمان ، وتقليل التغرب في بلاد أوربا حيث لا يتيسر لكل إنسان ، والنصح في الخدمة ... فإن خدمة مصر ، فريدة العصر ، دار هجرة الفهم ، المبرزة لكل شهم ، من خير ما أفتي به اللبيب» .

إن المدرسة سرعان ما توسعت بعد ذلك ، وقد أنشئ قلم للترجمة ، وأضيفت إلى الطهطاوي أيضاً نظارة المدرسة التجهيزية ، التي ألحقت بمدرسة الألسن ، ومعهد للفقه والشريعة الإسلامية ، ومدرسة إدارة إفرنجية ..

والطهطاوي يكتب في جريدة «الوقائع» المصرية (التي كان العدد الأول منها قد صدر في ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ – أثناء سفر الطهطوي في البعثة) .

إن الطهطاوي يكتب ويترجم ويدعو .. والمدارس تقام وتعمل وتنشط .. والإدارة تتحسن ، والمصانع تدور ، والاقتصاد ينمو ، والمعرفة تنتشر ، و.. و..

لماذا حدث كل ذلك ؟

إن هذا الانفتاح الثقافي الضخم ، الذي تشهده القاهرة ، هو في الواقع أحد جوانب انفتاح أكبر وأهم عاشت فيه مصر خلال تلك الفترة . انفتاح سياسي .

وهذا النشاط والنمو الذي نراه في كل مكان هو تعبير عن فترة انتقالية حاسمة تعيشها مصر . فترة كان محمد علي محركاً لها ، ورمزاً لوجودها ، ثم في النهاية متعرضاً لرياحها وأخطارها .

الاسكندرية .

١٨٤٠ .

إنذار إلى مصر .

إن محمد علي يعلن غاضباً لمن حوله : « إن الإنجليز يتهددونني بالنزول إلى بر مصر ، فليجربوا ! ولينفذوا وعيدهم ! فسيرون أننا على استعداد لملاقاتهم ، وأن الأجنة في بطون أمهاتهم ستشترك في قتالهم » .

لقد تلقى محمد علي الإنذار البريطاني بالاسكندرية في ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ . إنذار أخير يمهل محمد علي أربعة وعشرين ساعة لقبوله .

كان محمد علي أمياً من حيث القراءة والكتابة ، ولكنه كان يملك طموحاً واسعاً كشخص ، سرعان ما أصبح طموحاً لدولته عندما أصبح والياً على مصر منذ سنة ١٨٠٥ .

ولم يكن هذا الطموح يخلو من دراية سياسية بالقوى التي تنهض بالدول ، والقوى التي تدمرها ، و.. الأهم من ذلك .. احساس غريزي بأساسيات الأمن ، الذي أصبح في حالتنا هذه ، أمن مصر بالدرجة الأولى .

إن محمد علي فوجئ قبل أقل من سنتين من حكمه ، بغزو بريطاني مسلح لأراضي مصر . ورغم ان الغزو قد فشل في النهاية أمام صلابة المقاومة المصرية .. إلا أن الدرس الكبير في هذا الغزو البريطاني المسلح كان هو : إن أمن مصر هو مسألة داخلية وخارجية معاً .

إن مصر في تلك الفترة هي مجرد ولاية عثمانية ، وبالتالي فإن من المفترض أن تكون الامبراطورية العثمانية هي التي تتصدى للدفاع عن مصر عند تعرضها لغزو أجنبي مسلح .

ولكن هذا لم يحدث .

والأسوأ من ذلك ان محاولة الغزو البريطاني المسلح لمصر ، في سنة ١٨٠٧ ، كانت تملك سلاحين في مواجهة محمد علي :

* التفوق العسكري .
* والطابور الخامس في الداخل .

لقد جاءت بريطانيا تحاول غزو مصر ليس فقط كقوة بحرية متفوقة ولا تملكها مصر . ولكن بتحالف مسبق مع أقلية سياسية في الداخل ، هي المماليك ، الذين بلغ عداؤهم لمحمد علي ، بسبب تقلص نفوذهم على يديه ، إلى درجة التحالف سراً مع هذا الأجنبي القادم غازياً من الخارج .

لقد فشل الغزو البريطاني المسلح لمصر ، وأرغم الأسرى البريطانيين على السير مكبلين بالسلاسل في شوارع القاهرة ، لكي يتم الإفراج عن بعضهم ، ويتم بيع البعض الآخر عبيداً ، ممن لم تدفع لهم حكومتهم الفدية المطلوبة .

ولكن هذا التطور سرعان ما نبه محمد علي إلى التصرف بحسم في اتجاهين :

فأولاً – أصبح لا بد من تصفية المماليك سياسياً وعسكرياً .

وثانياً – لا بد من بناء جيش عصري لمصر .

ولكن محمد علي سرعان ما اكتشف ان بناء الجيش العصري لا يحتاج إلى مجرد أسلحة فقط ، أو حتى إقامة صناعة حربية فقط ، ولكنه يحتاج إلى قاعدة حضارية من التعليم والمعرفة والتعبئة الاقتصادية .

وهكذا أدت هذه البداية العسكرية بمحمد علي إلى اجراءات اقتصادية ، كإدخال زراعة القطن ، وبناء السدود على النيل ، وتحسين شبكة الري ، وتنظيم جباية الضرائب ، ثم اجراءات سياسية في مقدمتها

السعي حثيثاً إلى استقلال مصر عن الإمبراطورية العثمانية .

وأدرك محمد علي ان جوهر الاستقلال هو دعامتان : الاقتصاد القوي .. والجيش العصري .. وقد نجح في كليهما .

وعندما بدأ السلطان العثماني في القسطنطينية يستعين بمحمد علي في كبح جماح القلاقل الداخلية في أنحاء الإمبراطورية .. فإنه وجد فيه أكثر من مستعد لقبول الدعوة .

هكذا تحرك محمد علي عسكرياً إلى الحجاز والسودان واليمن وجزيرة كريت واليونان . وعندما تراجع السلطان عن وعده لمحمد علي بأن يضيف سوريا إلى حكمه ، أمر محمد علي جيشه بالتحرك إلى هناك .

وأصبح الطريق إلى الآستانة مفتوحاً أمام الجيش المصري ، بعد أن استولى على فلسطين ولبنان وسوريا .

وهنا بالضبط بدأت الدول الكبرى تتنبه إلى محمد علي .

إن حدود مصر الآن وصلت إلى اليمن والسودان جنوباً .. وجبال طوروس شمالاً .. بما في ذلك سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن والسودان .

كانت القوتان الكبريان ، والمتنافستان ، في العالم هما : بريطانيا وفرنسا .

أما بريطانيا فقد أصبحت الآن تريد تحطيم القوة المصرية الجديدة في المنطقة بأي ثمن .. ولأسباب عديدة .

من هذه الأسباب ما يتعلق بأمن الإمبراطورية البريطانية نفسها . إن البحر الأحمر قد أصبح ، بشاطئيه ، تحت السيطرة المصرية ، وهو الأمر الذي لا تريده بريطانيا لإن هذا هو طريق تجارتها مع مستعمرتها الكبرى : الهند .

وهكذا أسرعت بريطانيا إلى احتلال عدن ، على الطرف الجنوبي للبحر الأحمر ، حتى يصبح لها موطئ قدم هناك .

وكانت هناك أيضاً أسباب تتعلق بالجغرافيا السياسية لمنطقة الشرق الأوسط . ان وجود مصر القوية في المنطقة ، يهدد بتوحيد المنطقة كلها في دولة واحدة قوية .. وهو الأمر الذي لا يريد العقل الاستعماري البريطاني ان يسمح به . ان من الصحيح ان الشام ومصر والحجاز هي أجزاء من الامبراطورية العثمانية ، ولكن الإمبراطورية نفسها أصبحت تشق طريقها بسرعة إلى التدهور والإنحلال والسقوط . فإذا جاءت مصر الآن لتعكس هذا الاتجاه ولحساب العالم العربي في هذه المرة ، فإن هذا يسد الطريق مقدماً أمام أطماع أوربا في وراثة الإمبراطورية العثمانية المتساقطة .. التي ستصبح من الآن فصاعداً رجلاً مريضاً يتطلع الجميع إلى وراثته .

وبالإضافة إلى ذلك .. فإن لبريطانيا أيضاً جدول أعمالها الذي وضعته مبكراً لمنطقة الشرق الأوسط . فمنذ غزو نابليون لمصر .. بدأت بريطانيا تدرك أهمية الإستيلاء على مصر بأي ثمن . لقد جربت بريطانيا ذلك بالقوة المسلحة في سنة ١٨٠٧ وفشلت تماماً .

فشلت .. ولكنها لم تتراجع .

لقد تأجلت أطماع بريطانيا في مصر .. ولكنها لم تختف .

وهكذا لم يعد الهدف الآن هو الاستيلاء مباشرة على مصر .. ولكن في الطريق إليه وضعت بريطانيا هدفاً آخر هو : اضعاف مصر كمقدمة ضرورية قبل الإنقضاض عليها .

ولم تكن هذه الدوافع كلها خافية على محمد علي .

بالعكس .. كانت هناك شواهد كثيرة على انه أدرك مبكراً كل هذه

الأطماع البريطانية في مصر وفي المنطقة كلها .

واختار محمد علي سلاحه المضاد لأطماع بريطانيا العظمى .

فإذا كانت بريطانيا هي القوة الأوربية العظمى التي تهدده .. فإن فرنسا هي أيضاً قوة أوربية مضادة يمكن أن تؤدي ضمانتها له إلى تحييد الأطماع البريطانية .

وهكذا بدأ التعاون مبكراً بين محمد علي وفرنسا . تعاون امتد من المستشارين .. إلى صناعة السلاح .. إلى البعثات .. التي كان رفاعة الطهطاوي واحداً من أعضائها .

وفي المراحل الأولى ساعدت فرنسا فعلاً ، بالآلات والعقول والأفكار، في بناء الدولة العصرية في مصر التي يريدها محمد علي .

ثم بدأت اللعبة تقترب من نقطة الخطر .

لقد تبلور الصراع في المنطقة عن قوتين محليتين تقتربان من المواجهة : الامبراطورية العثمانية .. ضد مصر .

وعلى المسرح الدولي قوتين عظميين تقتربان أيضاً من نقطة المواجهة : بريطانيا العظمى .. ضد فرنسا .

إن بريطانيا تحرض الإمبراطور العثماني ، وتؤيده ، وتسانده ، وتتحالف معه ضد محمد علي .

وفرنسا تساند محمد علي .. ليس فقط لأن لها الآن مصالح في مصر ، ولكن أيضاً نكاية في بريطانيا ، منافسها الأكبر داخل أوربا وخارجها .

وأخيراً جاء الاختبار الحاسم في هذا الصراع الدولي الخطير .

ففي شهر مايو سنة ١٨٣٨ استدعى محمد علي قناصل الدول في مصر (بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا) .. وأعلن لهم استقلاله الكامل عن السلطان العثماني في الآستانة .

وعلى الفور بدأت بريطانيا تحرض ، والامبراطورية العثمانية تستعد ، ضد محمد علي .

لقد احتاج الامبراطور العثماني إلى سنة كاملة لكي يعبئ فيها جيشاً ضخماً ، مستعيناً فيه بخبراء عسكريين ألمان من بروسيا ، من بينهم القائد الألماني الشهير « فون مولتكه » .

وعندما بدأ الجيش المصري في سوريا يقيم تحصينات دفاعية لمواجهة هذا الهجوم العثماني المتوقع ، اعتبرت بريطانيا العظمى ان هذا يمثل عملاً استفزازياً لا مبرر له من جانب محمد علي ! !

إن بريطانيا العظمى لا تريد فقط إيقاف هذه التحصينات .. ولكنها تريد في الواقع أن يشاهد الضحية بعينه السكين يقترب من رقبته .. فلا يفعل شيئاً سوى الصمت !

فمع ان الجيش العثماني قد تمت تعبئته فعلاً .. وتحركت قواته في الأناضول مقتربة من سوريا فعلاً .. إلا أن بريطانيا العظمى تقسم بأغلظ الإيمان لمحمد علي ان كل شيء هادئ في الجبهة الشرقية .

بل إن بريطانيا العظمى أخطرت محمد علي رسمياً بأن الجيش العثماني لن يكون هو البادئ بالهجوم ضد الجيش المصري . فليتمسك محمد علي اذن بضبط النفس حتى يمكن تسوية الأزمة سلمياً .

وراجع محمد علي الإخطار الرسمي البريطاني على المعلومات المتوافرة لدى الجيش المصري في سوريا فعلاً .. فاكتشف ان بريطانيا العظمى .. كاذبة بالثلاثة .

وأخيراً جاء الهجوم العثماني المتوقع في أواخر سنة ١٨٣٩ . انه الهجوم الذي افترضت فيه بريطانيا أن يوجه ضربة مفاجئة إلى الجيش المصري .. وافترض فيه الإمبراطور العثماني أن يوجه ضربة قاتلة للجيش المصري في سوريا .. لا تقوم له بعده قائمة !

ثم جاءت المفاجأة الكبرى : لقد فشل الهجوم فشلاً مدوياً !

إن سوء التنظيم العثماني .. وتنبه محمد علي في القاهرة لخدعة بريطانيا ويقظة ابنه ابراهيم ، قائد الجيش المصري في سوريا .. كلها كانت عوامل أساسية في تحويل الهجوم العثماني المنتظر إلى مذبحة عثمانية كبرى .. بآلاف من الأسرى في أيدي القوات المصرية .

وكانت هذه النتيجة انقلاباً لم تتوقعه بريطانيا العظمى .

بعد أسابيع قليلة وقع انقلاب آخر .

إن قائد الأسطول البحري العثماني خرج بأسطوله عبر البحر الأبيض المتوسط .. لكي يصل إلى الاسكندرية معلناً لجوئه ، مع كل قطع الأسطول ، إلى مصر .

وأصبحت هذه الضربة القاصمة والخطيرة هي القشة الأخيرة التي اضطرت بريطانيا العظمى أن تسفر عن وجهها ، بوضوح وصراحة أخيراً ، في هذا الصراع الحاسم .

إن مصر لم تعد منتصرة فقط ، ولا أصبحت هي القوة العظمى في الشرق الأوسط فقط ، ولكنها الآن أصبحت هي القوة البحرية الأولى في المنطقة .

وبريطانيا العظمى ، التي ظلت حتى الآن تتفادى ضبطها متلبسة على مسرح الصراع .. أصبحت مصممة الآن على أن تتحرك الآن بكل قوتها ضد هذه القوة المصرية النامية .

وهكذا سعت بريطانيا إلى تشكيل قوة سياسية أوربية ضاغطة على الإمبراطور العثماني في الآستانة .. لمواجهة محمد علي .. بحجة ان هذا يتم محافظة على الإمبراطورية العثمانية .

ثم تلقى محمد علي من بريطانيا العظمى أخيراً ، إنذاراً .. يعتبر من أغرب الإنذارات في التاريخ .

إن الإنذار يطلب من محمد علي الإنسحاب من سوريا ، وإعادة الأسطول العثماني إلى تركيا كاملاً ..

* فإذا قبل محمد علي الإنذار خلال عشرة أيام .. فإن له أن يحتفظ بولايته على مصر وفلسطين .
* وإذا قبل محمد علي الإنذار في خلال عشرين يوماً .. فله أن يحتفظ بمصر فقط .
* أما إذا زادت المدة عن عشرين يوماً .. فسوف يتم عزل محمد علي ، حتى من ولايته على مصر .

وحتى يقتنع محمد علي بأن بريطانيا العظمى جادة تماماً فيما تريده .. فقد تحرك أسطول بريطاني إلى الشام لقطع طريق الإتصال البحري بين مصر وجيشها هناك .. ثم أسطول بريطاني إلى الاسكندرية لمحاصرتها بحرياً .. ولتسليم إنذار بريطاني مباشر إلى محمد علي .

ولكي تكتمل الخطة البريطانية فإن طابوراً خامساً ، جندته بريطانيا مبكراً في لبنان ، بدأ في التمرد المسلح ضد القوات المصرية هناك .

وهكذا أصبح الجيش المصري في الشام بين فكي كماشة : براً من الداخل ، وبحراً من الخارج ، لقطع الإمدادات عنه ومحاصرته بالنيران .. حتى وهو ينسحب .

ومع أن الجيش المصري حارب ببطولة في انسحابه من موقع إلى موقع .. إلا أن هذا الإنسحاب قد كلفه نصف جنوده .. قتلى وجرحى .

الآن ماذا يفعل محمد علي ؟

إن لديه وعوداً مسبقة من فرنسا .

ولكن ماذا تفعل فرنسا ؟

لقد وعدته مبكراً بالتأييد والمساندة والدعم ـ خصوصاً إذا تدخلت بريطانيا .

والآن تتدخل بريطانيا ، سافرة ، وبالقوة المسلحة ، في حرب إبادة دامية للقضاء على الجيش المصري مرة واحدة وإلى الأبد .

إن الجيش المصري كفيل بمواجهة الإمبراطورية العثمانية وحدها .. إذا كانت تلك هي حدود المواجهة المسلحة . ولكن ماذا عن بريطانيا ؟

لقد توقع محمد علي كل شيء من بريطانيا .. واستعد فعلاً لمواجهة كل شيء .. إلا شيئاً واحداً .. هو ان تدخل بريطانيا حرباً مسلحة ضده .

وبالإضافة إلى ذلك .. فإن فرنسا قد تعهدت لمحمد علي بتحييد بريطانيا .. فإذا لم تفي فرنسا بتعهدها الآن .. فمتى ؟ متى ؟ متى ؟

كان القنصل الفرنسي العام في مصر يستمع إلى هذا السؤال يومياً من محمد علي .. وفي كل مرة كان رده هو : الانتظار .

ولكن .. الانتظار إلى متى ؟

إن الحرب دائرة فعلاً في الشام ، والإمدادات مقطوعة عن الجيش المصري هناك .. والحصار البريطاني البحري قائم في مواجهة الاسكندرية .. والجنود المصريون يسقطون قتلى وجرحى في المذبحة التي تدار ضدهم .. ومحمد علي يرفض الإنذار البريطاني بعد أن أمهلته بريطانيا أربع وعشرين ساعة ..

مع ذلك ، ما زالت نصيحة فرنسا هي : الانتظار !

أخيراً ، وبعد آلاف من القتلى ومزيد من الانتظار ، تكلمت فرنسا !

إن محمد علي أصابته صاعقة العمر كله حينما تم ابلاغه أخيراً بموقف فرنسا ، الذي أعلنه رئيس وزرائها في باريس : ان الحكومة الفرنسية تنصح والي مصر بقبول الإنذار البريطاني ، لإنه ربما .. ربما .. ربما يؤدي هذا إلى استمراره والياً على مصر !

لقد انهارت كل حسابات محمد علي .. في لحظة واحدة !

ففي اللحظة الفاصلة اكتشف محمد علي أن فرنسا يهمها ابعاد مصر

عن النفوذ البريطاني .. وبريطانيا يهمها ابعاد مصر عن النفوذ الفرنسي .. ولكن كليهما يهمه إبعاد مصر عن العالم العربي .

كلاهما يهمه ألا تكون مصر هي القوة الكبرى في المنطقة .

كلاهما يهمه أن تتقوقع مصر داخل حدودها .. كمقدمة أكيدة لانطواثها وعزلتها .. ومن ثم كمقدمة لضربها . مقدمة أكيدة .. ولكن سوف تمر عدة سنوات قبل أن تتضح على وجه اليقين . ولكن الشيء المؤكد الآن في الأمر كله .. هو أن محمد علي أثبت في هذا الامتحان الخطير لكفاءته كحاكم ان لديه قدراً ضخماً من السذاجة السياسية .. حينما يتعلق الأمر بهذا التعامل الخطر مع القوى الكبرى .

إنه لم يقامر فقط على حسن نوايا فرنسا نحو مصر .. ولكنه ، حتى ، تصور في احدى اللحظات ان بريطانيا يمكن أن تؤيد وحدة العالم العربي تحت قيادة مصر ، مقابل مساعدتها في ابعاد النفوذ الروسي عن الشرق الأوسط ! بالطبع بريطانيا يهمها ابعاد النفوذ الروسي عن الشرق الأوسط .. ولكن يهمها أيضاً ، بل وأكثر ، أن تكون مصر منعزلة في الشرق الأوسط .

إن بريطانيا لا تريد روسيا في الشرق الأوسط .. ليس فقط عداء لروسيا .. ولكن لأنها تريد الشرق الأوسط لنفسها . حقيقة سوف يمر جيل كامل قبل أن يتنبه إليها الجميع .

وفي اللحظة التي يضبط فيها الجميع حساباتهم .. فإن محمد علي سمح للعبة الدول الكبرى بأن تطحنه وتدمره ، وتدمر مصر من بعده . لقد بدت اللعبة مغرية له في البداية .. ولكنه لم يعرف في النهاية حدودها .

إن حدودها هي أنه في التعامل مع الدول الكبرى لا توجد علاقات عمياء .. ولكن توجد فقط مصالح عمياء .

فصالح مصر لا تهم غير مصر .. وقوة مصر لا تعني غير أبناء مصر .. وإذا حدث ، لمسافة محددة ، ان اتفقت مصالح مصر مع مصالح قوة كبرى .. فإن هذا الاتفاق ليس نهائياً أولاً .. وليس دائماً .. وليس أيضاً بديلاً عن اليقظة لمصالح تلك الدول الكبرى في النهاية .

ومن الغريب أن هذا الدرس المؤلم .. الذي دفع محمد علي ، ومصر بالتالي ، ثمنه بالأرواح والدماء .. سوف يتكرر مرة أخرى مع سياسي عربي آخر ، ولكن مع القوة الكبرى المضادة ، قبل مضي أقل من قرن واحد .

إن حسين ، شريف مكة ، سوف يرتكب الحماقة نفسها .. حينما يعتمد خلال الحرب العالمية الأولى .. على شيء غامض ومطاط ولا وجود له هو : حسن نوايا بريطانيا نحوه ونحو العالم العربي .

إن كلا النموذجين (محمد علي في مصر .. والشريف حسين في الحجاز) قد قامر على الورقة الوحيدة التي لا يجوز المقامرة عليها ، وهي حسن نوايا القوى الكبرى نحو العالم العربي . ان كليهما تصور ان التفوق الأخلاقي لا بد أن يكون ملازماً بالضرورة للتفوق التكنولوجي . فإذا كان التعامل مع قوة كبرى متفوقة تكنولوجياً هو أمر مؤكد الفائدة حضارياً .. فلا بد أنه كذلك مضمون النتيجة أخلاقياً . لا بد أن الوعود جادة .. والالتزامات نهائية .. والنوايا طيبة .

لقد ارتكب كلاهما نفس الخطيئة .. وكلاهما صدق نفس الوعود .. فتعرضا في النهاية لنفس الإحتيال .. ودفع كلاهما نفس الثمن .

وفي حالتنا هذه ، فلقد علق محمد علي مصير مصر على نوايا .. وحينما جاءت الريح أخيراً لتعصف بهذه النوايا .. كان لا بد أن تعصف

أيضاً بمحمد علي .. وبقي على مصر في النهاية أن تدفع الثمن . ثمن الثقة في سراب كبير اسمه : نوايا دول كبرى خارج المنطقة ، ولها أطماعها الخاصة في داخلها .

لقد بدأ العد التنازلي في التاريخ الحديث لمصر .

وكانت النقطة الأولى في التنازل هي قوة مصر المسلحة .

إن بريطانيا العظمى لا تريد فقط اعادة الأسطول العثماني إلى القسطنطينية ، ولا مجرد انسحاب محمد علي من سوريا ولبنان وفلسطين ، ولكنها تريد أن تضمن بالدرجة الأولى ألا تقوم لمصر قائمة بعد ذلك مطلقاً .

وهكذا فإن محمد علي اضطر فعلاً إلى إعادة الأسطول العثماني في نوفمبر سنة ١٨٤٠ .

وفي يناير ١٨٤١ اضطر إلى قبول الفرمان السلطاني بجعله والياً على مصر وحدها .

وفي ١٣ فبراير ١٨٤١ اضطر إلى قبول التنازل الجوهري في الموضوع كله ، وهو تخفيض الجيش المصري (الذي حدده الفرمان بـ ١٨ ألفاً) .. وحرمان مصر من بناء أية سفن حربية في المستقبل .

إن بريطانيا العظمى تريد أن تعفي شعب مصر من ويلات الحروب ، ونفقات الحروب .. وهي نوايا طيبة سوف يثبت لنا التاريخ فيما بعد مدى صدقها !

أما محمد علي نفسه .. فإنه انتهى إلى الجنون .. وهو الموت البطيء الذي انتهى به فعلاً إلى الموت النهائي في سنة ١٨٤٩ — الأمر الذي يعيدنا من جديد إلى رفاعة رافع الطهطاوي .

الخرطوم .

١٨٥١ .

نوفمبر .

يستقبل أهل المدينة من السودانيين وافداً جديداً وصل إليهم ، قادماً يحمل أمراً من الوالي الجديد في مصر بعد وفاة محمد علي .

إن هذا الوافد جاء لإنشاء مدرسة في السودان « .. انقاذاً لأولاد أهلها ، والمستوطنين بها ، من جحيم الجهل ، فيمتازوا باكتساب العلوم والمعارف ، على أن يقبل فيها مائتان وخمسون غلاماً » .

والمدرسة مقرها الخرطوم ، وناظرها الذي وقع الاختبار عليه هو نفسه بطلنا هذا – رفاعة رافع الطهطاوي .. والسبب هو انه «ملم بأصول المدارس ، ينسقها كما ينبغي ، وينظمها نظاماً حسناً » .

انها مهمة جليلة اذن .. تلك التي جاء إليها رفاعة الطهطاوي مكلفاً بها من الوالي الجديد في مصر .. شخصياً .

ولكن الملابسات كانت تقرر عكس ذلك .. تماماً .

فمثل كل شيء في السياسة ، فإن جوهر هذا التصرف من الوالي في القاهرة .. كان يعكس مظهره تماماً .

لقد حكمت بريطانيا العظمى على مصر ، بسفور مرة .. ومن وراء حجاب السلطان العثماني مرات ، بأن تصفي صناعاتها العسكرية ، كدليل على حسن النية .

حسن نية مصر نحو القوى الخارجية !

وحكمت بريطانيا العظمى على مصر أيضاً بالإنكماش السياسي داخل حدودها .. كدليل ثان على حسن النية .

وكان لا بد بالضرورة أن يؤدي هذا في نهاية المطاف إلى أن تنكمش

مصر ثقافياً وتعليمياً .. لإن انتشار الثقافة والتعليم أصبح في ظل ضعف مصر العسكري والسياسي ، هو دليل على سوء النية !

وهكذا أصبح الشغل الشاغل للوالي الجديد في مصر – عباس – هو أن يكسب ثقة الدول الكبرى بدليل بعد آخر يقدمه على حسن النية .

آخر هذه الأدلة هو قيام الوالي في القاهرة بإلغاء قلم الترجمة ، الذي كان قد أنشئ ليمد المدارس في مصر بالكتب المعربة .

وخطوة أخرى هي : الغاء مدرسة الألسن .

وحتى لا يتصور أحد أن رفاعة الطهطاوي قد أصبح في الشارع فجأة .. فقد تقرر إرساله إلى الخرطوم بحجة إنشاء مدرسة هناك .

هل يريد الطهطاوي مهمة جليلة أكثر من ذلك ؟

ولكن لماذا الطهطاوي ؟ لماذا هو بالذات ؟

كانت الإجابة بسيطة . إن الطهطاوي أصبح في مصر رمزاً حقيقياً لنهضة ثقافية كبرى وتوسع تعليمي ضخم . ولكن العصر الآن لم يعد عصر توسع ، لا في التعليم ولا في أي شيء .

إنه عصر انكماش وتراجع وهزيمة . عصر ارتداد إلى الخلف وهبوط إلى أسفل .

وطالما أن الدولة في مصر قد فرطت في خط أمنها ودفاعها الأول ، وهو الجيش والصناعة الحربية ، فلا بد أن ينتهي الأمر بها إلى التفريط في خطوط أمنها التالية ، وفي مقدمتها التعليم والثقافة .

وفي السياسية غالباً يتم حجز أفضل الشعارات .. لتغطية أسوأ الدوافع .

لهذا أصبحت الرغبة في نفي رفاعة الطهطاوي إلى خارج مصر .. تحمل مظهر العمل التعليمي الجليل .. وهو إقامة مدرسة ابتدائية في الخرطوم « انقاذاً لأولاد أهلها ، والمستوطنين بها ، من جحيم الجهل » .

هل يستطيع أحد بعد ذلك أن ينسب إلى الوالي أي قدر من سوء النية ؟

نعم .

فبرغم النوايا الجليلة التي يغطي بها الوالي عباس رغبته في نفي رفاعة الطهطاوي إلى الخرطوم .. فإن الوالي لم يتذكر انه قرر إنشاء مدرسة إلا بعدها بسنتين كاملتين ، عندما أرسل إلى الحكمدار المصري في السودان ، مقرراً أنه «وصل إلى سمعنا وعلمنا في هذين اليومين ، أن المدرسة المقرر تأسيسها وإنشاؤها في بلدة الخرطوم ، لتعليم وتعلم أولاد الناس وصبيانهم ، أهمل فتحها إلى الآن .. » .

ويرد رفاعة الطهطاوي بأن أغلب التلاميذ الذين جمعوا للمدرسة قد هربوا « بمعرفة أهاليهم بالجبال المستبعدة » .. وأما المعلمون فقد توفى الله ثلاثة منهم إلى رحمته .. وأما مهمات المدرسة فقد استولى عليها حكمدار السودان ووزعها على فرق الجيش .. والخلاصة هي ان المدرسة قد صارت « اسماً بدون جسم » على حد تعبير الطهطاوي نفسه .

مع ذلك .. فالوالي لا يهتم .

إن المهم هو أولاً إبعاد الطهطاوي .

ولقد اختلف المؤرخون والكتاب في تفسير هذا الموقف الغريب من الوالي عباس نحو الطهطاوي .

فالبعض يرى ان السبب هو «أن يكون عباس قد رأى نفي رفاعة وأمثال رفاعة إلى السودان ، ليبعدهم ويبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر» .. طبقاً لما يراه عبد الرحمن الرافعي .

والبعض يرى « أن البيت الحاكم منشق على نفسه ، إذا تقرب أحد على بعضه الآخر ، يرضى محمد علي وإبراهيم عن رفاعة الطهطاوي ،

فإذا جاء عباس غضب عليه » .. هذا تفسير أحمد أمين .

تفسير ثالث : إن صدر الحكومة (في القاهرة) لم يتسع « للعلماء أمثال رفاعة ، ولقد طالما ضاقت بالعلماء صدور الحكومات الفاسدة ، والرجال الجهلة » . هذا تفسير محمد الصادق حسين .

تفسير رابع : إن الطهطاوي كان يعوزه « ذكاء من يعاشر السلطان أو يتصل بالحكم ، وهو ضرب من الذكاء لا يألفه العلماء » . هذا تفسير الدكتور حسين فوزي النجار .

أما التفسير الذي يقدمه رفاعة الطهطاوي نفسه ، فهو لا يزيد عن مجرد تخمين من جانبه ، بأنه قد تعرض لوشاية عند الوالي عباس باشا .

مع ذلك تظل هناك ، برغم هذه التفسيرات ، علامات استفهام كبرى في تلك المرحلة الحرجة من حياة رفاعة الطهطاوي . وهي علامات لا يفيدنا في الإجابة عليها إلا من زاويتين : المناخ العام .. زائد شخصية الطهطاوي نفسه .

فالمناخ العام السائد كان هو الاتجاه إلى الإنكماش في كل شيء .. من السياسة العسكرية إلى السياسة التعليمية . لقد أصبح مناخ جمود وخمول وقتل للبذور الحضارية التي ألقيت في التربة المصرية خلال سنوات قليلة من بناء الدولة العصرية .

ولو أن الأمر كان مجرد موقف شخصي من الوالي عباس ضد الطهطاوي ، لاكتفى بنفيه إلى السودان .. ولم يغلق قلم الترجمة .. ولا مدرسة الألسن .. ولا عدداً كبيراً من المدارس ، التي كانت قد تحولت إلى خلايا كبرى من النشاط .

إن القضية إذن كانت هي هدم هذا البناء التعليمي ، الذي كان أحد أعمدة البناء السياسي والعسكري .

اذن .. لماذا يأتي الطهطاوي بالذات في مقدمة الضحايا ؟

هنا تفسر لنا شخصيته الجزء الباقي من الغموض .

فمع أن الطهطاوي قد برز وقاد نهضة تعليمية كبرى ، وتولى نظارة قلم الترجمة بوزارة المعارف العمومية ، إلا ان هذا كان « أقل مما يستحقه من رفيع المناصب » .. بالإضافة إلى أنه « يلاحظ انه لم ينل رتبة الباشوية مع ان أقرانه ومن هم دونه مرتبة ومنزلة نالوها » .. على حد تعبير عبد الرحمن الرافعي .

هكذا نرى ان كفاءة الطهطاوي هي التي تبرر ما حصل عليه .

وشخصية الطهطاوي هي التي تفسر ما لم يحصل عليه .

إن الطهطاوي تمتع بكفاءة ضخمة ، ومنذ شبابه المبكر لم نجد له طريقاً يسلكه غير الكفاءة . لقد تحول إلى طالب في بعثته إلى فرنسا ، بدلاً من إمام لها ، بكفاءته .

وحصل على تقدير أساتذته الفرنسيين طوال خمس سنوات ، بكفاءته .

وكتب كتابه الأول عن رحلته طوال البعثة .. بكفاءته .

وأدار مدرسة الألسن وقلم الترجمة .. بكفاءته .

والذين يتمتعون بالكفاءة نجدهم دائماً عزوفين عن التملق .. ومتعففين عن النفاق الذي يحتاج إليه كل حاكم ضعيف .. وضيق الأفق .

والوالي عباس باشا كان يتمتع بكلتا الرذيلتين : ضعيف .. وضيق الأفق .

في مثل هذا المناخ ، العام والشخصي ، لا بد أن تكون الكفاءات ، من أمثال رفاعة الطهطاوي ، نباتاً شيطانياً يجب اجتثاثه وقطعه من جذوره .

إن لديه اعتزازاً بالنفس .. في زمن لا يريد سوى تفريط في النفس .

ولديه عقلاً كبيراً .. في عهد لا يريد حوله في السلطة سوى العقول الصغيرة .

ولديه إباء وشمم ،.. في ظل حاكم كان انجازه الأكبر هو أن يطارد كل اباء وشمم .

وهو قد سافر ودرس وقرأ وتعلم في لحظة يريد فيها الحاكم أن يختصر عقول مساعديه إلى مستوى عقله هو .

وهكذا .. لن يتم الإفراج عن رفاعة الطهطاوي في منفاه .. إلا بعد أن تتغير أحوال .. ويختفي حاكم . هذا الحاكم .

القاهرة .

يوليو .

١٨٥٤ .

لم تمض سبعة أيام على وفاة الوالي عباس ، وتولية سعيد في مكانه ، إلا وقد أصدر الوالي الجديد أمراً بإلغاء مدرسة الخرطوم . وهكذا نرى الطهطاوي في القاهرة من جديد بعد أن عاد إليها على وجه السرعة . لقد جاء متفائلاً باستئناف نشاطه السابق والدعوة إلى نهضة تعليمية أخرى .. بعد أن انخفضت ميزانية التعليم في مصر كلها – على يد عباس – إلى مجرد خمسة آلاف جنيه .

ولكن .. سرعان ما يكتشف الطهطاوي ان أحلامه ما زالت أكبر حتى من عقل الوالي الجديد .

إن الطهطاوي يدعو إلى مشروع بإنشاء مكاتب أهلية للتعليم .. ولكن الوالي يرفض .

والطهطاوي يشكو من انه بلا عمل حتى « ضاق به العيش » .. ولكن لا مجيب .

وحتى عندما عين الطهطاوي وكيلاً للمدرسة الحربية ، ثم رئيساً لها ، فيتوسع فيها ويزدهر حالها ، فإن الوالي سعيد باشا يفاجئه بإغلاق المدرسة بعد خمس سنين وشهرين من افتتاحها .

ثم جاء والي جديد إلى الحكم .. هو اسماعيل ، الذي سيصبح « الخديو اسماعيل » . وفي هذه المرة نرى شعلة النشاط داخل الطهطاوي تومض من جديد ، ومضة أخيرة في رحلة عمره . اننا نراها في كتبه التي أصدرها ، تأليفاً الآن ، وفي مقالاته التي كتبها في مجلة « روضة المدارس » .. التي صدرت كمجلة تعليمية للمدارس القائمة .

وبعد أن رأينا العصر الذهبي للطهطاوي كمترجم في عهد محمد علي ، فإننا سنرى الآن عصره الذهبي كمؤلف في عهد اسماعيل .

إنه يكتب في التاريخ ، والفقه ، واللغة ، ولكنْ في المقدمة من هذا كله نجد الطهطاوي كألمع ما يكون في كتابين ألفهما في التربية .

الكتاب الأول هو : المرشد الأمين للبنات والبنين .

والكتاب الثاني هو : مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية .

في الكتاب الأول ، الذي صدر في سنة ١٨٧٣ ، يدعو رفاعة الطهطاوي لأول مرة إلى تعليم المرأة المصرية . دعوة جريئة سبقت قاسم أمين . دعوة صاغها الطهطاوي بقوله :

« ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ، ويجعلهن بالمعارف أهلاً ، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي .. » .

وفي الكتاب الثاني تكتمل آراء الطهطاوي في التربية والاجتماع .

فهو يرى أن دافعه لإصدار الكتاب هو «أن يعين الجمعية بقدر الإستطاعة ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة ، لمنفعة وطنه العمومية ، وينصح لبلاده ببث ما في وسعهم من المعلومية» .

إن التمدن ، في رأي الطهطاوي ، يرجع إلى أصلين : مادي ومعنوي .

إن الملوك «الذين لا يهمهم سوى أن يرهبهم الناس ، فيستعبدون رعاياهم لجعلها أكثر خضوعاً ، إنما هم وباء الجنس البشري ، يرهبهم الناس ولا ريب ، إلا أنهم يكرهونهم ويمقتونهم» .

ربما من أجل هذا يحذر الطهطاوي ، حتى الحكام الصالحين ، من اختيار المستشارين الفاسدين ، والممالقين الذين لا يتورعون عن الخيانة ، ويحذرهم أيضاً من حجب الثقة عن «الحكماء الأفاضل الذين إنما بفضيلتهم يرهبون» .

هل كان الطهطاوي ، في تلك السطور الأخيرة ، متأثراً بما جرى له في جزء من حياته ربما نعم .. وربما لا . ولكن الشيء المؤكد هو أن الطهطاوي عاش حياته كلها مخلصاً لتمرده على الواقع ، وللطريق التي رآها لتصحيح هذا الواقع . طريق التعليم والعصرية وبناء جيل جديد متنور .. يحب وطنه ويخلص له .

القاهرة .

شبرا .

الثلاثاء ــ ٢٧ مايو .

١٨٧٣ .

الآلاف من الناس يشيعون جنازة الطهطاوي . لقد مات أخيراً عن ٧٥ سنة . وفي الأسبوع التالي نشرت مجلة «روضة المدارس» شيئين .

الأول : فصل جديد من كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» بقلم رفاعة الطهطاوي .

والثاني : خطاب من أحد تلامذة الطهطاوي .

إن صاحب الخطاب يعزي في وفاة «جامع أشتات المفاخر ، المتفرد بغايات محاسن الأوائل والأواخر ، صدر الزمان ، وغرة الفضل والتبيان ، وينبوع الجود والإحسان» رفاعة رافع الطهطاوي .

والتوقيع : محمد طاهر – أحد تلامذة الفقيد .

والمكان الذي قدمت منه الرسالة : مدينة دمشق .

إن أستاذية الطهطاوي قد أثمرت أخيراً ، حتى خارج الحدود .

جمال الدين الافغاني

رَجُلٌ.. صَاحِب قضيّة

شر الأزمنة أن يسود الجاهل .. وزلازل الظلم التي مرت بنا زرعت فينا بذور الذل والإستكانة !

١

لكل إنسان قضية . ولكل قضية جائزة . ولكل جائزة ثمن .

٢

السياسي : يخاطب في الناس مصالحهم . ان جائزته هي الحصول على التصفيق .. وثمنه هو أن يخسر الاعتراف .

رجل الدولة : يخاطب في الناس ضميرهم . ان جائزته هي الخلود .. وثمنه هو العذاب . سنوات من العذاب .

المفكر : يخاطب في الناس عقولهم . الجائزة هي الاحترام .. والخسارة هي أن يعيش دائماً فقيراً .

والغانية أيضاً : تخاطب في الناس غرائزهم . ان جائزتها هي الحصول على الثروة .. وثمنها هو أن تفقد الاحترام .

ومفتاح التقدم في كل مجتمع هو أن تكون اللعبة واضحة مقدماً ، والسباق لا غموض في قواعده ، والإختيارات محددة سلفاً .. لكي

يختار كل إنسان طريقه ، وهو يعرف مقدماً ما ينتظره .

وسبب الهزيمة دائماً ، هو أن تبدأ السلطة – على قمة المجتمع – في الغش في قواعد اللعب : تكافئ من لا يستحق ، وتعاقب من لا يذنب ، وترفع من لا يصدق ، وتضطهد من لا ينافق .

وفي مصر ، كانت السلطة غالباً غالباً غالباً : تغش في قواعد اللعب !

فالسلطة في مصر كانت غالباً تلاكم تحت الحزام ، وتكافئ الأقدمية قبل التجديد ، والطاعة قبل الفهم ، والولاء قبل الكفاءة . انها تريد الطاعة بغير نقد .. والاستمرار بغير مراجعة .. والحكم بغير أن تسدد فاتورة الحساب .

لهذا كانت السلطة غالباً تسحب إليها وحولها كل من يتكيفون مع هذا المناخ . فالذين يحصلون على المكافأة ، هم الذين يصفقون أعلى من غيرهم .. والذين يحصلون على الجائزة هم الذين لا يملكون قضية نعرفهم من خلالها .

٣

جمال الدين الأفغاني – رجل صاحب قضية .

٤

القضية هنا هي : ما هو أساس السلطة ؟ ما هو أساس الحكم ؟ إرادة الحاكم .. أو إرادة الشعب ؟ ما هو أسلوب الحكم : الاستبداد .. أو الديمقراطية ؟ ما هو سر التخلف : الدين .. أو قلة الدين ؟ ما هو أساس النهضة : الحرية والوحدة والإستقلال .. أو التقليد والضعف والرضاء بالحال على ما هو عليه ؟ الخ .. الخ ..

٥

إن الأفغاني لا يرفع هذه القضية شعاراً لخمس دقائق في اليوم ، ثم يستدير إلى عكسها . إنه مفكر ، وليس غانية . وهو مناضل ، وليس رجل سياسة . إن القضية عنده هي سلوك دائم قبل أن تكون شعاراً مرفوعاً . والقضية عنده هي ثمن يدفعه .. قبل أن تكون جائزة يحصل عليها .

كانت تلك هي بالضبط الحالة العقلية لجمال الدين الأفغاني ، حينما جاء إلى مصر في ٢٢ مارس سنة ١٨٧١ . مفكر ومناضل ، ولد في أفغانستان . لقد كبر وتعلم وخاض معارك سياسية في بلاده .. مناصراً لزعيم آمن به ، فخسر هو .. ولكن لم تخسر قضيته .. انه خرج من بلاده مهاجراً في أرض الله . وفي الآستانة ، بتركيا ، تعرف به رياض باشا ناظر النظار (رئيس الوزراء) في مصر فدعاه إليها ، وقرر له عند قدومه مرتباً ضخماً : عشرة جنيهات شهرياً .

أما الحالة العقلية لمصر يوم جاءها الأفغاني فهي : استبداد وظلام وكبت وفساد وحكم فردي . الحاكم هو الخديو اسماعيل ، والحديث هو عن قناة السويس – التي تم افتتاحها قبل سنتين – والمشكلة هي ديون مصر بسبب القناة وإسراف الخديو اسماعيل . ديون زادت عن ثمانية وتسعين مليوناً من الجنيهات .

في هذا الجو جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر ، ودعوته هي نزوة نزوات أحد حكامها – رياض باشا ناظر النظار .

إن الأفغاني يعرف قبل أن يأتي إلى مصر انها ليست مجرد ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية . فالواقع ان مصر تتمتع بما هو أقل من الاستقلال .. وأكثر من الحكم الذاتي . انها تابعة للامبراطورية العثمانية .. والسلطان العثماني هو الذي يعين والي مصر ويعزله .. وهو

أيضاً الذي يحدد عدد الجيش المصري وحجم سلاحه .. وله حق ترقية بعض الرتب الكبيرة فيه .

أما في السياسة الخارجية فلا تستطيع مصر أن تبرم معاهدات دولية ، أو قروضاً ، إلا بموافقة السلطان في الآستانة .. كما ان ممثلي الدول الأجنبية في مصر يكونون بدرجة قناصل وليس سفراء ..

وفي السياسة الداخلية .. تتم الدعوة للسلطان العثماني في المساجد ، باعتباره «سلطان المسلمين» .. وتدفع مصر جزية سنوية لتركيا .. وتشترك في الحملات العسكرية لحسابها .. الخ .

ولكن الأفغاني يعلم أيضاً ان هذه التبعية المصرية لتركيا قد تعرضت للتحدي الخطير في عهد محمد علي .. وانه من يومها ، أصبحت في الواقع مجرد تبعية شكلية ، بسبب النمو المتزايد في أهمية مصر الدولية من ناحية .. والشغف المتزايد في الإمبراطورية العثمانية من ناحية أخرى .

يعرف جمال الدين الأفغاني كل ذلك قبل أن يأتي إلى مصر ، ويعرف أيضاً مدى الأطماع الدولية في مصر .. وهي الأطماع التي فتح الخديو اسماعيل الباب أمامها على مصراعيه .

٦

١٨٧١ . القاهرة . العتبة الخضراء . قهوة البوستة . المساء .

هذه دائرة من الشبان تستمع ، وهذا رجل جالس في صدرها يتكلم . انه ألقى إلى جانبه بعصاه التي يتوكأ عليها ، وأمامه فنجان القهوة «المرة» . رجل في الثانية والثلاثين من عمره ، متوسط الطول ، قمحي اللون ، عريض الجبهة ، واسع العينين ، رحب الصدر والمزاج ، وإلى جانبه يجلس خادمه وتابعه ، واسمه أبو تراب .

إن الشبان يسألون ، وجمال الدين الأفغاني يجيبهم بحسم ودراية

وتفصيل . إجابات تنطلق من فمه كطلقات متتابعة من مدفع بشري ..

« شر أزمنة أن يتبجح الجاهل ، ويسود الجاهل ..

« الأديب في الشرق يموت حياً ، ويحيا ميتاً ..

« من رهب الملوك بغير جريرة ، فهو الصعلوك ..

« صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا ..

« الفقر عدو الفضيلة ، والثراء نصير الرذيلة ..

« اعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام ، أقتل له من المدفع والحسام ..

« إذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالميها بغير الكلام ، فاحكم عليها بأنها أضل من الانعام ..

« أمة تطعن حاكمها سراً وتعبده جهراً لا تستحق الحياة ..

« إن هذا الشرق ، وهذا الشرقي ، لا يلبث طويلاً حتى يهب من رقاده ، ويمزق ما تقنّع وتسربل به هو وابناؤه من لباس الخوف والذل .. لقد مرت في الشرق زلازل من الظلم وأشكال الإستعباد ، حتى تأصلت في نفوس أبنائه بذور الذل والإستكانة لكل قوي اكتسح بلاده » ..

إن الأسئلة تتوالى ، والإجابات تتدفق . أسئلة من الشيخ محمد عبده ، والشيخ سعد زغلول ، والشيخ عبد الله النديم ، ومحمود سامي البارودي ، وعبد السلام المويلحي ، وسليم نقاش ، وأديب اسحق — وأسماء أخرى كثيرة سوف يقدر لها فيما بعد أن تلعب أدواراً حاسمة في تاريخ مصر .

ولكنهم الآن يكتفون بالإستماع .. فهذا الرجل أمامهم يفتح عقولهم على أسئلة كبرى أساسية لم يخطر على بالهم من قبل أن يفكروا فيها . انه يسحب عقولهم إلى الواقع من حولهم : لماذا الذل ؟ لماذا الاستعباد ؟ لماذا

الخضوع للحكم المطلق ؟ ولماذا الحكم المطلق ؟ لماذا تدهور المسلمون ؟

إنهم تدهوروا يوم خضعوا للاستبداد . مع الحرية نشأت امبراطورية كبرى . مع اختفائها انهارت الإمبراطورية ، وانهار معها كل شيء . الآن استعمار انجليزي في عدن ، وفرنسي في الجزائر ، وهنا وهناك يتربصون بهذه الأمة شرقاً وغرباً . إن الهدف هو العروبة والإسلام ، ومصر هي قلب العروبة والإسلام ، وما لم تكن البداية من مصر ، فسوف تكون النهاية من مصر .

هكذا بدأ الأفغاني دروسه في مصر . دروس منتظمة لطلبة الأزهر صباحاً ، ودروس مفتوحة للجميع ليلاً . في الحالتين نجد الشباب حوله أغلبية ، والعقول أمامه تتفتح ، والرجل نفسه يفسر . وفي كل ليلة يتركه الجميع متسائلين بينهم وبين أنفسهم : اين اختفى هذا الرجل من قبل ؟ هذا المكتشف ؟ هذا الأب الروحي ؟

٧

الأفغاني رجل صاحب قضية .

٨

في الحياة نستطيع أن نجد نوعين من الناس : نوعاً يريد أن يكون عظيماً بنفسه ، وهذا هو الأغلبية .. ونوعاً آخر يريد أن يكون عظيماً من خلال الآخرين ، وهو الأقلية . انك تستطيع أن تنظر حولك في أي وقت لكي تجد كم هذا النوع عملة نادرة في الحياة العامة .

ومع هذا النوع لا تصبح الموهبة هي فقط ما يمتلكه هو .. ولكن الموهبة عنده هي فن اكتشاف الموهبة . انه يتطلع حوله ، ينظر ويبحث

ويكتشف . انه يريد أن تكون موهبته هو .. شرارة لاكتشاف مواهب الآخرين . انه – حتى – لا ينتظرهم ، ولكنه يذهب اليهم : مساعداً وموجهاً ومكتشفاً .

الأفغاني كان مكتشفاً . انه يسعى إلى الشباب حوله ، ناظراً ومتأملاً ومكتشفاً ومحركاً ، لقد حرم نفسه من الزواج والأبوة ، ولكنه بدلاً من ذلك سيختار أبوة أكثر امتداداً .. وأصعب وظيفة وأكبر مسؤولية .

اننا نجد حوله دائماً هؤلاء الشباب ، الذين لا توحي النظرة الأولى اليهم بأي شيء خارق .. ولكن النظرة الثانية سوف تبشر على الفور بحقيقة مستقبلهم .

إن عجلة المجتمع تفرمهم ، وعجلة السلطة تدوسهم ، وعجلة العمر تعبرهم ، ولكن الأفغاني سوف يعبر بهم واليهم كل هذه الحواجز .. في حماس حقيقي ، وأبوة حقيقية .

إن الأفغاني يعرف جيداً أن الأبوة الحقيقية ليست امتيازاً ، ولكنها وظيفة . ليست سلطة ، ولكنها مسؤولية . إن الأب الذي يكتفي بواقعة انجاب ابنه لكي يمارس باسمه سلطته عليه ، هو في الحقيقة يطلب ثمناً عاجلاً ونقدياً لأبوته . الأفغاني لا يطلب ثمناً لشيء . وبدلاً من ذلك فإنه يعطي من عنده . انه يعطي رعاية واهتماماً وتقويماً واستماعاً وتعليماً واختباراً وحناناً وحباً . إن الحب ، وبهذه الكلمة أعني اعطاء الحب بمثل ما أعني الحصول عليه ، هو نفسه التزام . ان الأب لا يحب ابنه حينما يصيب .. ويكرهه حينما يخطئ . انه يحبه على بياض ، وبغير مقابل . إذا نجح ابنه ، فقد أدى هو واجبه .. وإذا فشل ، يتحمل هو نصيبه من المسؤولية .

والأفغاني كان مع هؤلاء الشباب حوله يحس بأبوته ، ويحس أيضاً

بمسؤوليته . انه يقفز اليهم فوق أسوار العمر وحواجز النفوذ وخنادق السلطة . الشباب دائماً تفصله الخنادق عن السلطة .

إن الأفغاني يملك الخبرة .. وهم يملكون الصدق . انه يفسر لهم بالعقل ما يدركونه هم بالغريزة . انه معهم يحس بأن الحياة ما زالت مشرقة ، والأمل ما زال كبيراً ، والبذرة بالضرورة مثمرة . هؤلاء الشباب هم الأمل والغد والمستقبل . ان الأفغاني لا جائزة له إلا في المستقبل . وهؤلاء الشباب هم الذين سيردون له كل اعتباره غداً . انهم الآن يستمعون اليه ويتناقشون معه .. أحلامهم لم تتجمد ، وظهورهم لم تتقوس ، وأسنانهم لم تتساقط ، وواقعهم لم يهزمهم ، وآراؤهم لم تصبح – بالزمن – كهوفاً يختبئون داخلها .. بعد .

إنه يحميهم من واقعهم ، ومن مجتمعهم ، ومن السلطة فوقهم ، ومن الحرب ضدهم . نعم . في المجتمع المصري كانت الحرب ضد الشباب معلنة دائماً . حرب من الحرمان والتجاهل والإضطهاد . حرب هدفها تأجيل الاعتراف بهم أو الإستماع إليهم . حرب ينفيها العقل وتأباها الحكمة وترفضها الطبيعة . في الطبيعة حولنا نجد الجذور القوية مختبئة تحت الأرض ، والأوراق الشابة مرتفعة في السماء . في الواقع نجد العكس . إن الصغار تحت .. هم الذين يحملون الكبار فوق .. على أكتافهم . إن الوضع هنا معكوس لأن السلطة في مصر كانت دائماً مقلوبة . نحن ندلل الطفل بدل أن نرعاه .. ونسحق الشباب بدل أن نفهمه .. ونعبد الموتى بدل أن ندفنهم . مع الأطفال نحن نلهو بمستقبل يتحول إلى كاريكاتير . مع الموتى نحن نحارب جيلاً مضى . ان الأطفال لا يعرفون .. والموتى لا يستطيعون .. وفيما بين طرفي المقص ، سوف تولد المأساة دائماً في مصر .

لهذا سوف نلاحظ في التاريخ المصري دائماً أن نسبة الفاقد من كل جيـل ضخمة . ونسبة العائـد قليلـة . إن كل جيل يصل إلى السلطـة متأخراً عن موعده بربع قرن على الأقل . انه يصل إليها بعد أن يصبح جيلاً من « العوانس » .. جيلاً أصيب بالعقم ودخل سن اليأس . جيلاً هزمته الحياة واختصرت أحلامه وصغرت معاركه وهانت نفسه وفسدت دماؤه وضمرت عضلاته . إن ثمن السلطة دائماً هو أن تكون إحدى قدميك قد أصبحت في القبر . ولأن الثمن فادح ، والوقت متأخر .. فإن كل جيل يبدأ من جديد نفس القصة مع الشباب الجدد . انه ، في السلطة ، يتلكع ويتسكع ولا يهزمه إلا الموت . وفي الحياة يمد للشباب تحته قدمه بدلاً من يده .

ولكن الأفغاني كان اعتراضاً على هذا « الفولكلور » . لقد كان أباً للذين يبحثون عن أبوة .. وعقلاً للذين يريدون استخدام عقولهم .. ومكتشفاً للذين يريدون الإعتراف بموهبتهم .. وشرارة للذين يريدون النهضة لبلدهم .

٩

الأفغاني رجل صاحب قضية .

١٠

في القاهرة ظهرت فجأة جريدة اسمها « مصر » . في الإسكندرية ظهرت جريدة « التجارة » . بعدهما ظهرت جريدة « أبو نضارة » . لم يكن أحد يعلم بعد أن جمال الدين الأفغاني هو الدينامو الذي يحرك كل هذه الصحف الثلاث .

إن الأفغاني لا يهمه أن يعرف أحد . كل ما يهمه هو أن يتصدر تلاميذه الصفوف وتنشأ في مصر قضية . القضية هي الدعوة إلى الديمقراطية. انه يكتب في الجريدة الأولى باسم مستعار هو «مظهر بن وضاح» .. ويستكتب في الجريدة الثانية معظم تلاميذه وعلى رأسهم محمد عبده ، وعبد الله النديم . في الجريدة الثالثة بدأ النقد المباشر للخديو اسماعيل وسياسته . انها سياسة هزلية ، ولا تناسبها إلا جريدة هزلية .

وشيئاً فشيئاً بدأ «التلاميذ» يصبحون «أساتذة» .. والشباب يصبحون حكماء .

الشيخ محمد عبده مثلاً يكتب : «إن الحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته .. إلا نصح الأمة له بالقول والفعل» .

وأديب اسحق يكتب : «قضي على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدي الأجانب من كل جانب» .

١١

نعم . الأجانب من كل جانب . انها سنة ١٨٧٦ . لقد جاءت بعثة أجنبية لفحص مالية مصر ، وأنشئ صندوق لسداد الديون ، وتقررت رقابة ثنائية من فرنسا وانجلترا على مالية مصر . إن الحاكم أسرف والديون ارتفعت ، ومصر كلها أصبحت مرهونة لتسديد الديون .

والأفغاني ؟ أين الأفغاني ؟

إنه يعلن صارخاً ومستاء ومحرضاً الأغلبية في ريف مصر : «اني لأعجب منك أيها الفلاح .. تشق الأرض بفأسك باحثاً عن رزقك .. لماذا لا تشق بهذه الفأس صدور ظالميك ؟»

١٢

الصحف تكتب والبذرة تثمر والسخط ينتشر والضغط يتزايد . هناك ضغط على الخديو من الخارج ، فالدول الأوربية متربصة .. وهناك ضغط من الداخل ، فالديون التي يدفعها الشعب من طعامه اليوم لم يستشره الخديو في اقتراضها أمس . هذا طبيعي ، ففي لحظة الثراء يحصل الحاكم المستبد وحده على الجائزة .. وفي لحظة الأزمة يدفع الشعب الثمن كاملاً .

جزء من الثمن هو : مصادرة حرية الرأي ـ التي ما زالت تحبو . إذن .. تغلق جريدتا « مصر » و« التجارة » .

١٣

الأفغاني يدعو لإنشاء برلمان وإقامة أحزاب والسماح بالمعارضة . الخديو اسماعيل يرفض . ومصر في طريقها إلى الإفلاس .. والدول الأجنبية في طريقها إلى مصر . إن الحجة الآن هي ضخامة الديون ، والحجة من قبل هي أهمية قناة السويس .. والنتيجة هي : أزمة كبرى .

١٤

الأزمات الكبرى هي دائماً اختبار لكفاءة النظام السياسي . ومنذ شق القناة عاشت مصر أزمة كبرى .. لن تخرج منها لسنوات طويلة تالية . انها حالة حمى أصابت النظام السياسي في مصر نتيجة حماقة حاكمها وديونها وأطماع الآخرين فيها . ولأن النظام السياسي في مصر كان ديكتاتورياً ـ بفرد واحد يفكر والآخرون يطيعون والأغلبية تتفرج ـ فإن كل شيء أصبح يتوقف على سؤال جوهري : هل يفهم الخديو اسماعيل حقائق عصره .. أو لا يفهم ؟

لا يفهم .

لقد اختار لنفسه من البداية أن يثق في غروره أكثر من ثقته في عقول الشعب . اختار أن يصمت الجميع لكي يتكلم هو .. ويشل إرادة الجميع لكي تنطلق إرادته هو. إنه يريد من حوله رعايا لا مواطنين .. وأتباعاً لا شركاء . وفي مثل هذه العلاقة المريضة تصبح حرية الرأي رفاهية .. وممارسة النقد جريمة .. والمعارضة كابوساً . ان الخديو يرفض المعارضة إلا لحسابه هو . انه برفضه لها لا يعبر فقط عن خطأ سياسي .. ولكنه يعبر أيضاً عن حدوده العقلية .

إن عقلية اسماعيل المحدودة كانت أعجز عن فهم حقيقة مبدئية : ان التاريخ تفسره الجغرافيا .

فبمجرد افتتاح القناة ، نشأت حقائق سياسية وتاريخية جديدة وضخمة في الشرق الأوسط كله . لقد كانت الأطماع ضد مصر موجودة دائماً .. ولكن قناة السويس لخصتها جميعاً .

ولأن الخديو تأخر في استيعاب النتائج السياسية لتلك الحقيقة الجغرافية الجديدة .. فإن مصر هي التي دفعت الثمن بعد ذلك كاملاً . ثمن غبائه وفرديته - لثمانين سنة بعدها .

لقد كان اسماعيل يتمتع بصفات السمسار بأكثر مما يتمتع بصفات السياسي . ولأنه كان يؤمن بأن « لكل انسان ثمن » .. فقد انتهت المسألة كلها بأن بيع هو نفسه ، عن طريق أصدقائه ، بسعر التراب .

كان الصديق المقرب إلى اسماعيل هو « نوبار باشا » . صداقة أساسها ضعف اسماعيل من ناحية ، ونفاق نوبار من ناحية أخرى . نفاق وولاء وطاعة ومرونة . أهم شيء المرونة . ان الحاكم المستبد يقدر جداً الطاعة والمرونة . ولكن الحاكم الذكي يدرك ان الطاعة العمياء .. إذا كانت لحسابه اليوم ، فانها يمكن أن تكون على حسابه ، ولحساب أي طرف آخر ، غداً .

لقد كتب جمال الدين الأفغاني يقول : «.. فإذا رأيت ، مثلاً ، نوبار باشا الأرمني يعمل على نكاية مصر وما يضير المصريين ، وقد تبوأ رياسة النظار فيهم ، وليس بينه وبينهم أقل جامعة .. حتى لو انه باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح ، ولا يخسر في هذا البيع ملة ، ولا وطناً ، ولا جنساً .. فلسوف ترى من الدخلاء في غير مصر · بغير اسم – يعمل ما هو أنكى من عمل نوبار للبلاد ، ويكون شر آلة للإستعباد .. » .

وفعلاً .. هذا ما حدث . فقد فوجئ اسماعيل بأن بريطانيا وفرنسا تطلبان منه حكومة جديدة ، يثقان هما في رئيسها .. وفوجئ أكثر بأن الرجل الذي تثق فيه بريطانيا وفرنسا ، هو نفس الرجل الذي آمن هو دائماً بأنه المخلص له ، ومحل ثقته : نوبار باشا !

وخلال أيام بدأ رئيس الوزراء الجديد يمارس سلطاته ، معلناً عن سيده القديم : ليس الخديو اسماعيل سوى .. الاسم الذي أوقع به قراراتي ! !

١٥

جمال الدين الأفغاني يتساءل : ما الذي جعل هذا الصنف من الناس – نوبار وغير نوبار – يطفح دائماً على السطح في ظل الحكم الإستبدادي ؟

وسؤال آخر : لماذا لم يثمر مجلس الشورى الذي أقامه الخديو اسماعيل ؟

وثالث : لماذا لا يوجد حل سوى الحرية والديمقراطية ؟

والأفغاني يجيب : في ظل الإستبداد تكثر الدسائس ، ويثمر النفاق .. وفي السياسة يجب أن يكون الرأي الأخير للأمة ، و«.. القوة

النيابية لأي أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة ، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير ، أو قوى أجنبية محركة له ، هو مجلس وهمي موقوف على إرادة من أنشأه .. ». ان المعارضة لن يكون لها أثر ، والأغلبية ستوافق دائماً ، وسوف يرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن ومناقشة الحاكم الحساب .. هي قلة أدب وسوء تدبير وقلة حنكة .. وتهور .

ثم يضيف الأفغاني : «لقد زاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبهة وان ضعفت ، واتباع بواطن التهم وان بعدت أو استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه .. فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يتلفت وراءه ، لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن ، أويقتص منه غداً .. وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة ، وفي كل نهضة سقطة ، وله من كل شخص دهشة ، ومن كل طارق لبابه غشية . أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا ؟» .

إذن سؤال أخير : ألا يخشى الأفغاني على نفسه من هذا ؟

وإجابة أخيرة من الأفغاني : سجن الظالمين للمصلح رياضة .. ونفيهم له سياحة .. وقتلهم له شهادة ، وهي أسمى المراتب .

١٦

الأفغاني رجل صاحب قضية .

١٧

هذا رجل تستطيع أن تسمعه داخل رأسك . وتراه دائماً أمام

عينيك . انها قضية كل عصر ، وهو رجل كل عصر ، وسوف يصبح في مصر دائماً ضحية كل عصر .

هذا رجل عرف كيف يهزم الحياة قبل أن تهزمه . لقد اختصر مطالبه منها ، فانخفضت معها توقعاته . حتى ملابسه ، اختصرها لكي لا تصبح حملاً عليه . انه رجل يعرف قضيته ، ومستعد لدفع ثمنها . الثمن لن يكون وظيفة ولا أجراً ولا نفوذاً ولا سمعة . الثمن هو اضطهاد بعد اضطهاد . لقد أصبح الاضطهاد هو الإيقاع الوحيد الثابت في عمره .. والموسيقى التصويرية الدائمة في حياته . ان حياته كلها سوف تصبح تكراراً للفكرة الإغريقية القديمة عن الفيلسوف السياسي ، أو المفكر الذي يوجه بغير أن يحكم .

هذا رجل عرف من الحياة حقيقة كبرى ورئيسية : ان الشجاعة مع النفس هي وحدها القادرة على أن تقطع منه الحبال التي تشده إلى أسفل . رجل درب نفسه على أن يعطي للحياة ولا يأخذ منها . لهذا فان الأفغاني ليست له مطالب شخصية سوى الطعام . كثير من الشاي والسجائر .. وقليل من الطعام . انه ، بوجبة واحدة في اليوم ، سوف يعيش لكي يتأمل ويفكر ويدعو ويحرض وينبه ويعلم ويكتشف .

إنه يكتشف من الشباب أحسنهم ، وفي الحكام أسوأهم ، وفي العصر فساده واستبداده .

إنه يكتشف من نفسه أن أهم شيء في الحياة ليس هو الثروة ، ولا المنصب ، ولا السلطة . ان جوهر الحياة هو شيء آخر مختلف : ان تشعر بأنك على وفاق مع نفسك . تشعر بأنك لا تخون في كل يوم واحداً من مثلك العليا . تشعر بأن الدنيا كلها لا تساوي سقوط مبدأ واحد .. ولا انهيار مثل أعلى .

إن الأفغاني يشيع هذه الروح من حوله في تلاميذه . انه لا يعلم بعد انهم سيكونون جنوداً لأول ثورة (١٨٨٢) .. ولا ان واحداً منهم سيقود فيما بعد أضخم ثورة (١٩١٩) . ان ما يعلمه الآن هو فقط أن يعطيهم الثقافة والفكر والقدرة على التمرد ضد عفونة الواقع . يعطيهم القدرة على قبول التحدي الذي يفرضه عصرهم على بلدهم . انهم من جانبهم لا يملكون عطاء له سوى الحب — الكثير من الحب . ولكن هذا كاف بالنسبة للأفغاني . أكثر من كاف .

وبهذا القليل الذي يحصل عليه الأفغاني .. فانه سوف يتحمل الكثير الذي ينتظره .

١٨

بناء على طلبات أوربا .. فإن السلطان العثماني في الآستانة يعزل الخديو اسماعيل من منصبه في القاهرة . لقد أصبح ابنه توفيق هو الخديو الجديد ، وفي الحكومة الآن وزير بريطاني ، وآخر فرنسي .

١٩

١٨٧٨ . الأفغاني ينقل أفكاره إلى الشارع . لقد قرر تشكيل حزب سري اسمه « الحزب الوطني الحر » . إنه يذهب إلى الناس .. والناس تأتي إليه .

الأفغاني يخطب : « انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم في حجر الإستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفلاحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف

والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم - التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم ... بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ..»

والأفغاني يقول لشعب مصر : «أنظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم ..» .

ويقول : «هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكمْ ! عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء» .

ويقول .. ويقول .. ويقول ..

٢٠

استدعاء مفاجئ لجمال الدين الأفغاني . ان الخديو توفيق شخصياً يريد منه الحضور فوراً .

في المقابلة فوجئ الأفغاني بشخص آخر لا يعرفه . ان توفيق ، وهو ما زال أميراً ، كان صديقاً له . أما توفيق هذا ، الحاكم والخديو ، فأنه إنسان آخر غير الصديق القديم .

في البداية جرب الخديو الحديث الناعم : يا شيخ جمال .. اني أحب كل خير للمصريين ، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الأسف ان أكثر الشعب جاهل خامل ، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيّجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة ..

ورد الأفغاني : ليسمح لي سمو أمير البلاد بأن أقول بحرية واخلاص .

ان الشعب المصري هو كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم ..

انتهت المقابلة .

هل اقتنع الخديو .. أو لم يقتنع ؟ لا أحد يدري .

إن الشيء الوحيد المؤكد هو أنه في تلك المقابلة عرف كل منهما شيئاً مؤكداً عن الآخر . الأفغاني عرف ان الديمقراطية التي تحمس لها توفيق وهو خارج السلطة ، قد أصبحت الآن تحت حذائه بعد أن حصل على السلطة .

أما توفيق نفسه ، فقد كان ما عرفه هو شيء أكثر اختصاراً : يجب التخلص من هذا الرجل — فوراً .

٢١

إشاعات تنتشر فجأة : جمال الدين الأفغاني كافر .. وزنديق .. وملحد .

ومثل كل إشاعة كاذبة : كانت هناك أدلة وقرائن وشهود . بل ان بعض الشهود هم من رجال الدين الذين جندهم الخديو توفيق لحسابه .

الآن .. أصبح الرجل صاحب قضية متهماً .. والرجل المسلم المؤمن ملحداً . لقد حدث هذا للأفغاني من قبل في تركيا . الآن في مصر .

واسم آخر يتردد من باب السخرية . هذا الرجل اسمه الجديد هو : ضلال الدين الأفغاني !

٢٢

القاهرة . ٢٢ أغسطس . ١٨٧٩ .

اجتماع مفاجئ لمجلس الوزراء . القرار : ينفى جمال الدين الأفغاني إلى خارج مصر .

التهمة : «لأنه رئيس جمعية سرية من الشباب ذوي الطيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا» . وهي جماعة «رئيسها شخص يدعى جمال الدين الأفغاني ، مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة في ديارنا المصرية ، وهذا من أكبر ما يغير الأفكار ، ويجب أن يعامل مرتكبه بالتشديد والإنكار ، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة ، وتستعمل السداد في قطع عرق هذا الفساد ، فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الداخلية» .

ولكن .. هل هذا إجراء ضروري ؟ نعم . لأنه « .. لما كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليها تمام العمران في جميع الممالك والبلدان ، ومن أنجح الأبواب وأصلح الأسباب التي بها نجاح الممالك ، وسلوكها في أقوم المسالك ، قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر بالدنيا والدين ، ويكون ذريعة للطائشين المتظاهرين بين الناس ، بمظهر الحرية بدون أساس» .

هكذا أصبح تمام العمران ، والأمن والأمان ، والراحة والاطمئنان .. في مصر .. يتوقف فقط ، في رأي الخديو توفيق وحكومته ، على نفي جمال الدين الأفغاني ، وابعاد «ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية .. لإزالة هذا الفساد من البلاد .. عبرة للمعتبرين ، ولمن يتجاسر على هذا من المفسدين ، البادي من أفعالهم الظاهرة .. انهم لا خلاق لهم في

الدنيا والآخرة» !

يومها تأكد بعض الناس أن الحاكم ، الخديو توفيق ، هو رجل صاحب فضيلة . نوع خاص جداً من الفضيلة !!

٢٣

السويس . محطة السكة الحديد .

جمال الدين الأفغاني ينزل من القطار مقبوضاً عليه لترحيله بالقوة في أول باخرة . من المحطة إلى الباخرة التي سيتم «شحنه» عليها .. وقد تصادف أنها متجهة إلى بومباي بالهند ، وليس إلى الأراضي الحجازية يصحبه بعض تلاميذه ، وقنصل ايران .

وعلى رصيف الميناء ناوله تلاميذه شيئاً في يده . انه شهر رمضان ، والرجل لا يحمل معه شيئاً على الإطلاق ، ولو بعض الطعام . نعم ، هي نقود ، والمبلغ مائة دينار .

والأفغاني يرفض ويشكر قائلاً : الليث لا يعدم فريسته أينما ذهب .

فحتى في حالته هذه ، ما زال الأفغاني مصراً على أن يعطي درساً جديداً لتلاميذه . درساً وصورة سوف يتذكرها تلميذه محمد عبده إلى أن يسجلها كتابه بقوله : «لا ريب أن الإنزعاج بنني جمال الدين كان عاماً ، والكدر كان تاماً . ولكن جناب الخديو أظهر سروره بما فعل ، وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الإفطار في رمضان ، فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في محضر الشيخ جمال الدين . وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفي والتقريع الشديد بما لم يكن يستحق الرجل ، كما انه فيه تشنيع جارح على من كانوا يجتمعون عليه ، فنشره البعض ، وأبت إحدى الجرائد نشره...

فعطلت . على أن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة ، ولا الألسن إلا جرأة .. ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نمواً وظهوراً ...» .

٢٤

الأفغاني رجل صاحب قضية .

٢٥

يتعلم الإنسان أشياء كثيرة .. إلا فناً واحداً ، هو : فن الموت .

إن الناس جميعاً يموتون بنفس الطريقة ، ولكن التفاصيل هي التي تختلف . من التفاصيل يولد العظماء . إن الطريقة التي يعيشون بها ، والهدف الذي يحيون ويناضلون من أجله ، يصبح في النهاية أهم من أي أثر منفرد يتركونه من بعدهم . انها الوسائل التي يسلكونها هي التي تضيف إلى ، أو تخصم من ، أخلاقية الهدف الذي يسعون إليه والقضية التي يمثلونها :

لقد عاش جمال الدين الأفغاني في مصر ثماني سنوات فقط ، وسوف يعيش بعدها سنوات أطول ، ولكن التلاميذ الذين علمهم في مصر فن الموت من أجل قضية .. لن يعودوا أبداً إلى ما كانوا عليه قبل وصوله .

لقد تعلموا من الأفغاني أن السلطة يجب توجيهها .. بدلاً من خشيتها .

وتعلموا ان الإنسان يمكن أن يكون مصيباً ، ومع ذلك يتلقى الطعنات . ان القوة تستطيع أن تقهر الروح .. والإستبداد يستطيع أن يدفن الحرية .. ولكن انهيار الإنسان يبدأ من داخله . يبدأ من صلابة ارادته . بهذه الإرادة يستطيع الإنسان أن يتحمل جبالاً فوق رأسه . من غيرها يتساوى تماماً مع القطيع حوله .

تعلموا أن في حياة كل إنسان فترات .. تصبح الشجاعة فيها لا تساوي ثوابها ، والفضيلة لا تستحق عبئها . ومع ذلك – هذا اذن هو الدرس الهام – فإن السقوط هو امتحان .. والخوف لا علاج له إلا بعدم الخوف والإستبداد الذي قد يبدو خالداً .. يمكن أن ينهار في لحظة واحدة .

تعلموا أن المفكر لا يجب أن ينظر أبداً إلى القضايا الكبرى على ضوء المكسب والخسارة . انه يؤمن بقضية محددة ، ويجب أن يدفع في سبيلها ثمناً غير محدد .

تعلموا ان مصر هي دولة من الدرجة الأولى ، ومشكلتها هي انه يحكمها أحياناً أناس من الدرجة العاشرة .

تعلموا أن الأساس هو أولاً في الثورة العقلية . مـن الفشل يولد الإستبداد . ومن النجاح تولد الحرية . ومن الحرية تولد القوة والعصرية .

تعلموا أن المرض في مصر ليس فقط هو الفساد .. ولكن التعود عليه .

تعلموا أن المفكر لا قيمة له قبل التمرد على فساد ونفاق عصره . قل لي ما هي قضيتك .. أقول لك كم تساوي .

تعلموا أننا لا ننادي بنهضة مصر عن طريق الشفقة عليها .. ولا بالتحسر على ماضيها .. ولا بمجرد التمني من أجلها .. ولا بتنمية شعورها بالنرجسية الرومانسية . ان الطريق هو أن نمكن مصر نفسها من النهوض بنفسها .. لأننا نزيد الإنسان العادي عجزاً بالشفقة عليه .. فما بالك بمجتمع كامل ؟ ان عظمة مصر يجب أن توحد الآن ، وفي هذه اللحظة ، وهي عظمة لن تفكر لها إلا هذه العقول .. ولن تصنعها إلا هذه السواعد . إن مصر لن تعيش أبداً بعظمة مستعارة من الماضي .. ولا بعظمة يتم تأجيلها إلى المستقبل . انها عظمة يحاسب عليها كل جيل بمفرده .. بغير عصا

يتوكأ عليها ، سواء كان اسم تلك العصا هو ماض مجيد صنعه أجدادنا .. أو مستقبل مؤجل نلقي بمسؤوليته على أحفادنا . ان العظمة — عظمة مصر — تولد هنا أو تدفن هنا . انها التحدي المطروح في هذه الدقيقة ، وهذه اللحظة .. والثمن الذي يجب أن يسدده نقداً هذا الجيل .. وهذه العقول .

تعلموا .. وتعلموا .. وتعلموا ..

وتعلموا من الأفغاني أغنية أخيرة : سوف يأتي وقت تختفي فيه كل آلامك .. حينما الأشياء التي بدت واضحة جداً ، تصبح ألماً بالغاً .. تبحث عن الحقيقة بين الأكاذيب .. ولا تحصل على الإجابة ، إلا بعد أن تتعلم : فن الموت .

ومن الآن فصاعداً ، سوف يعيش جمال الدين الأفغاني ثمانية عشر سنة . يعيشها وسط الأكاذيب . يعيشها موضوعاً في القائمة السوداء . ان اسمه لن يرتفع منها ، وحقيقته لن تعود كاملة ، إلا بتلاميذه هو .. الذين بحثوا عن أب ، مع جيلهم كله .. فلم يجدوه أبداً قبل وصوله .

٢٦

١٨٨١ — ١٨٨٢ . مصر في حالة ثورة .

الغليان والتمرد والثورة . عبد الله النديم ، أحد تلاميذ الأفغاني ، يصدر جريدة يدعو فيها إلى الديمقراطية والدستور والثورة . محمد عبده ، تلميذ آخر للأفغاني ، يخطب في الناس معبئاً للثورة . سعد زغلول ، تلميذ ثالث للأفغاني هو واحد من جنود الثورة .. الخ ..

الخديو توفيق — نفس الرجل الفاضل جداً جداً — يتآمر مع القوى الأجنبية ضد الثورة . حتى أنه يطلب من بريطانيا التفضل باحتلال مصر . لقد تفضلت هي .. واحتفظ هو بكرسيه .

٢٧

بومباي . حيدر أباد . كلكتا — الهند .

جمال الدين الأفغاني يتحدث إلى سلطان الاحتلال البريطاني في الهند : «انني ما أتيت إلى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ، ولا أنا على استعداد اليوم لأحدث شغباً عليها ، ولا لأنتقد شيئاً من أعمالها . ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلي ، ومصادرتها لزائرين هم أضعف مني ، يسجل على حكومة بريطانيا العظمى وهن عزيمتها ، وضعف شوكتها ، وقلة عدلها ، وعدم أمنها من حكمها ، وانها في حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة الواسعة أضعف بكثير من شعوبها» .

مع ذلك ، فحكومة بريطانيا العظمى ، تقرر تحديد اقامة الأفغاني في حيدر أباد ، ولا تسمح له بالتجول أو الاختلاط بأحد . القراءة فقط .

ولكن الأفغاني يتمرد على سلطات الاحتلال البريطانية في الهند . انه يخاطب الهنود قائلاً : «يا أهل الهند .. وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم ، وأنتم تعدون بمئات الملايين ، «ذباباً» مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من أبنائكم ، فحملتهم سلاحاً لقتل استقلالكم ، واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف ، لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت ذباباً .. لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم المستر جلادستون وقراً . ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل كلاً منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القعر ، وعدتم إلى هندكم أحراراً» !

وعندما قامت في مصر تلك الثورة الكبرى بقيادة أحمد عرابي .. جاءت التعليمات من بريطانيا العظمى إلى مندوبي احتلالها في الهند بنقل

جمال الدين الأفغاني إلى مدينة كلكتا ، في شرق الهند .. والتأكد من أن أحداً لا يتصل به هناك ، ولا هو يتصل بأحد . إن الرجل وحده . والرجل أعزل ، والرجل محددة إقامته .. ومع ذلك فهو ما زال يمثل بالنسبة لبريطانيا العظمى خطراً كبيراً يجب خشيته ! ان خشيتهم منه ما زالت أكبر من سجنهم له . فصحيح صحيح أن الرجل تم نفيه من مصر .. ولكن أفكاره ما زالت حرة ، تحرك الثورة وتشعل أبناءها .

٢٨

١٨٨٤ . باريس . عودة إلى الحرية .

إن اليوم هو ١٣ مارس . والخبر هو صدور جريدة جديدة باللغة العربية من باريس . جريدة يتم تصديرها من باريس إلى كل الأحرار في العالم العربي والإسلامي . جريدة اسمها «العروة الوثقى» .

لقد «أفرجت» بريطانيا العظمى عن الأفغاني بمجرد أن احتلت مصر عسكرياً .. وسمحت له بمغادرة الهند إلى أي مكان .. بشرط ألا يذهب إلى أي بلد إسلامي . هكذا انتهى المطاف بالأفغاني أخيراً إلى باريس . من هناك كتب إلى تلميذه محمد عبده في بيروت .. حيث يقضي هناك حكماً بالنفي جزاء اشتراكه في الثورة العرابية .

في باريس قرر الإثنان تشكيل جمعية سرية اسمها «العروة الوثقى» .. وإصدار جريدة باسم الجمعية .. لكي تشعل روح المقاومة في العالم الإسلامي ضد الاحتلال الأجنبي .. ولكي تعبئ إرادة المقاومة ، المهددة الآن بالتمزق أمام خطر اليأس والهزيمة والتفوق العسكري لعدوها ، وتخاذل ، بل خيانة ، الطبقة الحاكمة فيها .

إن الأفغاني يدير الجريدة ، والشيخ محمد عبده يرأس تحريرها ،

وهي ترسل بالبريد مجاناً إلى الأعضاء وغير الأعضاء بالعالم الإسلامي .

وجريدة «العروة الوثقى» تكتب لقرائها في عددها الأول : «ان الرزايا الأخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق (أي احتلال بريطانيا لمصر) جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوه من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف .. تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار ، خصوصاً البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجهة ، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته ..

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب من الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعنة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون مدينة حرة كمدينة باريس ، ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية ، تنبيهاً للغافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد

عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الإتكال في جميع الأحوال ...

«.. ومع كل هذا ، فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها .. وترسل إلى الذين تعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل ، ليتداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالأسم المعروف به ، ومحل اقامته على النهج الذي يريده ، والله الموفق» .

إن الجريدة الجديدة تشرح لقرائها ان ضعفهم والتفريط في واجباتهم هو الذي أدى إلى سقوط مجدهم . ان النجاح ممكن .. والأمل فيه قائم ويجب أن يزداد قوة . ان اتحاد كلمة المسلمين وتمسكهم بأصول دينهم هو طريق إلى القوة . ان الاستعمار يحاول أن يلصق بالمسلمين تهماً في أنفسهم وفي دينهم – الإسلام منها براء .. الخ .. الخ ..

٢٩

١٨٨٤ . مصر . الهند . سوريا . العراق . لبنان .

مبدئياً : سلطات الاحتلال البريطاني في الهند تمنع دخول جريدة «العروة الوثقى» .

في مصر : اجتمع مجلس الوزراء ، بناء على طلب بريطاني ، لمناقشة أمر الجريدة الجديدة .

وعلى الفور صدر قرار إلى وزارة الداخلية بمنع دخول الجريدة إلى مصر ، ومراقبة ، «إدارة عموم البوسطة» في التزامها بالدقة بشأن تنفيذ القرار .. ونشر الحظر في الجريدة الرسمية .. ومن تضبط لديه أعداد من الجريدة يعاقب بغرامة من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيهاً مصرياً .

في العراق ، يقول السيد سلمان الكيلاني نقيب السادة الأشراف : كلما يجيء الينا عدد من «العروة الوثقى» أحس بأن الثورة توشك أن تقع قبل أن يجيء العدد الذي يليه .

في سوريا يقول الشيخ حسين الجسر ، عالم سوريا : ما يشك أحد في أن جريدة «العروة الوثقى» .. لو يطول عليها الزمان .. ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الإسلامي .

في لبنان يكتب شاب في مذكراته : «انني لا أزال أتذكر انه كان بدارنا في القلمون ، بجوار طرابلس الشام ، ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العرابية ، فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء . فأخذها الأستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المشهور ، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت البترول ، وأنشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب ، وإنما كان يقف عند بعض الجمل ، ليعبر عما يخالجه من شعور العجب ، ولم يتركها حتى أتى على آخرها . ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء من مثل هذا ، بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لاشتغالي بطلب العلم» .

ولكن جريدة «العروة الوثقى» جعلت الشاب ، لأول مرة ، يعنى بـ «مثل هذا» . انه يروي ما حدث فيما بعد عندما «.. كنت مرة أبحث في أوراق والدي العتيقة ، وأتصفح ما فيها من الجرائد المطوية ، فعثرت على أعداد من العروة الوثقى ، فطفقت أقرأها المرة بعد المرة ، وهي تفعل في نفسي فعلها – تهدم وتبني ، وتعد وتمني ، وما كان وعدها إلا حقاً ، ولا تمنيها إلا رجاء وأملاً ، أحدثت اصلاحاً وعملاً . فكانت هي أستاذي الثاني الذي أثر في نفسي ، وأقيم عليه بناء عملي وأملي ... أنشأت بعد أن ظفرت بتلك الأعداد أبحث عن أخواتها في طرابلس ، فكنت أجد عند

الرجل العدد ، وعند الآخر العددين ، فأنسخ ما أجد . ثم علمت ان الشيخ حسينا الجسر احتواها كلها ، ومن عنده أتممت استنساخها . فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والإنفعال ، والحرارة والإشتعال ، ما قذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال .. والذي علمته من نفسي بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله ، بعض ما كان لها من اصابة موقع الوجدان من القلب والإقناع من العقل ، ولا حد للبلاغة إلا هذا ...»

تلك كلمات شاب عربي في لبنان ، ما زال في التاسعة عشرة ، يطلب العلم ، ولا يفكر في «شيء مثل هذا» . ولكن جريدة العروة الوثقى جعلته يفكر في كل هذا .

إنه يتعلم من العدد الثاني للجريدة أن قضايا العروبة والإسلام لا تتجزأ . يقرأ انه : «يهم المسلمين في كل أرض ما يجري في مصر ، بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلاً أو حامياً . وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فانها بهرة الإسلام وباب الحرمين الشريفين ، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه» . و«.. انا نقول ، كما يهتف به كل مسلم ، انه من فروض الدولة العثمانية أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر ، وكف يد الإنجليز عنها ، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الآستانة ...» .

وهو يقرأ في العدد السابع مناقشة للأسطورة التي نشرها الإنجليز من أنهم قوة لا تقهر ، فأصبح «.. الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الإختراع سحراً أو كلمة . فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم مع غالب أرجائه .. ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خافياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بحجاب الوهم . يمثل الوهم

لكل شرقي أن الإنكليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم» . انهم ليسوا قوة لا تقهر .. بل هم يقهرون بالعزم والإرادة والوحدة .

وهذا الشاب يقرأ من جديد في «العروة الوثقى» أن جمع الكلمة ممكن بعد افتراقها .. لأن الكلمة «لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه . استغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به ...» .

إن هذا الشاب هو نفسه نموذج لما يمكن أن تفعله هذه الجريدة الجديدة . هو نفسه مقياس نقيس به ما فعلته الجريدة الجديدة . هو نفسه كتب عن جريدة «العروة الوثقى» فيما بعد مسجلاً : «وأكبر أثرها عندي أنها هي التي وجهت نفسي للسعي في الإصلاح الإسلامي العام بعد أن كنت لا أفكر إلا فيمن بين يدي .. حتى هدتني العروة الوثقى إلى المناشئ والعلل» .

كان اسم هذا الشاب هو محمد رشيد رضا .. وسوف تكون هذه هي الشرارة التي تجعله فيما بعد يفكر ويكتب ويجاهد ويهاجر إلى مصر ويصدر جريدة يواصل بها دق جرس التنبيه والنهضة للعالم العربي والإسلامي .

٣٠

١٧ أكتوبر . ١٨٨٤ . باريس .

اليوم صدر العدد الثامن عشر من جريدة «العروة الوثقى» . وبعد صدوره اجتمعت هيئة تحرير المجلة . النتيجة : فلتتوقف الجريدة عن الصدور ، وليكن هذا هو العدد الأخير . لماذا ؟ وهل هناك أسباب ؟

هناك كثير من الأسباب .. أهمها هو : ان جميع الحكومات

تصادرها .. وفضلاً عن ذلك تحيط كل من تصل اليه بشبهات سياسية .. سرعان ما تؤدي إلى مضايقات لا آخر لها من قبل الحكومة في كل بلد . لقد أصبحت حيازة الجريدة ، بمجرد الحيازة ، هو حجة كافية لسلطات الإحتلال (في مصر والهند مثلاً) على نشاط سياسي معادي .

توقفت الجريدة اذن . الآن ماذا يفعل الأفغاني ؟ يواصل النضال طبعاً . هذا رأي الأفغاني . ولكن هناك رأي آخر - من الشيخ محمد عبده هذه المرة . إن محمد عبده من رأيه أن جمال الدين الأفغاني هو صاحب اقتدار عجيب ، لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة ، والآن ، بعد توقف «العروة الوثقى» عن الصدور .. فانه يعرض على الأفغاني أن «.. نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلّم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا عدد من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب ، فينتشر أحسن الإنتشار ..

وجمال الدين الأفغاني يقاطع تلميذه قائلاً : إنما أنت مثبط .

لقد كانت تلك هي بذرة الافتراق ، الذي سرعان ما سيحدث أخيراً بين الأستاذ وأقرب تلاميذه إليه . ان محمد عبده سافر بعدها إلى تونس محاولاً اللحاق بثورة المهدي في السودان . وعندما لم يتم ذلك .. اتجه إلى بيروت ، حيث سيعيش هناك في المنفى منَ جديد لفترة تالية .. قبل أن يسمح له الخديو في مصر بالعودة من جديد .

لقد رأى محمد عبده ، ومن خلال تجربته الشخصية ، أن العقبات أضخم مما يتصور الجميع .. والحرب أعنف مما توقع الجميع . رأى أن موجة المد الثوري في مصر والمنطقة كلها .. سرعان ما تحولت إلى انحسار

وتراجع للتيار الوطني ، تحت نيران القوى الأجنبية ، وتخاذل السياسيين المحليين . رأى الناس وقد توقفوا لالتقاط الأنفاس .. ورأى الثورة العرابية وقد تم ذبحها .. والذين ساهموا في رفع علمها ، وقد استدار بعضهم الآن حاملاً السكين ضدها . رأى الثورة نفسها ، وقد تنكر الجميع الآن لها .. بل وأصبح اسمها « هوجة عرابي » .. وعصياناً لا بد من مطاردة ذيوله حتى النهاية .

رأى محمد عبده كل ذلك .. فترسبت لديه مرارة من العمل السياسي ، ومن السياسة كلها ، الأمر الذي سيسجله هو نفسه فيما بعد قائلاً : « أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس » !

لقد كانت التجربة مريرة بالنسبة لمحمد عبده .. والنتائج أصعب من تحقيقها في جيل واحد .. وهو من الآن سيغير من وسائله وأسلحته .

ولكن .. هل يفعل الأفغاني ذلك ؟

٣١

الأفغاني رجل صاحب قضية

٣٢

١٨٨٦ . طهران . فارس (إيران) .

جمال الدين الأفغاني يتجه إلى طهران ، بناء على برقية استدعاه فيها شاه إيران ناصر الدين . لقد استقبله الشاه وأكرم وفادته وعينه مستشاراً له .

في البداية سار كل شيء على ما يرام بين الشاه وبين جمال الدين .

في النهاية كان لا بد أن يختلف الرجلان على القضية الأساسية : ديمقراطية.. أو لا ديمقراطية ؟

لا ديمقراطية .

اذن .. فليبتعد الأفغاني .

لقد ابتعد ، مسافراً هذه المرة إلى روسيا القيصرية . انه هناك يريد أن يفحص نقطتين : هل يمكن استخدام روسيا ضد السياسة البريطانية في الشرق ؟ .. ثم .. هل يمكن اقناع القيصر الروسي بتحسين المعاملة الجائرة التي يواجهها المسلمون الروس ؟

هكذا أقام الأفغاني ثلاث سنوات في بطرسبورج ، عاصمة روسيا القيصرية ، مكرراً محاولاته في الإتجاهين .

وخلال تلك الفترة جاء شاه إيران في زيارة لروسيا ، ورفض الأفغاني مقابلته . بعدها فاتحه القيصر الروسي في شأن خلافه مع شاه إيران .

قال القيصر : إنني أرى الحق مع الشاه .. إذ كيف يرضى ملك من الملوك بأن يتحكم فيه الفلاحون في مملكته ؟

والأفغاني جاهز الرد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير لعرش الملك أن يكون ملايين الرعية أصدقاء له .. بدلاً من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص ، ويكتمون في الصدور سموم الحقد ونيران الكراهية ..

لم يرد القيصر . لقد نهض واقفاً . ولم يكن هذا فقط انتهاء المقابلة ، ولكنه يعني أيضاً ان الأفغاني أصبح شخصاً غير مرغوب فيه في روسيا كلها !

الآن يرحل الأفغاني إلى بلد جديد – ألمانيا في هذه المرة .

وفي ميونيخ ، التي أقام بها ، تصادف أيضاً قدوم شاه إيران . لقد توسط البعض بين الشاه والأفغاني ، فقبل الأفغاني بعدها دعوة الشاه

للعودة إلى إيران .

إن الأفغاني في طهران مرة أخرى .

ومرة أخرى يستأنف دعوته إلى الحكم الديمقراطي .. ولكن في هذه المرة الناس تتزايد وتتزايد التفافاً حول دعوة الأفغاني .

أخيراً كان لا بد من المواجهة .

قال له الشاه : هل يصح يا حضرة السيد ، وأنا ملك الفرس ، وشاهنشاه بلاد فارس ، أن أكون كأحد أفراد الفلاحين ؟

رد جمال الدين : اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هي الآن . والفلاح والعامل والصانع في المملكة ، يا حضرة الشاه ، أنفع من عظمتك ومن أمرائك . واسمح لاخلاصي أن أؤديه صريحاً قبل فوات وقته . لا شك يا عظمة السلطان أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن .. هل رأيت ملكاً عاش دون أمة ورعية ؟

يومها خرج الأفغاني من عند الشاه مدركاً أن القطيعة نهائية في هذه المرة . لقد غادر طهران العاصمة .. واتجه إلى ضريح مقدس يقيم فيه ضريح يقع على مسافة اثنا عشر ميلاً من طهران ، ويقدسه الإيرانيون . هو مشهد عبد العظيم شاه . ان الاختيار معقول ، لأن الضريح ملجأ وحرم .. ومن دخله كان آمناً على نفسه .

ثمانية أشهر .. والأفغاني آمن على نفسه .

ولكن الشاه يتلقى خطابات مجهولة التوقيع ، ومنشورات يتزايد عددها يوماً بعد يوم .. من مواطنين آمنوا بدعوة الأفغاني بضرورة الحكم الديمقراطي ، وإلا .. فالتنازل عن العرش .

والنتيجة : أرسل الشاه خمسمائة جندي مسلح إلى «مقام عبد العظيم شاه» . ان المكان مقدس ، ولكن لا يهم .. والأفغاني مريض ، ولكن لا يهم . لقد أخرجه الجنود من ملجأه .. وقادوه بقوة السلاح لكي يقذفوا به عند الحدود . مشهد رواه الأفغاني فيما بعد ، قائلاً : «.. وأما قصتي وما فعله هذا النكود الظلوم (الشاه) معي ، فمما يفتت أكباد أهل الإيمان ، ويقطّع قلوب ذوي الأيقان ، ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الأوثان . إن ذلك اللئيم أمر بسحبي ، وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام ، في شدة المرض على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة – هذا كله بعد النهب والغارة ... ثم حملني زبانيته الأوغاد (الشرطة) وأنا مريض ، على برذون (دابة) مسلسلاً في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرة ، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين (على الحدود) .. وصحبني جمع من الشرطة ...» .

٣٣.

الآستانة . ١٨٩٢

بناء على دعوة من السلطان العثماني يعود جمال الدين الأفغاني إلى الآستانة قادماً من لندن . انه أقام في البصرة سبعة أشهر ، بعدها ذهب إلى لندن ليقود من هناك حملة شعواء ضد شاه ايران انتقاماً منه على ما فعله معه .

إن شعور الأفغاني بالمهانة ، والطريقة التي قذفته بها شرطة الشاه عند الحدود ، قد جعلته في هذه المرة ينحي خصومة عمره جانباً ، وهي السياسة البريطانية والاستعمار البريطاني ، لكي يصفي حسابه مع الشاه . انه في لندن يصدر مجلة باسم «ضياء الخافقين» تصدر بالعربية والإنجليزية .

ويكتب الأفغاني فيها عن فضائح الشاه وسوء الأحوال الاقتصادية في ايران . مجلة تنفق عليها شركة انجليزية ، وترحب بها الحكومة البريطانية .. وتمثل في الواقع جملة اعتراضية في نضال الأفغاني . جملة اضطر فيها الأفغاني الثائر إلى الخضوع لضغط الأفغاني الإنسان ، في الإنتقام لنفسه من الشاه .

وذهب سفير الشاه في لندن يرجو الأفغاني أن يتوقف . لم يتوقف . عرض عليه الصلح . رفض . الأموال . رفض .

أخيراً طلب شاه إيران وساطة السلطان العثماني في الآستانة ، فعرض السلطان على الأفغاني الإقامة في الآستانة .

هكذا عاد الأفغاني من جديد يقيم في العاصمة العثمانية . وعندما ذهب ياور السلطان يستقبله سأله عن صناديقه ، فأجابه الأفغاني بأنه ليس معه سوى صناديق الثياب وصناديق الكتب . حسناً . أين صناديق الثياب ؟ أشار الأفغاني إلى جبته قائلاً : هذه هي . حسناً . أين صناديق الكتب ؟ مرة أخرى أشار الأفغاني إلى صدره قائلاً : الكتب هنا .. !

ومرة أخرى .. يبدأ كل شيء بالنسبة للأفغاني على ما يرام . فالسلطان يقرر للأفغاني مرتباً ثابتاً من خزينة الدولة (خمسة وسبعون ليرة شهرياً) .. وله بيت أنيق قرب قصر السلطان .. وله عربة وخدم وحشم .. والسلطان يدعوه كل جمعة لتأدية الصلاة معه .. وهو يستمع إليه في الإصلاحات التي يدعو إليها .. ويعده بالعمل على تنفيذها .. بل ويعرض عليه منصب شيخ الإسلام .

ولكن قضية الأفغاني ليست منصباً . ان قضيته هي بناء الدولة الإسلامية . هي حكم الشورى . هي الديمقراطية . هي حشد قدرة الصمود في دولة إسلامية واحدة على الأقل لكي توقف الإنهيار والتدهور في

الشرق الإسلامي كله أمام الهجمات القادمة من أوربا .. هي جامعة إسلامية توقظ الناس من سباتهم وتوقف تيار الإنهزامية بينهم وتعبئ قواهم لنهضة جديدة حيوية وملحة .

إن الأفغاني يمثل الآن جيلاً تاليا للجيل الذي مثله رفاعة رافع الطهطاوي . لقد احتك جيل الطهطاوي بأوربا والدولة (في مصر على الأقل) قوية .. ومن ثم فهو قد رأى من أوربا الجانب المبهر . أما الجيل الذي يمثله الأفغاني ، فإنه يرى أوربا الآن كخطر .. لأنه يرى الدولة هنا مريضة وضعيفة وغير متنبهة وتفتقر إلى العقل السياسي الذي يرى الخطر ويواجهه . انه تعامل مع الحكام ، واحداً بعد الآخر ، مؤملاً الخير فيهم .. واثقاً من قدرته على ايقاظهم . ولكن أمله يخيب في كل مرة .. مع السلطان عبد الحميد في تركيا .. والخديو توفيق في مصر .. وناصر الدين في ايران . انهم حكام تمثل عقلياتهم عصر الانحطاط السياسي .. في الوقت الذي أصبح فيه العصر هو عصر التحدي السياسي .

ولقد كانت القضية الملحة في عصر ابن تيمية مثلاً ، هي مجرد فساد حاكم . الآن أصبحت قضية بناء كامل للدولة . فنتيجة لفساد الحكام جيلاً بعد جيل .. امتد الفساد الآن إلى بناء الدولة من أساسه . ان الناس ترى أوربا باعتبارها قوة لا تقهر .. وهم يرون فساد الحاكم باعتباره شيئاً مؤسفاً .. ولكنهم ينيبون الله عنهم في أداء مهمة خلعه أو الثورة عليه ! والناس غير متنبهين إلى أن أوربا لم تجئ في هذه المرة يسبقها السيف .. كما حدث في أيام الحروب الصليبية .. ولكن تسبقها الامتيازات التجارية ، وبعدها المدفع . لهذا يشن الأفغاني الحملة في مصر على نفوذ شركة قناة السويس (الفرنسية) .. وفي إيران على منح امتياز التبغ لشركة انجليزية . في الحالة الثانية ينجح في ارغام الحاكم على التراجع ، ولكنه

في الحالة الأولى يفشل .

والأفغاني يرى أن إعادة بناء الدولة الإسلامية هو أمر بالغ الحيوية لأن الناس ، من الحاكم فوق إلى المواطن الصغير تحت ، لم تأخذ تفوق أوربا باعتباره تحدياً يجب الارتفاع إلى مستواه .. بل باعتباره قضاء وقدراً لا مفر من الإستسلام له والدعاء عليه . ان هذا الوهم قد جعل الناس أكثر جبناً مما يبرره واقعهم .. وأكثر ضعفاً مما تسمح به امكانياتهم .

إن الناس يجب أن يثوروا على واقعهم .. وهم في ذلك يجب أن يبدأوا بالثورة على استبداد حكامهم قبل فوات الأوان . حكام يسمحون لموظفين أجانب ، أو لذيول للأجانب (كحالة نوبار في مصر مثلاً) بالتسلل إلى مراكز السلطة العليا ، والإندساس في مشاوراتهم .. وهؤلاء الحكام «.. سلموا أمورهم من كتابة وإدارة وحماية ، للأجانب عنهم ، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم .. وبعد ما علمتهم التجارب أنهم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذا عززوا هانوا ... ألا أيها الأمراء العظام ، ما لكم وللأجانب عنكم ... سارعوا إلى أبناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم» .

يجب أن يثور الناس على مثل هذه الأوضاع ، ومثل هؤلاء الحكام ، والأفغاني يؤكد في كل لحظة أن الله والشريعة والمصلحة تحتم على الناس مثل هذه الثورة ، لأن الوقت لا يسمح بالتلكؤ .. والتوسع الأوربي أكثر شراهة مما يتخيل الحكام . ان أوربا ، بمجرد أن تسنح لها الفرصة ، لن تطعن الناس في سيادتهم واستقلالهم فحسب ، ولكن في دينهم أيضاً . فهذا هو الإحتلال البريطاني في الهند يقود حملة لنشر الإلحاد بين المسلمين .. وهذا هو أستاذ فرنسي يقول في جامعة السوربون أن الإسلام يتناقض مع العلم وان مصير الإسلام هو الزوال . في الحالة الأولى يرد

الأفغاني برسالة مطولة عنوانها «الرد على الدهريين» يهاجم فيها تيار الإلحاد المسلح بأنياب أجنبية .. وفي الحالة الثانية يرد على الأستاذ الفرنسي رداً مطولاً . ان الإسلام هو إيمان بالعقل .. وتدهور حال المسلمين لا يرجع إلى دينهم ، ولكنه يرجع إلى روح مريضة جاءت مع فساد الحكام وابتعادهم عن روح الدين . وهكذا .. فأوربا اليوم أقوى مما كانت عليه قبل عصر النهضة ، مع أنها أقل تديناً .. والمسلمون اليوم أضعف مما كانوا عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، لأنهم ابتعدوا عن جوهر الدين . ان المسيحيين أقوياء ، لأنهم ليسوا مسيحيين تماماً .. والمسلمين ضعفاء لأنهم ليسوا مسلمين تماماً .

وهكذا ، أخيراً ، فإن الأفغاني يكرر دائماً الآية القرآنية التي تلخص الموقف بأكمله : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . ان النقطة هي هذه .. والبداية تكون من هنا .. والتغيير يبدأ بإعادة بناء المجتمع الإسلامي ، من المواطن إلى الحاكم . وإذا لم يكن الحاكم جزءاً من قوة المجتمع .. فيجب منعه من أن يكون علامة على ضعفه .

إن الأفغاني قد احتفظ في الواقع بمخزون من الشعور بالاحتقار لكل هؤلاء الحكام المسلمين الذين تعامل معهم .. ابتداء من السلطان عبد الحميد في الآستانة .. إلى الشاه ناصر الدين في طهران .. إلى الخديو توفيق في القاهرة . لقد أصبحوا مطية للنفوذ الأوربي بدل أن يكونوا مانعاً له . وهم يشيعون في الأمة روح التواكل والضعف والإنقسام والإستسلام بدل أن يعبثوا فيها روح المسؤولية والقوة والوحدة والديمقراطية والتضامن واليقظة .

إن هؤلاء الحكام هم خونة لحساب العدو ، ليس فقط لأنهم يتعاونون مع العدو .. ولكن أيضاً لأنهم يتهاونون معه . فالأفغاني يؤمن

بأنه : «لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس – وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس – بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها . ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر وعلى أي وجه انقلب . القادر على فكر يبديه أو تدبير يأتيه لتعطيل حركات الأعداء ، ثم يقصر فيه ، فهو الخائن . من لم يستطع عملاً وأمكنه أن يرشد العامل ، وتهاون في النصيحة ، فقد خان . من سوّف عمل اليوم إلى غد وتوانى في تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة» .

والأفغاني يؤمن أيضاً بأن المواطن يعوج باعوجاج حاكمه .. ويستقيم إذا هو استقام ، فلا ينطبق على الشرقيين قول «مثلما تكونوا يولى عليكم» .. بل حق فيهم قول «مثلما يولى عليكم .. تكونوا .»

وهو يضع للناس الأسئلة التي تستفز فيهم الرغبة في النهضة : «أنرضى ونحن المؤمنون ، وقد كانت لنا الكلمة العليا ، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته ؟» !

إن الأفغاني أحياناً يشكو «.. فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه ، وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة» .

وأحياناً ينبه الأفغاني إلى خطر الاتكال في كل مرة على أمجاد الماضي ، فالعرب « .. قد تركوا من بعدهم خلفاً من الأبناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آبائهم وأجدادهم ، وعن اعداد القوة هم غافلون ، وعن واجباتهم لاهون ، وان ذكرتهم لا يذكرون ، وان أيقظتهم لا يفيقون ، بل هم في غفلتهم راقدون ، وعلى القدر كل شيء يحيلون » .

إن الأفغاني يحفز « فالحرية تؤخذ ولا تعطى » .. ودائماً هو ذلك المتمرد الثوري الذي يضرب المثل ، ليس فقط بأقواله ، بل بحياته كلها . انه لن يصاب بالمرارة كما حدث لمحمد عبده .. وهو لن تعييه الجراح .. ولا يبح صوته أو يجف قلمه . انه يضع البذرة ، وهي ربما تثمر اليوم ، ولكنها بالتأكيد سوف تثمر غداً . وربما لا يكون الأفغاني نفسه موجوداً يوم يأتي « غداً » هذا .. ولكنه متأكد على كل حال من مجيئه بالضرورة ، فالقاعدة هي قوة المجتمع الإسلامي وليس ضعفه .. والمستقبل هو للنهضة وليس للتواكل .. والخلود هو في الصمود وليس في الإستكانة .. لأن « من أحب الحياة فليمت في سبيل حيـاة أمته » .. و« ما مات أحد في حب أمته إلا وأحيته » .

ولقد رأى الأفغاني بذرته تنتج ثورة في حياته ، وهي الثورة العرابية في مصر ، ربما لم تنجح الثورة في قلب ميزان القوى .. ولكنها بالتأكيد تعني أن على الثورة أن تصبح أكثر قوة في المرة التالية ، ولا تعني أن الثورة قد فشلت . انها بشرة خير للحيوية في جسد الأمة وعقلها . بشرة خير لمصر نفسها ، التي قضى فيها الأفغاني أخصب ثماني سنوات في حياته ، وجعلته يكرر دائماً أن « مصر أحب بلاد الله إليّ » .

وربما نجد في هذه المرحلة من حياة الأفغاني شيئاً من عدم الرضاء ، عندما يقول :

«وأي نفع لم يذكر انني ولدت سنة ١٢٥٤ هـ ، وعمرت أكثر من نصف عصر ، واضطررت لترك بلادي ، الأفغان ، مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو ان شئت قل نفيت منها ، ومن الآستانة ، ومن أكثر عواصم الأرض . كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرني ...»

عدم الرضاء؟ نعم . ولكن .. لا أسف . فالأفغاني من البداية لم يتوقع جائزة عاجلة وفورية لقضيته التي يعيش حياته من أجلها .

إنه الآن يعيش في «قفصه الذهبي» هذا بالآستانة .. حيث يوفر له السلطان كثيراً من الطعام ويحيطه بكثير من الجواسيس .. ولا شيء من الحرية .

٣٤

كان التاريخ هو ٩ مارس سنة ١٨٩٧ – تاريخ موت جمال الدين الأفغاني .

في اليوم التالي نشرت الصحف انه قد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق كما يقال عادة ، ودفنت جثته في قرافة «شيخللر مزارلغي» أي مقبرة المشايخ . ولكن «.. لما تحقق أتباع السلطان من موت جمال الدين ، صدرت الأوامر بضبط أوراقه وسائر تركته ، ثم أمر بدفنه ، فلم يحضر إلا عدد قليل من أصحابه ، وحمله أربعة من حمالي الآستانة على أكتافهم ، وسار بعض الشرطة لحراستهم ، ودفن كما يدفن الرجل العادي في بلاد آل عثمان ...» .

٣٥

١٩٢٠ . القاهرة .

الزعيم المصري سعد زغلول يقف معترضاً على الخطباء الذين يحيون

فيه تلك الثورة الشعبية الكبرى التي قادها في مصر وهزت الشرق كله من أقصاه إلى أقصاه . ثورة ١٩١٩ .

سعد زغلول : «لست خالق هذه النهضة ، كما قال بعض خطبائكم . لا أقول ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره . وإنما نهضتكم قديمة من عهد محمد علي وعرابي ، وللسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب ألا نكتمه ، لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف» .

٣٦

الآستانة . اكتشاف ضخم ومفاجئ .

إن الصحف تعلن للقراء خبراً خطيراً : لقد تم ، أخيراً أخيراً ، اكتشاف مقبرة جمال الدين الأفغاني .

الآن أصبح للرجل قبر معروف ، محاط بسور من الحديد ، مزين من الرخام مكتوب عليه اسم صاحب المقبرة .

وشيء آخر مكتوب : «أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم ... الخيّر الأمريكاني المستر شارلس كرين» .

وتاريخ الاكتشاف : سنة ١٩٢٦ .

٣٧

لكل إنسان قضية .. ولكل قضية جائزة .. ولكل جائزة ثمن .

٣٨

الأفغاني دفع الثمن .

٣٩

.... كاملاً

عبد الله النديم

القلمُ.. الذي أصبح لِسانًا !

أن تكون مصرياً معناه بالضرورة أن تكون عربياً . ان الوطنية لا تتجزأ .. والانتماء لا يقبل القسمة .

كان ممثلاً رديئاً !

ففي السياسة .. مثلما في أي ميدان آخر .. يضل بعض الناس طريقهم ، فبدلاً من أن يتقمصوا شخصيات ليست لهم على المسرح .. فإنهم يتقمصون أدواراً ليست لهم داخل غابة كبيرة ، إسمها السياسة الدولية .

والخديو اسماعيل ، الذي حكم مصر لست عشرة سنة (من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩) كان واحداً من هؤلاء !

رجل .. عاش منذ صغره يعشق المظاهر ، ويبحث عن التملق والإطراء ، ويسعى إلى السلطة ، ممثلاً في البداية دور الزاهد فيها .. ثم في النهاية كاشفاً دور المتهالك عليها .

رجل .. قال هو نفسه : «إنني لو لم أكن والياً على مصر .. لكان يجب أن أكون سمساراً» ! لا يهم أن يخدم من .. ولا يعمل لحساب من .. ولكن المهم أن يكون سمساراً . انه يفهم جيداً في الأثمان ، ويتعامل مع البشر على أساس أن لكل منهم ثمناً ، ويبعثر الأموال بلا حساب .. لأنه يحصل عليها بلا حساب .

رجل .. بدأ حكمه وفي ذهنه الدرس الخطأ من سياسة محمد علي .

فإذا كان محمد علي قد مات مجنوناً ، فهو يجب أن يعيش ثرياً . وإذا عاش محمد علي مهموماً .. فهو يجب أن يكون مستمتعاً . وإذا كان محمد علي قد سعى إلى الإستقلال عن طريق القوة .. فهو يجب أن يحصل عليه من خلال الرشوة . وإذا كان محمد علي قد أغضب أوربا .. فعليه هو أن يسترضيها . وإذا كان محمد علي قد تعامل مع أوربا بذراعه .. فعلى اسماعيل أن يتعامل معها بجيبه . انه سوف يرشو أور با بدلاً من الصمود أمامها . وهو سينحني لأطماعها بدلاً من مواجهتها .

ماذا تريد أوربا من مصر ؟

تريد التجارة معها ؟ اذن فلتنفتح جميع الأبواب أمام الأوربيين ، ولتنفتح مصر ، هكذا وبصريح العبارة ، أمام كل من يحمل جنسية أوربية .. يأتي إليها صعلوكاً .. فيصبح خلال شهور مليونيراً

أوربا تريد امتيازات استثنائية لرعاياها في مصر اذن فليكن هذا .. بما في ذلك إعفاء الأوربيين من الخضوع للقضاء المصري .. حتى لو قتلوا مصرياً .

أوربا تريد قناة السويس ؟ اذن فليعطهم ذلك ، وليعلن في اليوم التالي لتوليته « إنني قنالي أكثر من سلفي سعيد باشا .. بل أكثر من المسيو دليسبس نفسه » !

أوربا تريد النفوذ ؟ اذن فمصر في خدمتهم ، وهو أداتهم ، بل .. وبالتدريج .. سوف يكون هو أول من يطلب من أوربا التدخل في شؤون مصر الداخلية .. وسيجعل كبار الموظفين بالحكومة المصرية أوربيين ، بمرتبات ضخمة .. وبحيث ان ميزانية التعليم في مصر كلها لم تكن تساوي أكثر من مرتب اثني عشر موظفاً أوربياً !

وماذا يريد اسماعيل لمصر نفسها ؟

إنه يريد لها أن تتقمص دوراً ليس لها ، بمثل ما يتقمص هو دوراً ليس له . مصر يجب أن تصبح جزءاً من أوربا . لا شرق ، ولا إسلام ، ولا عروبة ، ولا شيء . ان أوربا هي الحضارة . ويجب أن تكون مصر جزءاً من هذه الحضارة .. ليس بأن تصنع حضارة .. فهذا شيء جاد أكبر من القدرة العقلية للخديو اسماعيل .. ولكن بتقليد مظاهر الحضارة . ليس بالتعليم .. ولا بالبناء .. ولا بالسلاح .. ولا بالصناعة .. ولا بالديمقراطية .. ولا بالتنمية .. فكل هذه أشياء تحتاج إلى تدبير وتخطيط وجهد حقيقي .. ولكن بانتحال تلك الرتوش الخارجية التي تجعل مصر تحصل على تصفيق السياح الأجانب ، وتجعل الخديو اسماعيل يحصل على صيحات الاعجاب من حكام أوربا !

في أوربا قصور ؟ .. اذن ، فليبن الخديو في مصر القصور .. قصر في الجزيرة ، بالقاهرة ، على غرار قصر الحمراء في الأندلس .. قصر في الجيزة .. قصر في الإسماعيلية .. قصر في القبة .. قصر آخر في الإسماعيلية لإيواء الضيوف الشخصيين للخديو ليلة افتتاح قناة السويس .. الخ ..

في أوربا حدائق وبساتين ؟ ومسارح ، وشوارع مضاءة ، ودور أوبرا ؟ سيقيم اسماعيل كل ذلك في مصر على وجه السرعة . انه حتى يضع نظاماً للإدارة على جميع شواطئ مصر ، لأن الشاطئ هو أول ما يراه السائح الأجنبي . انه سيقيم أيضاً مسرحاً لألعاب الفروسية ودار للأوبرا في القاهرة . ولكي يضمن اعجاب أوربا بهذه الخطوة .. فإنه سيدفع مليون فرنك للإنفاق على أوبرا يتم وضعها خصيصاً لهذه المناسبة — هي أوبرا عايدة .

في أوربا ديمقراطية وأحزاب ؟ اذن فليبادر هو بانشاء مجلس نيابي

صوري .. وليطلب من النواب في الجلسة الأولى أن يجلس بعضهم إلى اليمين ، وبعضهم إلى اليسار ، وبعضهم في الوسط .. ولتصبح هناك اذن ثلاثة أحزاب هي اليمين واليسار والوسط !

في أوربا أباطرة ؟ اذن فليتقمص هو لنفسه دور الامبراطور .. حتى ولو لم يكن كذلك . ولأنه ممثل بطبعه .. ومصاب بجنون العظمة .. فهو يريد أن يؤدي الدور بطريقة أكثر ابهاراً مما يتطلبه الواقع . يذهب إلى الآستانة فيدعو الإمبراطور العثماني وأعضاء حكومته إلى مائدة عشاء ضخمة ، كل أوانيها من الذهب وقد اشتراها من أوربا خصيصاً . في نهاية المأدبة يهدي كل الأواني للامبراطور . بعدها يستدير إلى وزراء الامبراطور فيرشوهم واحداً واحداً .. وكل هذا بالإضافة إلى عشرين مليون جنيه جزية مضاعفة سوف يدفعها إلى الإمبراطور العثماني لكي يمنحه لقب «الخديو» .. بدلاً من الوالي .. ولكي يجعل ولاية مصر لأبنائه .. وليس لأكبر أفراد أسرة محمد علي .

وهو يذهب إلى باريس ، فيعجبه أحد القصور . وعندما يخبره صاحب القصر بأن الثمن هو خمسة ملايين فرنك .. فإن اسماعيل يوقع فوراً على الشراء .. وفي اللحظة التالية يهدي القصر إلى الفتاة الجميلة .. ابنة صاحب القصر !

يقيم احتفالاً بافتتاح قناة السويس .. فيدعو ثلاثة آلاف شخص من أوربا للحضور والإقامة ، وحتى المرح ، على نفقة الحكومة المصرية .. ويضع تحت تصرفهم كل شيء ، ابتداء من البقشيش الذي يدفعوه ، إلى البواخر التي اشتراها خصيصاً ليستخدمونها في رحلاتهم في النيل . وحينما ينقل الجميع إلى الإسماعيلية ، فهناك مكان للاحتفال الرسمي ، بافتتاح القناة ، فانه يعد لهم - بخلاف الفنادق - ثماني قصور .. ويستورد

حمولة سفينة كاملة من الخمور ، أقلعت خصيصاً من بوردو في فرنسا . انه ينفق عليهم في ليلة واحدة مليوناً وأربعمائة ألف جينه ، أي ثلث ميزانية مصر كلها في سنة . احتفالات جعلت لويز كوليت ، الشاعرة الفرنسية عشيقة فلوبير ، تقول : يا الهي .. إنني لن أرى في حياتي مثل هذا مطلقاً .. هذه فعلاً ليالي ألف ليلة !

وعندما ينشأ خلاف بين اسماعيل وبين شركة قناة السويس ، بعد كل التضحيات التي قدمتها مصر في شق القناة ، فإن الخديو اسماعيل لا يجد سوى امبراطور فرنسا .. لكي يختاره حكماً بينه وبين الشركة الفرنسية . إن الإمبراطور هو صديق شخصي لاسماعيل .. وهو فضلاً عن ذلك رجل أوربي متحضر .. ثم ان القضية واضحة : ان مصر تريد أن تسترد ١٥٠ ألف فدان في الصحراء ، كانت قد تبرعت بها من قبل لشركة قناة السويس .

هكذا كان اسماعيل واثقاً تماماً من صديقه الامبراطور الفرنسي «المتحضر» بحيث انه أعلن مقدماً التزامه بحكمه . والنتيجة : حكم الامبراطور الفرنسي «المتحضر» على مصر بأن تدفع لشركة قناة السويس الفرنسية أربعة وثمانين مليون فرنك .. تعويضاً عن أرض مصرية لم تدفع فيها الشركة ، ولا أنفقت عليها ، مليماً واحداً !

إن أوربا لم يكفها رطل اللحم الذي اقتطعته من جسد مصر بالحصول على امتياز شق قناة السويس .. ولكن أصبح يلزمها مزيد من الدماء .

مع ذلك .. فالخديو اسماعيل لا يعنيه سوى شيء آخر ، رآه أكثر أهمية ، هو : رضاء أوربا عنه .

هل رضيت أوربا عنه ؟

في الواقع انها رضيت تماماً . لقد فتحت له القصور الملكية في

فلورنسا وفيينا وبرلين وباريس ولندن . لقد اسمته صحف فرنسا : نابليون الشرق . وأسمته صحف انجلترا : أكبر أصدقائنا . بل ان جريدة «التايمز» المشهورة كتبت مقالاً رئيسياً ، عندما زار اسماعيل لندن في سنة ١٨٦٩ ، تطلب فيه من الحكومة البريطانية الحرص على « إمتاع ضيفنا الكبير » ! وملكة بريطانيا فيكتوريا ، منحت الوسام الأعظم لاسماعيل في سنة ١٨٦٧ ، ثم وسام نجمة الهند في السنة التالية ، وفي السنة التالية أعطته قصر باكنجهام مقراً لضيافته !

والخديو ، مجنون العظمة ، أصبح ينتشي طرباً كلما نشرت له صورة أو حديث في صحيفة أوربية .. بعد أن عرفت أوربا نقطة ضعفه !

وسوف يبقى علينا أن ننتظر سنوات قليلة .. قبل أن نعرف على وجه الدقة نتيجة سياسة الإنحناء لأوربا التي مارسها اسماعيل .. ومظاهر جنون العظمة التي كانت تغذيها فيه .

ولكن الآن .. ماذا عن مصر نفسها ؟

إن مصر لا تعني حاكمها ، المصاب بجنون العظمة ، إلا بالقدر الذي يجعلها بقرة حلوباً تغذي انفصاله عن واقعه لكي يصبح «جزءاً من أوربا» !

لقد بدأ اسماعيل يقترض من أوربا ، قرضاً بعد قرض بعد قرض ، وبفوائد باهظة ، إلى أن أصبحت ميزانية مصر كلها لا تكاد تكفي لمجرد سداد فوائد الديون ! ومن المهم هنا أن نتذكر أن في مقدمة الذين شجعوه على الإقتراض في كل مرة ، كان هو وزير خارجيته نوبار باشا . من المهم أن نتذكر هذا الاسم .. لأن نوبار هذا سيكون أول من سيبيع اسماعيل نفسه .. لأوربا !

إن القروض تتوالى اذن .. وكلما زادت الميزانية إفلاساً .. كلما فرض اسماعيل مزيداً من الضرائب .

إن الفلاحين بدأوا ينزلون عن أراضيهم .. ويهربون منها فراراً من الضرائب .

والموظفون بدأوا يحصلون على مرتباتهم سلعاً عينية .. ثم في النهاية توقف صرف مرتباتهم تماماً ، ولمدة ١٨ شهراً متواصلة .

والريف المصري ، الذي يغذي مصر كلها ، بدأ يعاني من المجاعة .. بحيث انه في سنة واحدة ، هي سنة ١٨٧٨ ، مات عشرة آلاف مواطن في صعيد مصر .. جوعاً .

والصناعات الوطنية بدأت تغلق أبوابها أمام الواردات القادمة من أوربا .. بحيث أصبح «.. التجار الوطنيون في غاية الفقر والفاقه ، بل أصبحوا عملاء للأجانب في بيع المصنوعات الأجنبية» .

وبصفة عامة ، على حد تعبير القنصل الأمريكي في مصر وقتها ، فإن «الخزينة خاوية الوفاض ، كما ان الموظفين الوطنيين الذين لم يتقاضوا مرتباتهم ، إلى جانب أفراد الجيش والدائنين المحليين ، كل هؤلاء يقاسون ويصيحون كما كانوا يفعلون في الماضي ، إلا أن الجيش الحافل من الموظفين الأوربيين هم الذين يشعرون بالرضا نظراً لأنهم يتقاضون مرتباتهم الضخمة كاملة غير منقوصة . والحقيقة انه إذا لم يكن هناك أسباب للشكوى ضد هذا النظام الجديد سوى وجود هذا العدد من الأجانب الذين يكادون لا يعملون ، ويتقاضون مثل هذه المرتبات ، بينما لم تدفع متأخرات الموظفين المصريين وكل أفراد الجيش على اختلاف رواتبهم لعدة شهور ، فإن هذا السبب وحده كفيل بتعليل هذا السخط العام الذي يزداد ويرتفع صوته كل يوم» .

هذا ما سجله وافد أجنبي يعيش في مصر .

ولكن .. ماذا يرى المصريون أنفسهم ؟

إن قلماً من بينهم سوف يكتب فيما بعد عن الامتيازات التي منحها اسماعيل للأفاقين الأجانب ، وهي التي «قدمت الأجنبي عن الوطني في كل أموره ، وحرمت التعرض له بشيء من الجزاء وان أساء ، وجعلته يعاقب الوطني وان كان محقاً» .

وقلما من بينهم سوف يكتب عن اسماعيل نفسه انه غارق في لذاته ، سائر وراء شهواته «.. لا يرفع إلا الأراذل ، ولا يقرب إلا الأسافل . ثم حمله جشعه على زيادة الطمع ، فأرسل إلى الأنحاء كل صخري الفؤاد وحشي الأخلاق وفي الأصل رديء المنبت سيئ التربية خبيث الطبع ، لا يرعى حرمة للإنسانية ولا حقاً للدين ولا ذمة للأخلاق . أرسل عكوّش وعمر لطفي وسلطان ، لإكراه الأهالي على تسليم الأطيان ، فاغتصبوا له تفاتيش الصعيد ... ثم استعمل حسن راسم على الأقاليم البحرية ، ليتم الخراب ويعمم الرزية ، فاستخلصوا له تفاتيش الوجه البحري ... وكان العربون السلب ، وبقية الثمن الضرب ، ثم أخذ في بناء السرايات وحشوها بالمحسنات ، واخترع من الأقلام ما لا تتصوره الأوهام . وكانت نحو ستة وسبعين جنساً تحتها أنواع كثيرة لا تدع صفيرة من المظالم ولا كبيرة . وأخذ يبيع الرتب بيع القماش إلى الأوغاد والأوباش ، ويستعملهم في الأحكام ، وهم لا يعرفون ما خطت الأقلام . كل هذا ومعدة ظلمه تهضم الحديد وجهنم أطماعه تقول هل من مزيد ...»

وجريدة «التايمز» البريطانية ، سوف تنقل فيما بعد مقالاً نارياً لنفس هذا القلم المصري ، بعنوان «الغريب في وطنه» يقول فيه : «تخيل نفسك عائداً إلى وطنك بعد غيبة سبع سنوات ، وحين تصل إلى الاسكندرية سوف تجد قائد الميناء بحاراً انجليزياً . فإذا ما

وصلت حقائبك إلى الجمارك فستجد مديره انجليزياً كان موظفاً سابقاً بمصلحة البريد . فإذا ما أردت أن تسافر إلى القاهرة بالسكة الحديد فسوف تجد هذا المرفق يدار بواسطة موظفين إنجليز وهنود وفرنسيين . فإذا شئت أن ترسل تلغرافاً إلى أهلك تنبئهم بوصولك فستجد المشرف على التلغرافات موظفاً انجليزياً أيضاً . وإذا شئت أن ترسل لأصدقائك خطابات تخبرهم بقدومك فستجد مصلحة البريد مرؤوسة بموظف سابق في البريد الإنجليزي . أما إذا رغبت في أن تذهب إلى الصعيد فعليك أن تركب البواخر التي احتكرتها شركة انجليزية . فإذا ما ذهبت إلى الريف فسوف تجد كثيراً من الأهل والأصدقاء قد ضاعت أموالهم وأرضهم وذهبت إلى أيدي المرابين الإنجليز والإيطاليين واليونانيين . فإذا سألت لماذا بقي المواطنون على جهلهم أجابك واقع الحال أن الدين العام قد أتى على ميزانية الدولة ، فلم يبق شيء منها لبناء المدارس أو لشق الترع . وأستطيع أن أستمر في ضرب الأمثلة التي لا تحصى ، ولكني أعطيتك من الأسباب ما يكفيك أيها المصري لتعرف أنك أجنبي في بلادك . فإذا كنت حقاً تحب وطنك فيجب أن تؤيد الحركة الوطنية التي قامت لتحصل لك على حقوقك كإنسان ، ومن ثم تحس أن وطنك ملك لك أنت» .

هذا هو ما يراه المصريون أمامهم .. ولكن التعبير عنه علناً سوف يحتاج إلى بعض الوقت . انهم يتحدثون به إلى بعضهم البعض ، والذي سينطق به سيكون اسمه عبد الله النديم . ولكن ليس بعد . فالآن .. أصبح على المصريين أن يجدوا لساناً ينطق باسمهم .

ومن هنا بالضبط ، سوف يبدأ شريط الأحداث .

١٦ أبريل .

. ١٨٧٨

القاهرة . قصر عابدين .

دخل القنصل الفرنسي العام ، وبعده بدقائق لحق به القنصل الإنجليزي العام ، في مصر ، لمقابلة الخديو اسماعيل . وبغير مجاملات أو مراوغات بدأ حديث العمل .

قال القنصل الفرنسي : في الشهر القادم يحل موعد سداد كوبونات شهر مايو بالنسبة لديون الحكومة المصرية . وحكومتي تتوقع أن يتم تسديد القيمة في الموعد المقرر . وقد جئت للتأكد من أن هذا سيحدث .. كما ان زميلي القنصل الإنجليزي قد جاء بتعليمات مماثلة من حكومته .

استمع الخديو اسماعيل ، بقامته القصيرة ، ومنكبيه العريضين ، وجثته الضخمة ، وجفونه المرتخية ، وعينيه اللتين تبدوان وكأنهما نصف مغلقتين ، ولحيته القصيرة بنية اللون ، وأذنيه الكبيرتين ، وطربوشه الأحمر ومعطفه «الاستامبولي» ذو الصف الواحد . الآن انفتحت عيناه وتحرك لسانه .

قال الخديو : ولكن لدي عجز قدره ستة ملايين دولار .. وقد فعلت كل ما في وسعي حتى الآن .. وفيضان النيل منخفض هذه السنة ، والمحاصيل سوف تكون أقل ، وحال الناس لا تسمح بفرض مزيد من الضرائب .. وكل ما أطلبه هو مهلة من الوقت ..

كانت إجابة القنصل الفرنسي قصيرة وحاسمة : ينبغي أن تدفع ..

وأضاف القنصل البريطاني : وتدفع ، في اليوم الأول من مايو ..

قال الخديو متوسلاً : إن ما أطلبه هو مهلة للدفع .. وليس لعدم الدفع ..

رد القنصل البريطاني : لا مهلة ..

لقد بدا التوتر واضحاً على وجه الخديو الذي حانت لحظته لمواجهة نتيجة بذخه .. وقال متمتماً ، في محاولة أخيرة لاستعطاف الرجلين : إنني سوف أبذل كل ما في وسعي للدفع في الموعد المحدد .. وأعدكم بأنني سوف أفعل ذلك مهما تكلف الناس من جراء هذا الأمر .. ولكن .. ولكنني لا أتحمل من الآن مسؤولية النتائج التي سوف تترتب على ذلك .

نهض القنصلان ، وأحدهما يقول لا مبالياً : لقد جئنا لإبلاغك بتعليمات حكومتينا .. وليس للتفاوض أو المناقشة حول النتائج .

هكذا بقي على الخديو اسماعيل اذن أن يفكر في وسيلة جديدة لامتصاص دم الشعب تسديداً لقروض لم يكن الشعب مسؤولاً عنها . إنه حتى الآن استنفد جميع الوسائل لاعتصار المواطن المصري .

لقد فصل الموظفين ، وخفض عدد أفراد الجيش ، وضاعف من الضرائب واستولى على الأموال .. وفي محاولات لاهثة لمجاراة تلك الفوائد الباهظة على القروض التي عقدها – قروض وصلت قيمتها إلى ٩٨،٢٧٦,٦٦٠ مليون جينه استرليني ، في بلد استلمها اسماعيل وميزانيتها السنوية خمسة ملايين جنيه .

ولم يكتف اسماعيل بذلك ، وإنما ابتكر وسائل جديدة لمزيد من الإعتصار المدمر للفلاح المصري ، الذي يشكل الأغلبية الساحقة في هذا البلد .

في البداية ، ضاعف الضرائب على الأراضي لمدة ست سنوات مقابل تخفيضها إلى النصف بعد ذلك ، وقبل أن تنتظم الحصيلة ، عقد قرضاً جديداً قيمته ١٢ مليون جنيه !

قبلها باع نصيب مصر في أسهم قناة السويس لانجلترا ، وهي الفرصة

الذهبية التي اقتنصها ديزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني اليهودي ، ودبر أموالها عن طريق بنك يهودي آخر ، هو بنك روتشيلد .

بعدها رهن ممتلكاته الخاصة ، وهي ٩٥٠ ألف فدان ، أي خمس الأراضي المنزرعة في مصر حينئذ .

بعدها عقد قرضاً جديداً بضمان جزء من الأراضي (ومرة أخرى ، يكون ممول القرض هو بنك روتشيلد) .

بعدها قرر فرض ضرائب لأول مرة على الأراضي الصحراوية المستصلحة حديثاً .

والآن .. برغم انخفاض مياه النيل ، وبرغم المجاعة في الوجه القبلي ، لجأ الخديو الأحمق إلى ابتكار جديد ، وهو أن يبيع إلى الدائنين الأوربيين محصول القمح الذي ما زال مزروعاً في الحقول ، ولم يجمع بعد !!

برغم هذا كله .. ظل هناك عجز قدره مائة وعشرون ألف دولار .

وكان الشيء المروع في الموضوع كله ، هو أن الفلاح كان يرى جنود الخديو يستولون على قمحه من الحقول بالقوة ، في الوقت الذي تتضور فيه أسرته جوعاً .. أو ربما في اللحظة التي توفي فيها أبوه أو ابنه هذا الصباح بسبب المجاعة .

وأصبح المصري غريباً ، جائعاً ، مطحوناً ، في بلده .

والأسوأ من ذلك أن الخديو الأحمق قد فتح الباب على مصراعيه أمام أوربا .

فعقب توقف اسماعيل عن الدفع ، وإعلان افلاس مصر في ٨ أبريل سنة ١٨٧٦ ، تشكل صندوق للدين ، من الدول الأوربية .

ثم أقيم نظام للمراقبة الثنائية ، من فرنسا وانجلترا ، لمراقبة ايرادات ومصروفات الخزينة المصرية .

وأخيراً ، عين الخديو وزيرين أجنبيين في الحكومة . وهكذا ، اعتباراً من ٤ أبريل سنة ١٨٧٨ ، أصبح وزير الأشغال في الحكومة فرنسياً .. ووزير المالية انجليزياً .. والحكومة نفسها برئاسة نوبار باشا .. وهي الحكومة التي ستظل في السلطة حتى ١٩ فبراير سنة ١٨٧٩ .

القاهرة .
٦ أبريل .
١٨٧٩ .

الخديو اسماعيل يقوم بانقلاب ! لقد بدأ الشعب يستاء ويغلي من التدخل الأوربي في شؤونه الداخلية ، ومن الاعتصار الجديد الذي بدأ نوبار يمارسه ضد الشعب لحساب الوزيرين الأوربيين . إن البلد مفلس ، والخزانة خاوية ، والأمر يتعلق بتوفير كل مليم لتسديد أقساط الديون . ومع ذلك فإن نوبار يطلب من الوزير الإنجليزي استدعاء ثلاثين ضابطاً انجليزياً من الهند ، بمرتبات ضخمة ، وعلى نفقة الحكومة المصرية .. بهدف حصر الممتلكات الخديوية ! بل ان الوزارة التي جاءت لإصلاح الديون بدأت عملها باستدانة قرض جديد قيمته ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه ! في النهاية قام بعض الضباط المصريين بمظاهرة إلى وزارة المالية ، ضد نوبار والوزير الانجليزي . وعندما استنجد الاثنان بالخديو ، وذهب فعلا الى مكان الحادث ، خلع أحد الضباط جوربه البالي ولوح به في وجه الخديو قائلا : أهذا جورب يلبسه ضابط ؟

لقد بدأ الشعب يعلن سخطه ، وهكذا اضطر الخديو أخيراً الى أن يصدر أمراً بعزل النظارة المختلطة التي يرأسها نوبار .

وهنا وقعت ثلاثة أشياء غريبة :

فأولا – بادر نوبار نوبار الى السفر الى أوربا لكي يدير من هناك حرباً صحفية ودبلوماسية ضد اسماعيل . انه نفس نوبار الذي أشبع الخديو نفاقاً وتملقاً طوال سنوات سابقة ، هو الآن الذي يكيل له التهم ويبادر بتعريته أمام دائنيه الأوربيين . نفس نوبار الذي ساهم من قبل في إبرام الديون ، وشجع اسماعيل عليها ، هو الذي يحمله الآن مسؤولية عدم تسديدها .

ماذا جرى ؟

ألم يكن هذا من رجال اسماعيل ؟ ألم يكن من أقرب المقربين اليه ؟

نعم . ولكن النفاق هو الذي قربه اليه . والآن .. حينما أصبح هناك ولاءان أمام نوبار ، ولاء لاسماعيل .. وولاء للقوى الأوربية ، فإن نوبار يختار الأقوى . المنافق دائماً يختار الأقوى . فالآن فقط يتحدث نوبار في أوربا عن استبداد اسماعيل وعدم صلاحيته للحكم . الآن فقط يطالب بخلع اسماعيل . (وسوف يتبين فيما بعد أن نوبار كان يحصل من البداية على مرتب ثابت من المخابرات البريطانية !) .

وشيء آخر : ان صحف أوربا التي أشبعت الخديو مدحاً من قبل .. تبادر الآن ، هي الأخرى ، الى المطالبة بدمه ! لقد عمل اسماعيل على أن تصبح جزءاً من أوربا . لم تصبح مصر جزءاً من أوربا . هو فقط الذي أصبح حذاءً لأوربا . إن الأحذية تبلى .. ولا بد من اللحظة التي تستبدل فيها بأحذية جديدة .

هذا هو ــ الآن ــ رأي أوربا .

وشيء ثالث : داخل مصر في هذه المرة .

إن الشعب المصري ، الذي تعامل معه اسماعيل على هذا النحو ،

وكان جاحداً به على هذه الدرجة .. هو الذي يتحرك الآن .

لقد أعد كبراء البلاد وأعيانها مشروعاً للميزانية المصرية ، عرف باسم « اللائحة الوطنية » .. وقّع عليه ست وستون من الباشوات ، وتسعون من العلماء والأعيان .

إن الموقعين على تلك اللائحة يتعهدون ، مع الخديو ، بتسديد أقساط الديون بتمامها وقت استحقاقها ، بضمانة أموالهم وأملاكهم . فقط ، فقط ، على الخديو أن يوقف هـذا التدخل الأجنبي السافر في شؤون مصر .. ويشكل حكومة وطنية تكون مسؤولة أمام الشعب .

وبمجرد أن تابع مندوبا انجلترا وفرنسا تلك التطورات .. أرسلت انجلترا وفرنسا مذكرة مشتركة الى الخديو تهددانه فيها بأن « الدولتين تلفتان نظر الخديو الى ما يتعرض له من العواقب الوخيمة ، اذا لم يعمل على تنفيذ الاتفاقات الأخيرة تنفيذاً دقيقاً ، ويمتنع عن عرقلة سير الحكومة الحاضرة » .

ولكن الخديو مضطر الآن الى التحرك في الاتجاه الوحيد الذي تفاداه من قبل . لقد قرر عزل النظارة المختلطة ، وتشكيل نظارة وطنية برئاسة شريف باشا .. تكون مسؤولة أمام مجلس النواب .. بعد توسيع اختصاصه ليكون مماثلاً في سلطته للمجالس النيابية في أوربا . وهكذا ، صدر قرار تشكيل الوزارة الجديدة في ٦ أبريل سنة ١٨٧٩ .

الاسكندرية .
١٨ أبريل .
١٨٧٩

هذا اجتماع تأسيسي لتشكيل جمعية « تسعى فيما يعود على الوطن

وأهله بالمنفعة الحقيقية » .. وتكون لها فروع في القطر كله . وهدفها ثقافي واجتماعي . اجتماع لم يحضره سوى أحد عشر شخصاً من أهالي الاسكندرية .. والذي دعا اليه رجل اسمه عبدالله النديم .. والأسم الذي تم اختياره للجمعية هو « الجمعية الخيرية الاسلامية » .. والوسيلة التي ستسلكها هي نشر التعليم بين أبناء الأمة ، لينشأ جيل جديد متعلم وقادر على إحداث نهضة بمصر .. ومن ثم ، فخلال أسابيع سوف تفتتح الجمعية مدرستها الأولى بالاسكندرية .

ولكن نشر التعليم لا يتم بين يوم وليلة .. فهل تملك مصر وقتاً لمزيد من الانتظار ؟

سؤال أجاب عليه عبد الله النديم ، الذي انتخب نائباً لرئيس هذه الجمعية الجديدة . إن هناك هدفاً عاجلاً للجمعية ، هو إيقاظ الرأي العام ، وإيقاظ الأفكار الخامدة ، والاتجاه الى الحرية بإنشاء الجمعيات والمحافل الخطابية بالقطر كله .

إن النديم لم يقل في دعوته لفكرته الجديدة ، أن للجمعية علاقة بالسياسة ، ومع ذلك ، فعندما افتتحت أول مدرسة أقامتها الجمعية ، وكان ذلك في ٨ يونيو سنة ١٨٧٩ ، فإنه يخطب في الحاضرين معلناً أن « هذا الاحتفال سيكون تاريخاً لبعث الأرواح العربية ونشأة الغيرة الشرقية » .

لم يكن المعنى خافياً على المستمعين ، وقد تأكد ذلك عندما نشرت الصحف في اليوم التالي خطاب النديم في صفحاتها الأولى ، مسجلة أنه « أول خطيب مصري وقف بين الحكام الظلاّم .. وفتح فاه بالكلام في مكان عام » .

وتساءل واحد من الناس : من هو الرجل الجريء الذي يرفع

صوته هكذا ، في وقت اشتد فيه ظلم الوالي ، وانتشر فيه جواسيسه ؟

ويرد آخر : إنه عبد الله النديم . ألا تذكره ؟ أبوه هو مصباح الإدريسي ، الخباز بحي المنشية ، وهو كان يعمل في مخبز أبيه .. إلى أن ألحقه بمدرسة الجامع الأنور ـ الذي هو كما تعلم « أزهر » الاسكندرية . لقد أراده أبوه شيخاً أزهرياً ، ولكنه بعد سنوات بدأ يتعاطى الأدب ويعاشر الأدباتية ، فغضب أبوه عليه وطرده من البيت .

تساءل الأول : أليس معه الحق ؟ أليس الأدباتية من أهل البطالة ؟

رد الثاني : نعم .. ولكن هكذا كان ميل الفتى ..

– وأين كان عبد الله النديم طوال هذه المدة ؟

– أي مدة ؟ إنه الآن في الرابعة والثلاثين من عمره ، وهو قد « هاجر » إلى القاهرة وعمره سبع عشرة سنة ، وتعلم فن التلغراف ، ثم عين في مكتب التلغراف بمدينة بنها ، ثم عمل في قصر خوشيار هانم أفندي أم الخديو اسماعيل ، وعاشر هناك كبار القوم ، واختلط بشيخ ثائر اسمه جمال الدين الأفغاني ، وتردد على الأزهر ، إلى أن غضب عليه كبير الأغوات في قصر خوشيار هانم أفندي .. فرحل وتجول .. وصدمه الدهر ولطمه .. وانتقل إلى المنصورة وطنطا .. واختلط بالأعيان والسفهاء .. واستعان على الفقر بالصبر .. وعلى الظلم بفصاحة اللسان ..

– ومن أين لك بكل هذه المعرفة به ؟

– لأني أقرأ له في صحيفتي « مصر » .. و« التجارة » .. اللتين يكتب فيهما

– ولكني لم أر له توقيعاً في الجريدتين ..

– لأن صاحبهما ورئيس تحريرهما أديب اسحق يضن عليه بتوقيع اسمه .. حتى يتخيل القراء أن اسحق ، وليس عبد الله النديم ، هو كاتبها ..

– يبدو أنك متيم به ..

– نعم ، لأنه « .. إن دخل مجلساً فبنزاهة ، وإن أبدى بدافع فعن بداهة ، وإن نقل فعن صحيح ، وإن أسند فإلى صريح ، وإن سأل أوجز ، وإن سئل أعجز ، وإن أنشد أطرب ، وإن مدح أطنب ، وإن وعظ سحر ، وإن تغزل خلب القلوب ... يقطف زهر كل فن ويقتحم لجة كل فن ، ويردف المسائل بإنشاء الرسائل بذهب سائل ... ويستكثر الاخوان ... حتى كثرت في الناس أخلاّه ، ولم يكن عن أخ لاه » ..

– ولكنه الآن يخطب في الناس جداً .. ويكلمهم في مسائل خطيرة ..

– نعم ، نعم .. ولكنك لم تره حينما يمزح .. لقد كنت في مولد سيدي أحمد البدوي بطنطا مرة قبل سنتين .. وكان عبد الله النديم هناك جالساً مع عدد من صحابه على قهوة « الصبّاغ » .. فوقف أمامه أحد الأدباتية الجائلين بأزجالهم كوسيلة للإسترزاق .. وقال له :

إنعـــم بقرشك يـــا جندي وإلا أكسنـــا آمال يا فندي
إلا أنـــا وحيـــاتك عنـــدي بقي لي شهرين طوال جيعان

وعلى الفور رد عليه عبد الله النديم مرتجلاً :

أما الفلوس أنا ما ديشي وأنت تقولّـي ما امشيشي
يـــطـــلـــع عـــلي حشيشي أقوم أملص لـــك لـــودان

وهكذا استمر السجال بين النديم والأدباتي لأكثر من ساعة .

ضحك الأول ، وقال متسائلاً : ولكن .. ألا ترى أن عبد الله النديم يكون بذلك قد أصبح في مستوى الأدباتي ؟

رد الثاني : ربما نعم .. وربما لا .. ولكن المؤكد أن الرغبة في المزاح كانت هي دافع النديم .. ثم أن النديم إبن بلد .. وتلك هي خفة روح أولاد البلد ..

نعم . النديم إبن بلد !

تلك هي جوهر شخصية عبد الله النديم .

كريم مع فقره ، سريع البديهة مع ضيق حاله ، ذكي برغم ظروفه ، مخلص لتراب بلده مع أنه كالغريب فيها ، عاشق لمصر بحلوها ومرها . مقبل على الحياة برغم قسوتها عليه . شجاع أمام أخطار أكبر منه . ضاحك برغم مرارة الواقع . متفتح برغم ضعف تعليمه . لمّاح وسريع الادراك لجوهر الأشياء أمامه . يدرك بالغريزة ما لا تسعفه به المعرفة . إحساسه بالانتماء يجري في دمه . الانتماء لمعنىً ، وقضية ، وحياة ، وبلد .

كانت عظمة عبد الله النديم ، في رأي أحمد أمين ، هي في ذكائه وقوة لسانه . وكان في رأي أحمد باشا تيمور «شهي الحديث ، حلو الفكاهة ، اذا أوجز ود المحدّث أنه لم يوجز ... أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا » .

ويقول عنه أحمد بهاء الدين إن « عبد الله النديم وحده تقريباً هو الذي كان يوجه الخطاب إلى أبناء طبقته .. الذين لعبوا في الطين أطفالاً وعاشوا بقية أيامهم يكدحون » .

وعبد الله النديم يقول عن نفسه فيما بعد : « أخذت عن العلماء ،

وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومم يتألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين ، وألممت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين . وصاحبت جمّاً من أفاضل الشرقيين المتعلمين في الغرب ، وعرفت كثيراً من الغربيين ، ورأيت أفكارهم ـ عالية وسافلة ـ فيما يختص بالشرقيين ، والغاية المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة . وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة ـ واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كساني نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا ، وتوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء . فصورتي تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

كان عبد الله النديم إذن شخصاً منتمياً .

لقد خرج من الحارة ولم يتمرد عليها أو يتنكر لها ∴ واختلط بكبار العقول وصغار النفوس وتعلم من كليهما . وحينما عمل في القصر العالي ، حيث تسكن والدة الخديو اسماعيل ، وحيث الضخامة والفخامة ، والحشم والخدم والموسيقى والطرب والثراء والاسراف .. فإنه كان « ابن بلد » ينظر من ثقب الباب إلى وجه دميم لبلده . إبن

بلد جاء من الحارة ، في حي شعبي بالاسكندرية ، لكي يرى الوجه الآخر لمن يحكمون مصر .

من الحارة تعلم الحقيقة .. ومن القصور عرف الأكاذيب . إن الحارة جعلته يختزن آلام الناس .. والقصور جعلته يشاهد لا مبالاة الحكام ولهوهم .

لقد كان من الممكن أن يكون مجرد خبّاز ، أو مجرد أدباتي يشتري بأزجاله لقمة العيش . ولكنه لم يصبح هذا ولا ذاك .. لأن الموهبة في داخله ، والظروف أمامه ، دفعته دفعاً إلى ما هو مقدر له .. ثم الشرارة التي جاءت بعد ذلك تصل بين موهبته والقضية العامة لبلده .

جاءته الشرارة أولاً من أستاذه الأزهري في الجامع الأنور بالاسكندرية. أستاذ كان يشجع فيه ميله إلى الأدب .

وجاءته ثانياً من معرفته بجمال الدين الأفغاني . الرجل الذي جاء إلى مصر ثائراً ، وأنجب فيها جيلاً من الثوار ، النديم واحد منهم ، وشكّل أخيراً جمعية « الحزب الوطني الحر » من أجل الدعوة إلى الاصلاح والوقوف في وجه أوربا . حزب كان النديم أحد أعضائه ، ويوزع منشوراته ، إلى أن تشتت الحزب بنفي جمال الدين الأفغاني .

وجاءته الشرارة ثالثاً من رحلته الاضطرارية الأولى بين ربوع مصر وقراها . في تلك الرحلة جرب أن يكون مالكاً لدكان في المنصورة ، فأفلس . إن الفنان لا يصلح تاجراً . وجرب أن يكون أخيراً معلماً لإبن العمدة في قرية « بدواي » لكي يعيش .. فتمرد . الفنان لا يعيش ليأكل .. ولكنه يأكل ليعيش .

رأى في جولته المعنى البسيط للسياسة حينما تكون شيئاً جاداً ، والسياسة حينما تكون شيئاً فاسداً . فإذا كانت السياسة هي الحياة

اليومية للناس الذين يشكلون الأغلبية ، فإن الفقر والظلم وتعسف السلطة واستبداد الحاكم هو جزء من الحياة اليومية لكل مصري في تلك الفترة . أما إذا كانت السياسة هي الثراء والبذخ واللهو .. فقد رأى نموذجاً لهذا كله في القصر العالي بالقاهرة . إن الفجوة بين الاثنين عميقة .. والبحر مضطرب .. ومصر نفسها في حالة مخاض .

وموقف إبن البلد هو الذي سيحدد بالضبط ما سوف يسفر عنه هذا المخاض .

وقد عاد النديم إلى الاسكندرية لكي يجرفه بالتدريج نهر الغليان في البلد كله . إنه في البداية ينضم إلى جمعية سرية تسمى « مصر الفتاة » تشكلت لممارسة العمل السري ضد التدخل الأجنبي ، والخديو ، وهذا الفساد الذي استشرى في مصر . بعد قليل اكتشف النديم أن العمل السري ليس ميدانه ، وهو نفسه ليس فارسه . إن لديه قلماً ولساناً .. وكلاهما لا يستطيع أن يعمل سراً .

القاهرة .

٤ يونيو .

١٨٧٩ .

شيء غريب يتحدث عنه الناس : اللائحة .. اللائحة .. !

إن الخديو الذي استعان بكل الأطراف ضد الشعب من قبل .. مضطر الآن إلى اللجوء إلى الشعب ، كحصن أخير يحتمي به ضد أوربا . ولكن الشعب له مطالب . والشعب يريد أن يوضح الأمور والمسؤوليات .

وهكذا رأينا من قبل أن الخديو اضطر إلى إقالة وزارة نوبار بناءً على رغبة شعبية ، واستبعاد الوزيرين الأجنبيين من الحكومة

استجابة لرغبة شعبية ، وتشكيل حكومة وطنية بناءً على رغبة شعبية .

والآن بدأت الحكومة الوطنية في تنفيذ رغبات الشعب .

إن الخديو اسماعيل ألحق بمصر الخراب في ظل حكم مطلق . الآن ينتهي الحكم المطلق . وهو استدان من أوربا بلا حساب . والآن لا بد من الحساب . وهو كان يختار نوبار وغير نوبار ليرأس حكومة غير مسؤولة إلا أمامه . الآن يجب أن تكون الحكومة مسؤولة أمام الشعب .

هكذا أصدرت الحكومة الوطنية قانوناً للانتخاب

ثم نشرت في ٤ يونيو لائحة مجلس شورى النواب . إن المجلس الذي أنشأه الخديو من قبل كمجرد واجهة مزيفة .. يجب أن يتحول الآن إلى برلمان حقيقي ، بسلطات حقيقية .

هكذا صدرت اللائحة الجديدة ، محددة عدد النواب ، ومقررة لأول مرة الحصانة البرلمانية للأعضاء المنتخبين .. ومسؤولية الحكومة أمام المجلس .

لقد صدرت اللائحة لكي تصبح أول دستور حقيقي لمصر .

وعلى الفور أدركت المصالح الأوربية خطورة التطور الجديد في مصر عليها . إن أوربا اعتصرت مصر في غياب شعبها ، والآن هي مهددة بتوقف هذا الأعتصار . مهددة بالتعامل مع شعب بدأ يفيق إلى الأخطار المحيطة به .

هكذا بادرت إنجلترا وفرنسا ، خلال أربعة أيام فقط من اعلان « اللائحة » .. أو الدستور .. إلى تقديم احتجاج شديد اللهجة ضد هذا التطور الجديد الحاسم .

ولكن الاحتجاج لم يكن كافياً في هذه المرة !

إن الخديو إسماعيل قد أدّى دور السمسار لحساب أوربا ضد مصالح مصر .. والآن لم تعد أوربا في حاجة إلى وسيط . الآن يجب التخلص من السمسار نفسه !

هكذا طلب قنصلا انجلترا وفرنسا الاجتماع بإسماعيل يوم ١٦ يونيو لتقديم مذكرة مشتركة بمطالب الحكومتين البريطانية والفرنسية . وبمجرد أن بدأ الخديو يقرأ المذكرة .. جحظت عيناه من المفاجأة التي لم يضعها في حسابه مطلقاً .

إن بريطانيا وفرنسا تريدان من إسماعيل التنازل عن منصبه ، ومغادرة الأراضي المصرية فوراً ، وأمامه مهلة لا تزيد عن ثمان وأربعين ساعة لقبول ذلك .

لقد تلعثمت الكلمات في فم إسماعيل ، ونظر في وجه قنصلي البلدين الذين كالا المديح له بالأطنان طوال سنوات سابقة ، وتسابقا في التودد إليه ، وأسرفا في نفاقه ، نعم . الآن فقط يكتشف الخديو الأحمق أن مصر لم تصبح جزءاً من أوربا .. ولكن أوربا هي التي أصبحت سيفاً مسلطاً على رقبة مصر .

واستجمع الخديو إسماعيل جزءاً من شجاعته أخيراً ، لكي يرد على القنصلين قائلاً : إنني أستمد سلطتي من الأمبراطور العثماني .. فهو الذي عينني .. وهو الذي يملك أن يعزلني .

واغتاظ القنصل الفرنسي من هذه الإجابة المراوغة ، وقال للخديو متسائلاً : منذ متى وسموك خادم ذليل للباب العالي ؟

رد الخديو قائلاً : منذ ولادتي يا سيدي !

تدخل القنصل الإنجليزي ، بأسلوب ناعم ومضمون حاد ، ناصحاً بقوله : أليس من الأفضل ، في هذه الواقعة بالذات ، أن تعمل سموّك على مسئووليتك الخاصــة .. مستقلاً في ذلك عن الباب العالي ؟

ورد الخديو ، بطريقة ذليلة للغاية ، قائلاً : سيدي العزيز.. إذا كانت أول واقعة تريدني أن أستخدم فيها استقلالي عن السلطان هي أن أتنحى عن السلطة التي خولها لي ... فإنني لا أرى أية فائدة تعود علي من ذلك ..

لم يكن هذا كافياً .

فالخديو الذي أراد أن يكون جزءاً من أوربا .. أصبح في الواقع حذاءً لأوربا .

لقد عادت إليه أوربا بعد أيام ، ولكن في الفجر هذه المرة !

إن القنصل الفرنسي العام ، ومعه القنصل الألماني ، توجها إلى القصر واستدعيا الخديو في الساعة الثالثة صباحاً ، محدثين بذلك فزعاً بالغاً في الحريم خشية اغتيالهن . لقد أبلغاه بأنهما قد حضرا لمنحه آخر مهلة لاعتزال العرش لصالح إبنه توفيق ، وأنه في خلال بضع ساعات سوف يعين آخر خديوياً بدلاً له ، وحينئذ يكون الأمر قد فات .

وقال الخديو في برود : لسوف يكون هناك وقت كاف لاعتزال العرش . سأراكم غداً . أسعدتم مساءً أيها السادة .

دخل الخديو يكمل نومه .. ولكن السؤال الآن أصبح هو : إذا كان الخديو إسماعيل يرى أن أمامه وقت كاف لاعتزال العرش .. فهل ترى أوربا نفس الرأي ؟

القاهرة .

٢٦ يونيو . الحادية عشرة صباحاً .

١٨٧٩ .

برقية من الباب العالي في القسطنطينية . رئيس التشريفات في قصر عابدين يقرأ العنوان : « إلى صاحب السمو إسماعيل باشا .. خديو مصر السابق » .

ولم يكمل رئيس التشريفات القراءة . لقد أسرع بإلقاء البرقية على المنضدة . بعد لحظتين نصحه مساعده ، طونينو بك ، بأن يختار شخصاً ثالثاً لإبلاغ هذه البرقية إلى الخديو .

وفض الخديو البرقية أخيراً ، لكي يقرأ فيها مصيره : « من الوزير الأعظم لتركيا إلى إسماعيل باشا ، خديو مصر السابق . إن الأزمات التي اعترضت مصر في الداخل والخارج قد تفاقمت تفاقماً خطيراً ، وإن استمرار الحال على هذا المنوال سيكون خطراً على كل من مصر والدولة العثمانية .. ومن الواضح أن بقاءك في منصب الخديو لا ينجم من ورائه سوى ازدياد العقبات الحالية وتفاقمها . ولذا ، فقد قرر جلالة السلطان ، بناءً على قرار صادر من مجلس وزرائه ، أن يعين في منصب الخديو ، سعادة محمد توفيق باشا ، وقد صدر بهذا المعنى مرسوم إمبراطوري » .

وبمجرد أن انتهى إسماعيل من قراءة البرقية .. سرح طويلاً ، ثم كانت أول كلمات ينطق بها هي : هذا ما أناله جزاء إرسالي إبان حكمي مبلغ عشرين مليون جنيه استرليني إلى القسطنطينية !

بعدها أرسل يستدعي إبنه محمد توفيق ، من قصر الإسماعيلية ، المخصص له .

وبمجرد أن دخل عليه توفيق ، نهض إسماعيل متمتماً : أحييك باعتبارك أفندينا .. متى تتخذ الإجراءات اللازمة لإعلان الخبر إلى الناس ؟

قال محمد توفيق : الليلة .. في القلعة .

سكت إسماعيل برهة قبل أن يتمتم قائلاً ، برأس خفيضة هذه المرة : حسناً .. أتعشم ألا تنسى أنني والدك !

وفعلاً .. لم ينس توفيق أن إسماعيل والده . فلقد كان أول قرار رسمي له ، هو نفي والده إسماعيل ، وأخويه حسن وحسين ، إلى خارج مصر. وهكذا أبحرت السفينة « المحروسة » من الإسكندرية في ٣٠ يونيو ، حاملة الخديو المنفي وأسرته إلى مكان مجهول . لقد طلب الاقامة في تركيا . رفضت تركيا . طلب الاقامة في فرنسا . رفضت فرنسا . أخيراً استقر في إيطاليا .

ولم يكن في وداعه من بين الدبلوماسيين الأجانب سوى البرت فارمان ، القنصل الأمريكي في مصر ، الذي كتب يومها في مذكراته : « .. تنحصر الجريمة الحقيقية التي ارتكبها إسماعيل في أنه وضع نفسه تحت نفوذ يهود لندن وباريس ، هؤلاء الذين كان معظمهم من الممولين اليهود ، وكانت لديهم القوة الكافية لتوجيه حكومتي انجلترا وفرنسا وحثهما على ابتداع سابقة جديدة خاصة بتدخل الدول رسمياً في جمع الديون المبرمة طبقاً لعقود ، وحتى الديون التي لا ترتكز على أي التزام أدبي . ومن أجل جمع هذه الديون التي تميزت بهذا الطابع ، والتي مكنت بنوك روتشيلد ، وأبنهايم ، وجوشن ، وغيرها من البيوت المالية أن تجني ثمار مغامراتها المالية ، قامت الدولتان

الكبريان ببذل معونتهما الرسمية أولاً ، ثم قامت إنجلترا بعد ذلك بتقييم معونتها العسكرية » .

وهكذا أصبح المنفى هو الثمن النهائي لحماقة اسماعيل ، وجهله ، وشعوره بجنون العظمة .

ولكن .. الآن بقي على مصر نفسها أن تدفع ثمن حماقته .

و .. سوف تظل مصر تدفع هذا الثمن ، من حريتها ، واستقلالها ، وأموالها ، ودماء أبنائها .. لسبعة وسبعين بعدها .

الاسكندرية .

٦ يونيو .

١٨٨١

الناس تتلقف مجلة جديدة صدرت اليوم ، وتحمل إسم « التنكيت والتبكيت » . إن العدد يقع في ١٦ صفحة ، والثمن « ربع فرنك » ، والذي أصدرها هو عبد الله النديم .

وأصبح صدور هذه المجلة هو أهم خبر في مصر لفترة طويلة تالية . ففي لمح البصر اختفت الثلاثة آلاف نسخة التي طبعها عبد الله النديم من العدد الأول ، وبعد أن كان ينوي انتظار وصول الاشتراكات لإصدار العدد الثاني .. قرر الإنتظام فوراً في إصدارها .

إن عبد الله النديم يفسر للقارئ في العدد الأول من المجلة أنها « صحيفة أدبية تهذيبية ، تتلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وفوائد ومضحكات بعبارة سهلة ، وتصور الحوادث والوقائع في صور ترتاح إليها النفس ويميل إليها القلب ، ويخبرك ظاهرها المستهجن أن باطنها له معان مألوفة ، وينبهك نقابها الخلق بأن تحته جمالاً

يعشق . هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت . ولا تنكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزوا بنا ولا سخرية بأعمالنا . فما هي إلا نفثات صدور ، وزفرات يصعدها مقابلة حاضرة بماضينا » .

لقد أقبل الناس على المجلة الجديدة يتخاطفونها . ومن قرأها يحكي عنها لمن لم يقرأها .

- هل قرأت الحكاية التي كتبها النديم في هذا العدد بعنوان « مجلس طبي لمصاب بالإفرنجي » ؟

- لا .. هل يكتب النديم في الطب ؟

- إسمعني أولاً .. إنه يحكي قصة شاب « صحيح الجسم قوي الأعصاب جميل الصورة ، رقيق اللفظ ، عذب الحديث ، في عزة ومنعة لا يشاركه فيها مشارك ، يحبه أهله ويؤازرونه ، ويلتفون حوله حتى لا تمتد إليه يد عدو ولا حيل محتال . وبينما هو في ذلك تسلل إليه أحد الماكرين ، متظاهراً بالصلاح والتقوى ، ويضمر الختل والغدر ، فأسلمه أهله إليه انخداعاً به . فعرضه هذا الماكر على الأسواق يريه من الغواني من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فمانع حيناً ، ولكنه رأى أهل بيته قد وقعوا في مثل هذه الغواية ، وانغمسوا في مثل هذه الضلالة ، فسار سيرهم ، وترك النفار والإباء ، وسار في الطريق الذي رسمه المنافق المخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء الإفرنجي فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وتمكن الداء منه ، وسرى في دمه وعروقه ، فصار يقلب أطرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه » .

قال الثاني مندهشاً : ومن الذين كانوا السبب في مرض هذا الشاب ؟

رد الأول : إن مصر هي هذا الشاب .. و« الداء الإفرنجي » ليس هو الزهري الذي نسميه كذلك .. إن النديم يقصد به الديون الأجنبية التي إبتلى الله مصر بها .. والذين كانوا السبب في المرض هم أولئك الأوربيون المحتالون الذين فتح لهم اسماعيل باب بلدنا على مصراعيه .. هل أدركت الآن لماذا اختار عبد الله النديم للمجلة إسم « التنكيت والتبكيت » .. ؟

إن مثل هذا الحوار كان يدور في المقاهي والشوارع ، بعد أن لخصت المجلة الجديدة مشاعر المصريين ، بطريقة يفهمها المصريون .. وتعجز السلطة عن ملاحقتها .

ففي نفس هذا العدد الأول من المجلة يكتب عبد الله النديم عن « عربي تفرنج » إنه يصف ، في قصة رمزية أخرى ، شاباً من صميم الفلاحين ، تعلم في مصر ، ثم سافر إلى أوربا ، وعاد إلى بلده يسفّه أباه على عاداته غير المتطورة ، وغير الحضارية ، وغير الأوربية . عاد يتعالى على أمه بلغته الفرنسية .. والنتيجة هي أن مثل هؤلاء لا أمل فيهم إلا إذا انتموا لبلدهم .

قصة رمزية ثالثة : تجمع بعض الأثرياء المصريين في سهرة ببيت أحدهم . إنهم ساهمون لا يتكلمون ولا يتحركون ، فتخيل النديم عندما رآهم أنهم يفكرون في أمر خطير يشغل بالهم ويعقد لسانهم . أمر خطير كالتقدم الصناعي في أوربا مثلاً وكيف يمكن تحقيقه في مصر، أو شيء يزيدون به ثرواتهم . ولكنهم لم يكونوا يفكرون في أي شيء من هذا القبيل . وكل ما يفعلونه هو تعاطي المخدرات ..

قائلين : « ما لنا وما للدنيا وما جرى فيها ، وما لنا وللصحف والتلغرافات ، ونحن كلنا بحمد الله في غنىً عظيم ، عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلف لنا آباؤنا من المال ما لا تفنيه الأيام ـ فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمضحكات والنكات اللطيفات » .

قصة رمزية رابعة .. عن فلاّح جاهل ، ومرابي ماكر . أراد الأول أن يقترض من الثاني مائة جنيه . ولأن الأول جاهل والثاني ماكر .. فقد حصل المرابي من الفلاّح على قطن وقمح وكمبيالات ، وأعطاه سبعين جنيهاً ، أصبحت بعد فوائدها مائتين وعشرة جنيهات !

أليست هذه هي المشكلة المصرية التي خلقها إسماعيل ؟

إن النديم يشرح ويقدم كل هذا في عدده الأول . إنه يكتب قصة خامسة ، وسادسة ، وعاشرة .. امتلأ بها العدد الأول من مجلة « التنكيت والتبكيت » .. التي حررها هو من الغلاف إلى الغلاف .

لقد كان صدور المجلة ثورة صحفية كبرى ، من حيث أسلوبها ورمزيتها ودقة الوقت الذي صدرت فيه ونوع الرسالة التي تحملها .

ولكن الأخطر من هذا كله ، هو الهدف الذي يختفي وراء كل سطر ، وبعد كل قصة : « استيقظوا أيها المصريون . استيقظوا لإنقاذ بلدكم الذي يهدده الخطر من كل جانب . » .

إن عبد الله النديم إبن بلد .. وهو ينظر إلى كل شيء حوله بعيني ابن البلد ، وهمومه ، وواقعه المهزوم ، وأحلامه الضخمة . إنه يعبّر عن إبن البلد هذا في كل سطر من سطور المجلة .. نثراً وزجلاً وشعراً .. فيقول مثلاً ..

أهل البنوكا والأطيان — صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشي عريان — ما معاه ولا حق الدخان
شرم برم حالي غلبان

يا ما نصحتك يا بنجـر - وقلت لك أوعا بعجـر
فضلت تسكـر وتفنجـــر لمـا صبح بيتك خربان
شرم برم حالي غلبان

وهو يكتب مخاطباً كل غني في مصر ، عن كل فلاّح في مصر ، فيقول « .. انظر إلى ثوبه المهلهل ولبدته التي لا تستر يافوخه ، ورغيفه الذي لا تكسره قوّتك ، ومشه الذي تعاف النظر إليه ، وارقبه وهو يسقي الزرع والطين إلى فخذيه والشمس تشوي وجهه وجسمه ، يقطع يومه في عذاب وعمل .. وهو صاحب الفضل عليك ، وأنت لا تنظره إلا بعين المقت ، ولا تعامله إلا بيد الإهانة ولسان السب ، مستقبحاً صورة عنونت بفلاّح » .

لقد وجد إبن البلد من ينطق بلسانه أخيراً . ليس فقط ينطق ، ولكن يصور ، ويعبر ، ويمزق قيود الخوف والبطش والإرهاب التي فرضتها السلطة .. فسحبت منه لسنوات طويلة حتى حقه في أن يتألم ويصرخ ، ويغلي بالغضب .

إن الخديو الجديد توفيق بدأ ولايته بوعود معسولة نثرها يميناً ويساراً . إنه يريد الإصلاح والدستور والإستقرار . يريد أن تكون الحكومة وطنية ، فلا يعود إليها الوزيران الأجنبيان . يريد التمسك بمبدأ مسؤولية الحكومة وتضامنها . يريد ..

ولكن ، لم تستمر تلك الوعود لأكثر من شهرين !

فالقوى الأوربية لم تأت بتوفيق إلى السلطة لكي يريد أو لا يريد . لقد أتت به لكي ينفذ فقط .

وهكذا بدأ الخديو ينفذ .

لقد تشكلت لجنة لتصفية الدين المصري برئاسة السير ريفرس

ويلسن ، المراقب البريطاني ، لتكون قراراتها ملزمة للخديو ، وقررت اللجنة أن دين مصر يبلغ ٩٨ مليوناً و٧٤٨ ألفاً و٩٣٠ جنيهاً ـ وهو مبلغ لم تحصل مصر فعلاً على مجرد نصفه !

وقرر توفيق إسكات الأصوات المعارضة التي تطالب بالإصلاح ، فبادر بنفي جمال الدين الأفغاني من مصر .

وقرر عدم ترقية الضباط المصريين إلى الرتب التي يستحقونها بالجيش .

وقرر تصفية الجيش نفسه ، فبدأ بتسريح عشرة آلاف منه ، وانقلص العدد الإجمالي للجيش إلى ١٢ ألفاً .

إن الخديو الجديد سوف يصبح هو نفسه أداة أوربا في ذبح مصر .

ولكن مصر لا تسكت . مصر تغلي بالثورة .

لقد تحرك ثلاثة من الضباط المصريين ، هم أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي ، إلى رئيس الوزراء رياض باشا يطالبون بالإصلاح . بعدها تحركت وحدات من الجيش ، بقيادتهم تطلب عزل ناظر (وزير) الحربية عثمان رفقي . وحاولت الحكومة القبض على الضباط الثلاثة ، ولكن وحدات الجيش أخرجتهم من السجن بالقوة ، بعد أن أصبحت أكثر إصراراً على مطالبها .

واضطر الخديو في هذه المرة إلى إقالة وزير الحربية ، وتعيين محمود سامي البارودي مكانه .

ووقف الشعب بجوار أحمد عرابي ، الذي أصبح منذ أول فبراير سنة ١٨٨١ رمزاً للطريق الذي اختاره الشعب . رمزاً للثورة .

وأصبح عبد الله النديم هو نفسه خطيب الثورة ولسانها . إنه

يدعو إليها في مجلته ، وفي اجتماعاته ، وفي المدن والقرى التي سافر إليها يجند أنصار الثورة .

وبناءً على مشورة عبد الله النديم ، أصدر أحمد عرابي بياناً يقول فيه إن الحكومة « قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، ولم يكن مقصدها مؤدياً إلا إلى اضمحلال البلاد وتلاشيها ، بما هو جار من بيع أراض كثيرة للأجانب ، ووجود كثير منهم في إدارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة ، والسعي في رفع الأحجار الطبيعية الموجودة في بوغاز الإسكندرية . وإن سكوتنا وإضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا . فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين في سلك الجهادية قد اتكلوا على الباري سبحانه وتعالى ، وعزموا على منع كل ما من شأنه الإجحاف بحقوقكم . وذلك لا يتم إلا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ، ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة . فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم في ضمن هذه النشرة . والكتابة المقصودة بها أن أكون نائباً عنكم في كل ما يتعلق بأحوال البلاد ــ أحمد عرابي » .

وأطلق الناس على هذا البيان إسم « المحضر الوطني » .

وقاد عبد الله النديم الحملة لجمع توقيعات أعيان المدن والقرى على عرائض يبينون فيها أحمد عرابي ، كممثل للأمة .

إن شلاّل السخط الشعبي يشق طريقه الآن في اتجاه واحد حتمي .. وعبد الله النديم نفسه يتحول الآن من مجرد متفرّج ومحلّل للأحداث .. إلى مساهم ومشارك في صنعها . ربما من أجل هذا أصبحت أرصاد الحكومة وعيونها تتابع النديم أولاً بأول .

وهكذا قرر رياض باشا رئيس الوزراء أخيراً التخلص من النديم ، فأعد قراراً بنفيه إلى الخارج . لقد وافق مجلس الوزراء على القرار ولم يبق إلا تصديق الخديو توفيق عليه . وقبل أن يتم ذلك ، كان محمود سامي البارودي وزير الحربية قد أخبر المنظمة السرية للضباط .. وهكذا فوجئ الخديو بقائد حرسه علي فهمي يقول له : « إن عبد الله النديم هو منا معشر العسكريين حتى وإن لم يحمل سلاح العسكرية . ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والجناد » .

وتراجع الخديو عن القرار . أما النديم نفسه فقد أصبحت قضيته الواضحة العاجلة هي : الديموقراطية . إنه يعبىء الشعب كله الآن خلف عرابي ، وعرابي يعبئه خلف مطلبين أساسيين هما الدستور ومجلس النواب . فبغير الديموقراطية سوف يتدهور كل شيء .. وبالديموقراطية يمكن إصلاح أي شيء .

ولكن السباق فيه أطراف أخرى ، أولهم الخديو نفسه ، ومن خلفه القوى الأجنبية التي فرضته على مصر . إنه الآن قرر التحرك ضد الشلال القادم في الطريق .. ولهذا بدأ بالإطاحة بالرأس القريبة الظاهرة للثورة .. فقرر عزل محمود سامي البارودي من منصبه كوزير للحربية ، وعيّن بدلاً منه صهره داود باشا .

إن الوقت عصيب .. ويد الخديو مرتعشة .. وحينما يرتعش الحاكم فإنه يعتمد بالضرورة على أهل الثقة .. لعله يعوض بنفاقهم ثقة أضاعتها تصرفاته .

وأهل الثقة يحجبون عن الحاكم الحقيقة دائماً .. ويفتحون له الطرق للالتفاف حولها بدلاً من مواجهتها . وهكذا أصبح الأسهل

على الخديو أن يرى أنه لو تخلص من بضعة أفراد ، فقد تخلّص من الثورة . إن هذا لم يكن صحيحاً بالطبع ، ولكنه يظّل دائماً الطريق الأسهل أمام حاكم مرتعش ، وبطانة منافقة .

وهكـذا تقرر منع اجتماعات الضباط ، وملاحقتهم بالعيون والجواسيس ، وإجراء تنقلات بين تشكيلات الجيش لإبعاد « المشاغبين » من الضباط والتنكيل بهم .

وأصبح لا بد من المواجهة أخيراً .. أخيراً .

القاهرة . ميدان عابدين .

٩ سبتمبر .

١٨٨١

ضباط الجيش قرروا الحضور إلى قصر عابدين اليوم لإبداء مقترحات تتعلّق بالجيش وبنظام الحكم . إن الخديو يسعى إلى الثورة ، وها هي الثورة تسعى إليه .

للوهلة الأولى فكر توفيق في احتواء الثورة بدلاً من مواجهتها . لقد صحب وزراءه وتوجه بهم إلى حيث تعسكر آلايات المتمردين لكي يسترضيهم .

والجميع يحيلونه على أحمد عرابي .

وذهب الخديو مرة أخرى ووزراؤه إلى القلعة ، حيث آلاي أحمد عرابي ، ليرجوه أمام الجميع ألا يفعل ما اعتزم فعله .. ولكنه وجد أن عرابي قد سبقه إلى قصر عابدين .

وعاد الخديو إلى قصر عابدين . الآن تقف الثورة مع عدوها وجهاً لوجه .. في ميدان عابدين . الآن يقف الخديو توفيق .. وإلى

جانبه قنصل إنجلترا ، وباقي قناصل أوربا الذين جاءوا بناءً على استدعاء الخديو . وفي مواجهتهم الضابط المصري أحمد عرابي مع جنوده ، والآلاف من الشعب خلفه .

وبينما الخديو ووزراءه وقناصله يقفون على شرفة القصر .. وأحمد عرابي شاهراً سيفه فوق جواده .. بدأت المواجهة .

لقد نزل الخديو إلى الميدان ، ومعه قنصل إنجلترا والسير أوكلاند كلفن المراقب الإنجليزي . ونزل عرابي من فوق حصانه .

إن الحوار مباشر ، لأن الوقت لا يتحمل لفاً ولا دوراناً .. والخديو يريد أن يعرف طلبات الثورة .

قال الخديو ، محاولاً أن يحشو في كلماته أكبر قدر مستعار من الشجاعة : ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟

رد عرابي : جئت يا مولاي لنعرض على سموك طلبات الجيش والأمة

تساءل الخديو : وما هي هذه الطلبات ؟

والثورة تحدد طلباتها بوضوح : إسقاط الحكومة المستبدة ، وإصدار الدستور وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على القوانين العسكرية .

قال الخديو ، ما زال متشبثاً بتلك الشجاعة المستعارة : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا !

صاح فيه عرابي أخيراً : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً ولا عقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إننا لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم ..

التهبت حرارة الحوار إذن ، وللوهلة الأولى تردد الفريقان : الخديو توفيق يريد أن يرفض كل شيء .. وأحمد عرابي يريد أن يعلن قيام الجمهورية ، وعزل توفيق ، كما أشار عليه بعض رفاقه أمس .

ورغم أن عيون الرجلين نطقت بما أوشك أن ينطق به اللسان .. فإن كليهما قرر الإحتفاظ بورقته الأخيرة .

وطلب الخديو الدخول إلى القصر برهة قصيرة للتشاور ـ ليس التشاور مع رئيس الوزراء ، ولا الوزراء ، ولكن للتشاور مع قنصل إنجلترا على انفراد .

كانت الكلمات الأولى التي زمجر بها الخديو بمجرد انفراده بالقنصل البريطاني هي : هذه .. هذه .. محاولة للتمرد ..

قال له القنصل البريطاني مصححاً في هدوء : هذه ثورة .. يا صاحب السمو !

إن الخديو بدأ تشاوره مع القنصل .. والثورة في الهواء الطلق ، بدأت تشاورها مع نفسها : تعلن الجمهورية أو لا تعلنها ؟ تعلن .. أو لا تعلن ؟

ولكن ، أين عبد الله النديم في هذا كله ؟

إنه ظاهر وخفي . موجود ، ولكن في الصفوف الخافية . إن أحمد عرابي يحمي الثورة من الأمام ، وعبد الله النديم يحميها من الخلف . في زمن عاش الناس فيه تحت تهديد السيف والبطش والإرهاب .. يصبح إنصاف الخائنين ظاهرة طبيعية في الصفوف الخلفية لهذا الذي يجري .

والنديم قوته في لسانه ، ولسانه هو لسان الثورة . لهذا وصف

أحمد عرابي نفسه ، فيما بعد ، ما يجري في تلك اللحظة قائلاً :
« هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . فجال صديقي الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوي السيد عبد الله النديم بين الصفوف ينادي : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فكان معي ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الزيغ والإرتجاف ، وأخذ الكل يردد هذه الآية الكريمة ، كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه في تلك الساعة .. »

أخيراً خرج الخديو من مشاوراته . خرج بالنصيحة التي لا يستطيع أن يرفضها ـ نصيحة قنصل إنجلترا : نعم .. لطلبات الثورة . نعم ـ مؤقتاً !

سبتمبر . أكتوبر . نوفمبر .

١٨٨١

القاهرة . الإسكندرية . المنصورة . الزقازيق . رأس الوادي .

أصبح الناس يطلقون على الثورة إسم « الحركة الوطنية » . إن الناس كلها تهنئ بعضها البعض . ليس الناس فقط ، بل أصحاب الضمير حتى ولو كانوا يحملون جوازات سفر أجنبية ، هزهم ما حدث .

واحد من هؤلاء ، هو الكاتب الإنجليزي ويلفريد بلنت ، الذي كان شاهد عيان لما حدث ، فكتب يقول عن تلك الأيام إنها « لم يكن لها شبيه في الأيام التي رأيتها في مصر ، وأخشى أن تكون مقطوعة النظير في الأيام التي يمكن أن أراها فيها ..لقد تصاعدت

من أنحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على جوانب النيل منذ مئات السنين . وقد حدث فعلاً أن الناس كان يستوقف بعضهم بعضاً في شوارع مصر ، ويتعانقون على غير تعارف سابق ، ويبتهجون معاً لعهد الحرية العظيم الذي بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل .

إن الناس فعلاً بدت فجأة وكأنها تتنفس هواء الحرية لأول مرة .

وعبد الله النديم ، الذي حارب بقلمه ولسانه من أجل هذه اللحظة ، هو الآن من فرسانها . إننا نراه في القاهرة والإسكندرية والمنصورة ودمياط والزقازيق ورأس الوادي يكتب ويخطب ويفسر للناس مطالب « فرسان البلاد وحماتها » .

ومرة أخرى يسجل شاهد عيان آخر ، هو أحمد شفيق باشا في هذه المرة ، ما يجري بقوله « .. وانقلبت مصر مسرحاً للخطباء في كل مجتمع وناد ، حتى في المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو للإحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد اقصائهم عنها وغيرهم ، حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغني الشهير كان إذا سئل : في أي فرح تغني الليلة ؟ أجاب : في الفرح الفلاني مع عبد الله نديم » !

ولم يكن النديم يخطب فقط ، وإنما كان يصحب معه في كل مرة عدداً من طلبة المدارس لكي يجعلهم يخطبون إلى جانبه واحداً واحداً . إنه ليس عصر سينما ولا إذاعة ولا تليفزيون ، ولكن الخطابة هي وسيلة العصر.. والنديم يريد أن يزرع مصر خطباء لأنه يريد لقضية الثورة أن تقتحم كل أذن ولسان وقلب .

والنديم كاتب أيضاً ، وهو في كتابته يطالب بتشجيع الصناعة الوطنية بعد كل ما حدث من السلطة حينما « قدمت الأجنبي على الوطني في كل أموره ، وحرمت التعرض له بشيء من الجزاء وإن أساء ، وجعلته يعاقب الوطني وإن كان محقاً » .

وهو يطالب الناس بالإتحاد خلف الثورة ، لأن الإتحاد « الذي جاهدتم الأنفس لأحكامه ، فقد زالت موانعنا التي كانت تجر إلى الفساد » .

وهو يبتكر أسلوباً جديداً لتبسيط المعاني السياسية لقراءه في مجلته « التنكيت والتبكيت » .. فيختار لأفكاره شكل الحوار بين تلميذ وأستاذه . التلميذ يسأل ، والأستاذ يجيب : ما هو معنى الديموقراطية ؟ حكم الشورى ؟ هل تحتاج ممارسة الحرية إلى تدريب ؟ هل الحرية ضرورة ؟ .. الخ .. الخ ..

ورئيس الوزراء يرسل إلى النديم تهديداً بعد تهديد ، والنديم يكتب علناً : « لقد مات زمن تحرير التذاكر السرية لإبعاد زيد ونفي عمرو ، وجاء زمن القوانين والأحكام الحقة ، فقل لمن غاظه الحق وغلبه الصدق ، وخاب سعيه في إهلاك أخيه : موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور » .

إن الثورة ، التي جاشت في صدور الشعب طويلاً طويلاً ، أصبح لها الآن رمز ولسان وقلب . فالجيش هو قلب الثورة النابض ، وأحمد عرابي هو رمزها ، وعبد الله النديم لسانها .

وبدأ الناس يلتفون حول الثورة ، قلباً ورمزاً ولساناً ، ويدفعونها إلى الأمام .. ويحمونها من العواصف التي تتجمع حولها .. والأطراف التي تتربص بها . أطراف لها أسنان ومخالب .

لندن .

٢٧ سبتمبر

١٨٨١

تعليق من لندن على ما يجري في مصر . تعليق نشرته جريدة « التايمز » .. أكثر الصحف التصاقاً بالحكومة البريطانية .

تقول التايمز عن الثورة في مصر : « إن من العبث إخفاء هذه الحقيقة ، فإن القائمين بالحركة لا غرض لهم سوى هدم التدخل الأجنبي في الإدارة المصرية . وإذا جاز القول بأن تلك النية كانت منذ أسبوعين مقصورة على لفيف من الضباط .. فإنها ليست كذلك اليوم . إن سكان الإسكندرية والقاهرة ـ وهم معروفون عادة بعدم اهتمامهم بما يحدث من الأمور ـ يؤيدون عمل الجيش كل التأييد ، وهم الآن أشد جرأة في الجهر بأغراضهم » .

قبلها بتسعة أيام فقط اجتمع « ادوارد مالت » المعتمد البريطاني بالخديو توفيق .

سأله الخديو : هل كانت إجازتك في الآستانة (القسطنطينية) طيبة ؟

رد القنصل البريطاني : لقد اضطررت إلى قطعها . إن وزارة الخارجية البريطانية أرسلت لي هناك برقية تأمرني فيها بالعودة إلى مصر فوراً . ولقد اجتمعت بالسلطان (العثماني) قبيل رحيلي .. واتفق رأيي معه على أن كلاً من بريطانيا وتركيا تتفقان على أنه من الخطير جداً الإقدام في مصر على خطوتين بالذات : إصدار دستور.. وزيادة عدد الجيش . إننا لن ننظر بعين الرضا بالنسبة لهاتين الخطوتين بالذات .

ورد الخديو : .. ولا أنا !

القاهرة .

٢٠ نوفمبر .

١٨٨١

بناءً على طلب الثورة ، صدرت اليوم جريدة « الطائف » لمحررها عبد الله النديم . لقد انتهى زمن التنكيت والتبكيت . الآن زمن الثورة . إن الثورة تريد أن تكون صريحة ، وواضحة ، ومباشرة ، في مواقفها من كل شيء .

ولقد صدرت جريدة « الطائف » لكي تكون لسان الثورة . في الواقع إن أحمد عرابي طلب من عبد الله النديم أن يسميها « لسان الأمة » .. ولكن النديم اختار لها إسم « الطائف » .

وكتب النديم في تقديمه الجريدة الجديدة إلى القارئ : « بحمد الله تعالى تخلّصنا من زمن التنكيت والتبكيت ، وأصبحنا في زمن الحرية ومعرفة الحقوق ، وهذا الذي قضى علينا بتغيير إسم الجريدة ومشربها ، فقد صيرناها سياسية سياسة ظاهرة ، بعد أن كنا ندمجها في محاورات ودروس تهذيبية ، وجعلناها تطالب بحقوق الأمة من حيث الذب عنها ، ونشر أفعال الظلمة المخالفين لسير حكومتنا الحرة العادلة ، وتدافع عن الحكومة من يرميها بسوء من الجرائد الإفرنجية والعربية . وحيث أن الأمة صار لها مجلس نواب تعرف به حقوقها ، كذلك صار لها جريدة تنشر فضائلها وتدفع ألسنة الأعداء عنها » .

إن النديم ـ إبن البلد عبد الله النديم ـ يعبر عن ملامح الثورة الوطنية التي تهز مصر من أقصاها إلى أقصاها .

فالحياة الدستورية هي الأساس الأول لكل إصلاح تحتاج إليه مصر .

والإمتيازات الأجنبية هي المرض الأول الذي يجب أن تشفى منه مصر . إمتيازات ليس لها مجرد وجه سياسي واقتصادي ، ولكنها أتت معها بهجوم من المواخير والحانات والمراقص والمغاني .

والسيطرة الأجنبية على الإقتصاد المصري ، لم تعد قاصرة فقط على الديون والرهونات .. ولكنها امتدت إلى تعيين الإنجليز والفرنسيين في وظائف وهمية كبرى بمرتبات ضخمة .. وفي السيطرة على ادارة السكة الحديد ، ومصلحة الدين ، اللتين « أصبحتا في أيدي وكلاء آل روتشيلد » .

إن الوجود الأجنبي في مصر لا يفرض عليها فقط أن تحمي الأجنبي ضد المصري .. ولكن أيضاً تسرق من المصري لكي تسلي الأجنبي . فدار الأوبرا الأوربية في القاهرة مثلاً تحصل من أموال المصريين على تسعة آلاف جنيه إعانة سنوية .. في الوقت الذي يموت فيه المصريون بالآلاف من الجوع .

لهذا يكتب النديم مقالاً بعنوان « الغريب في وطنه » تنقله عنه جريدة التايمز .. ويكتب فصلاً عن « مصر واسماعيل باشا » .. وفصلاً عن « سلب الأملاك من الملاك » .. وفصلاً عن « السخرة واستخدام الأبدان بلا شكر ولا أجرة » .. و... و...

عشرات القضايا يكتب عنها النديم في جريدة « الطائف » ..

وشيء آخر : الوجه العربي للثورة .

فبرغم الهجوم والهموم والتحديات والأخطار المنظورة وغير المنظورة ضد مصر في حياتها اليومية .. وبرغم النفوذ الأجنبي والتبعية لتركيا .. وبرغم الفقر والتوتر والغليان الداخلي .. وبرغم الأطراف العديدة المتربصة بمصر .. فإن « الحركة الوطنية » .. إن الثورة

في مصر .. تنبه الشعب إلى خطورة ما تفعله فرنسا في تونس المحتلة . لقد اشتعل المصريون غضباً وثورة ضد فرنسا حينما علموا باعتداءات الفرنسيين في تونس واستباحتهم لمساجدها .. واغتصابهم لنسائها .

فإن تكون وطنياً مصرياً .. معناه بالضرورة أن تكون عربياً . إن الوطنية لا تتجزأ .. والإنتماء لا يقبل القسمة .

تلك هي مصر سنة ١٨٨١ . مصر الحركة الوطنية . مصر الثورة . مصر « الطائف » . مصر عبد الله النديم .

القاهرة .

٢٠ يناير

١٨٨٢

أصبح عبد الله النديم في نظر المصريين هو « خطيب الشرق » .. وهو « محامي الوطن » .. وهو « السحر الحلال » ! إنه الآن في كل مكان يخطب .. متحدثاً عن الحياة الدستورية الجديدة وما يأمله الوطن في ظل الدستور .. وهو « يشعل في قلوب المواطنين جذوة الحماس ويضيئها بنور الوطنية » ... وهو في الإسكندرية يخطب حتى الصباح ، وفي القاهرة يخطب في اليوم الواحد أربع وخمس مرات .

إن النديم ليس لساناً للثورة فقط . إنه لسانها ومسؤول إعلامها ومنظم دعايتها والداعي إلى أفكارها ومعبئ للرأي العام خلفها ومروج لمبادئها ومؤيد لمرشحيها وحارس لنوابها وناشر للوعي بها .

ومصر تعيش أروع أيامها . إنه الانتصار الكبير.

فلقد اضطر النفوذ الأجنبي أن يكشف عن وجهه سافراً ، ضد : مجلس النواب .

فلم يكد مجلس شورى النواب يجتمع في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ حتى بادر بطلب الميزانية ، لممارسة وظيفته الأولى في الرقابة عليها .

وجاء رد الفعل سريعاً من لندن وباريس .

في البداية طلبت إنجلترا من الخديو ، عن طريق المراقبين الإنجليزيين ، عدم السماح للمجلس بنظر الميزانية . لم يستطع الخديو . بعدها تقدمت إنجلترا وفرنسا بمذكرة مشتركة تعلنان فيها تأييدهما للخديو لو استخدم سلطته المطلقة (في حل المجلس طبعاً) . لم يجرؤ الخديو .

أخيراً ، تقدمت الدولتان بطلب صريح ، في ٢٠ يناير ١٨٨٢ ، يحددانه بأن « المجلس ليس من حقه الإقتراع على الميزانية » .

وكلف الخديو رئيس وزرائه بإعداد مشروع قانون يمنع النواب من نظر الميزانية .. تنفيذاً للإرادة السامية الأوربية .

هنا بالضبط تحرك مجلس شورى النواب لرد هذه الإهانة السافرة . لقد أصر النواب على تغيير رئيس الحكومة ، الذي قبل طلبات إنجلترا وفرنسا ، وتشكيل حكومة وطنية لا تكون جسراً للنفوذ الأجنبي .

وفكر الخديو ، وتردد ، واستشار ، وراوغ ، وقاوم ، وفي النهاية اضطر للخضوع للثورة .

وتشكلت حكومة جديدة ، بمحمود سامي البارودي رئيساً لها ، وأحمد عرابي وزيراً للحربية فيها . ولأول مرة يشعر الشعب بأن ثورته أصبحت هي سلطته .. وهي أيضاً مسؤوليته .

ونشرت صحيفة « التايمز » في ١٠ مارس ١٨٨٢ تحليلاً لمراسلها في القاهرة يسجل فيه ظاهرة جديدة تحدث في مصر لأول مرة .. فلقد « قال لي صديق يعرف اللغة العربية جيداً أنه في صباح يوم

واحد عد في السوق سبعة وعشرين مجموعة من الناس يتحدثون عن الميزانية ، أو الوزارة ، أو التدخل الأجنبي » .

لقد أصبحت السياسة تهم المواطن العادي .. لأنه أدرك أن مصير بلده يتقرر هنا ، والآن ، وتحت عينيه ، ويجب أن يكون هو الطرف الأول في صناعته .. بعد أن عاش الضحية الأولى لسلبيته .

إن الثورة لن يحميها إلا مواطن يقظ .. إيجابي .. مشارك .. ومفتوح العينين .

ولكن .. في الساحة أطراف أخرى تريد عكس هذا بالضبط .

لندن .

٧ مايو .

١٨٨٢

اللورد « جرانفيل » وزير الخارجية البريطاني ، يتلقى رسالة عاجلة وملحة من القاهرة . رسالة كتبها « ادوارد مالت » المندوب البريطاني في مصر ، ويقول فيها لوزير خارجيته : « إنني أعتقد أنه **لا بد من حدوث مضاعفات من نوع حاد** قبل إيجاد أي حل مرض للمسألة المصرية ، وأنه من الأصوب الإسراع في هذا خير من التأخير فيه » .

مبدئياً : بدأ القنصل الإنجليزي في الإسكندرية يوزع السلاح سراً على المالطيين واليونانيين المقيمين بالمدينة .

ثم : لن ننتظر طويلاً قبل أن نعرف نوع « المضاعفات من نوع حاد » التي تقصدها بريطانيا لإيجاد « حل مرض » لها .

الإسكندرية .

٢٥ مايو .

١٨٨٢

أسطول حربي بريطاني فرنسي وصل إلى المياه المصرية . إن الحجة هي حماية أرواح الأجانب المقيمين في مصر . ولكن الهدف هو ترجيح ميزان القوى لصالح الخديو توفيق .. ضد الثورة . الآن يلوح في الأفق لأول مرة إحتمال الغزو العسكري .

واكتسب الخديو شجاعة لم تكن فيه !

لقد طلب وقف جريدة « الطائف » عن الصدور . وتقرر فعلاً إيقافها لمدة شهر واحد .

أما إنجلترا وفرنسا فقد أصبحتا الآن تتحدثان مع الثورة بذراعهما لأول مرة . في هذه المرة هناك طلب محدد : إسقاط الوزارة الوطنية برئاسة محمود سامي البارودي ، ونفي أحمد عرابي وزير الحربية إلى خارج مصر ، وتحديد إقامة زميليه علي فهمي وعبد العال حلمي في الريف المصري .

وأسرع الخديو للإستجابة فوراً ، فأسقط الوزارة من اليوم التالي .

وتحرك الشعب جميعاً مدافعاً عن ثورته . إن عشرات الإجتماعات .. ومئات الخطب .. وعشرات الألوف من الناس يتقدمون . وفي كل مرة نجد أمامنا دائماً عبد الله النديم يخطب ، ويشرح ، ويفسر ، وينبه ، ويحشد ، ويعبئ ، ويدعو الناس إلى إسماع صوتهم .

وكتب تسعون ألف مواطن عرائض يعلنون فيها رفض المذكرة البريطانية الفرنسية المشتركة ، ويطالبون فيها بعزل الخديو نفسه وإبقاء عرابي .

وطلب الخديو من محافظ الإسكندرية إستدعاء عبد الله النديم بتهمة أن خطبه « تدعو إلى الفتنة والشغب »... وحجزه تحفظياً في سجن المحافظة . وفوجئ المحافظ ، وهو نفسه من عملاء الخديو ، بأن آلافاً من الناس قد جاءت تحمي عبد الله النديم بأرواحها .. وأنهم سوف يقتحمون السجن دفاعاً عن خطيبهم ولسان ثورتهم .

وأراد الخديو أن ينحني للثورة في هذه المرة ـ نصف انحناءة ـ مؤقتاً ! فأعاد عرابي وحده إلى منصب وزير الحربية .. بشرط أن يكون عرابي مسؤولاً أمام دول أوربا عن حفظ الأمن .

لقد استطاع الشعب ، من شارعه ، أن يرغم الخديو في قصره على التراجع .

وأصبح واضحاً أن الثورة تستمد قوتها من الشارع .. وعلى خصومها أن يواجهونها أولاً في الشارع ، وتلك مهمة يعجز عنها الخديو بمفرده ، ولا بد لها من أوربا مجتمعة .

الإسكندرية .
١١ يونيو ـ ١١ يوليو
١٨٨٢

من « فندق أوربا » في الإسكندرية يمكن رؤية حقائق كثيرة . إن في الإسكندرية حي ضخم للأجانب ، يقع في جانبها الشرقي ، ثم فيها حي عربي للفقراء من المواطنين أبناء البلد . و« « فندق أوربا » يقع في الطريق الجنوبي من ميدان محمد علي ، وعلى مقربة من الحي العربي .

أحد الذين يتناولون غذاءهم في الفندق في ذلك اليوم ، ١١

يونيو ، كان اسمه البرت فارمان ، الذي كان قنصلاً لأمريكا في مصر وعين حديثاً ممثلاً لبلاده في المحكمة المختلطة بالإسكندرية .

في الساعة الثالثة عصراً ، انتهى ألبرت فارمان من تناول غذائه في « فندق أوربا » واتجه إلى منزله على بعد ثلاثة أرباع الميل . في الطريق شاهد من البداية حادثاً عجيباً وقع اليوم .

لقد قام نزاع بين مصري ويوناني على مبلغ من النقود . وحسماً للنقاش ، أخرج اليوناني سكيناً .. وطعن بها المصري في بطنه . وأدى منظر المصري المصاب ، وهو ينزف دماً ، إلى إثارة غضب باقي الجالسين على المقهى ، فبدأوا يتجمعون . وعلى الفور بدأ اليونانيون والمالطيون في المباني المجاورة في إطلاق النيران على الأهالي من نوافذ دورهم ، ومن أسطح منازلهم ، على الأهالي العزّل من السلاح . إن حمل السلاح .. هو جزء من الإمتيازات التي يتمتع بها الأجنبي في مصر .. ويحرم منها أي مصري !

وسرعان ما تحول الأمر إلى شغب كبير بالإسكندرية ، فالأوربيين مسلحين بالمسدسات والبنادق .. والأهالي لا يملكون غير الهراوات . وكانت النتيجة هي مقتل ستين أوربياً .. مقابل أكثر من مائتين من المصريين .

في اليوم التالي نشرت جريدة « الديلي نيوز » في لندن الواقعة على النحو التالي : « أطلق الأوربيون النار من النوافذ فقتلوا عدداً كبيراً من العرب الذين أحدثوا بدورهم أضراراً جسيمة بين الأوربيين في الشوارع » .

فجأة ، بدأت الصحف الأوربية بعد يومين تعيد رواية الحادث في شكل مختلف تماماً . إنها أولاً بدأت تسميه « المذبحة » .. وهي

« مذبحة من المسلمين ضد المسيحيين » !

وفي « فندق أوربا » بالإسكندرية تقابل القاضي الأمريكي « ألبرت فارمان » مع صديقه البريطاني ، الذي يعمل مراسلاً لجريدة « التايمز » البريطانية في مصر.

وبموضوعية القاضي سأله البرت فارمان : لماذا تخفي الحقائق عن قراء جريدتك ؟ لماذا تصف الشغب بأنه مذبحة ؟ لماذا تزعم أن المسلمين هم الذين دبروها سلفاً ضد المسيحيين ؟ لماذا .. وأنت تعلم أن أحد الرعايا الأوربيين هو الذي بدأها .. وأن عدد القتلى من المصريين أضعاف عدد الأجانب ؟

وفي برود شديد رد عليه مراسل « التايمز » البريطانية قائلاً : إنني لست هنا في مصر من أجل كتابة الحقائق .. لقد جئت لغرض ما .. وأنا ، بما أكتبه ، أؤدي الغرض من مهمتي !

إن هذا « الغرض » سوف يتضح شيئاً فشيئاً مع تطور الأحداث.

ومبدئياً .. وجّه وزير الخارجية البريطاني رسالة إلى ممثليه في القاهرة والإسكندرية يحثهم فيها على « ضرورة الحصول على دليل يدين أحمد عرابي وزملائه بالنسبة لأحداث الإسكندرية ».

ولكن الجميع فشلوا في خلق هذا الدليل ، لسبب بسيط ، هو أن الجميع يعلمون أن عرابي لم تكن له أية علاقة بالموضوع ، والثورة في مصر .. على لسان خطيبها عبد الله النديم .. كانت تدعو الناس يومياً إلى عدم الإستجابة لأي استفزاز أوربي .. حتى لو عنى هذا أن يكون المصري هو المغلوب أمام الأوربي .

ومع ذلك فإن إنجلترا قد توصلت من جانبها إلى قرار محدد جداً : إما الثورة .. وإما إنجلترا !

وهكذا بدأت مجموعة من التصرفات المريبة .

لقد انتقل الخديو توفيق إلى قصر رأس التين بالإسكندرية ، بناءً على نصيحة القنصل البريطاني .

وأصدر الخديو منشوراً يبدي فيه لأوربا تخوفه على أرواح رعاياها في مصر ، بسبب عدم توافر الأمن !

أخيراً ، أعجب إنذار في التاريخ ، من بريطانيا العظمى إلى أحمد عرابي وزير الحربية المصري : يجب نزع أسلحة الطوابي المصرية على ساحل الإسكندرية .. وتسليم بطاريات تلك الحصون إلى قائد الأسطول البريطاني المرابط في المياه المصرية ، في مواجهة الإسكندرية ــ أسطول وصفه الأمريكيون وقتها بأنه « أقوى أسطول تجمع لارتكاب أعمال عدوانية حتى وقتنا هذا » .

الإسكندرية .

١١ يوليو .

السابعة صباحاً .

قائد الأسطول البريطاني يعطي الإشارة . السيل الجارف من القنابل ينهال على الإسكندرية . الإنجليز يتوقعون هزيمة المصريين خلال ستين دقيقة . مرت ساعة . وساعتين . وأربع ساعات . ثلاثة آلاف قنبلة تنهال على المقاتلين المصريين . ألف وخمسمائة مقاتل يموتون في مواقعهم . لا تسليم . لا هزيمة . مزيد من القنابل . الدمار . القتل . الدماء . الغزو من البحر . الأشلاء . الأنقاض . الشعب يتلقى قنابل بريطانيا العظمى بصدره . الدخان . سحابات من الدخان . الإسكندرية شعلة من النيران . جزء واحد من المدينة لا يمسه سوء :

قصر رأس التين . الفوضى . مزيد من القنابل . مزيد من المقاومة . لا استسلام . لا هزيمة . لا شيء سوى المقاومة . عشر ساعات من المقاومة . النيران . هل توقفت مقاومة المصريين ؟ هل حانت لحظة نزول الإنجليز إلى البر ؟ لا أحد يجرؤ . لليوم الأول ، والليلة الأولى ، واليوم التالي ، والليلة التالية ، لم تجرؤ بريطانيا العظمى على إنزال جنودها براً . إن الجنود المصريين أخلوا الإسكندرية قبل ظهر الأربعاء . لم يجرؤ الإنجليز على دخولها حتى يوم السبت . المباني ما زالت تحترق . إنه احتراق بطيء .. بطيء . المحنة . المجزرة البشرية هي الطريق لأطماع قوة أوربية عظمى في مصر .

والحقائق .

إن قائد الأسطول البريطاني تسلم خطة الضرب كاملة قبلها بثمانية أيام . مع الخطة تحدد الهدف النهائي : غزو مصر واحتلالها ــ أولاً بضرب الإسكندرية ، ثم بالدخول من قناة السويس .

ومصر نفسها تقاوم . ترفض الإستسلام . إن الخديو ، الذي أصبح غارقاً في خيانة مصر ، يصدر منشوراً يصم فيه الجيش المصري بالعار ، ويعلن طرد أحمد عرابي .

عرابي يقاوم . إن الجيش المصري يتحصن في كفر الدوار . ولكن المعلومات تأتي باتجاه السفن الحربية الإنجليزية شرقاً ، نحو بور سعيد . هل يمكن لبريطانيا العظمى أن تخرق حياد قناة السويس ؟ عرابي يسأل ، والمسيو فرديناند ديليسبس يقسم لـه بشرفه أن هذا لا يمكن أن يحدث .

عرابي يصدق الشرف . لا شرف .

والشعب يشكل « جمعية وطنية » ممثلة لكل الفئات ، وفي اجتماعها

الأول يتساءل أحد الباشوات مغالطاً : ما الذي يمنع من أن يكون كل ما بلغنا من أخبار الإسكندرية كذباً وزوراً ؟

ويرد عبد الله النديم ، بنفس منطق الباشا ، قائلاً في تهكم : إذا كان لا يكفيك شهادة ٣٠٠ ألف نسمة من الرجال والنساء والأطفال ، خرجوا لا يملكون إلا أنفسهم هائمين على وجوههم في البلدان والقرى ، لا يلوي الوالد منهم على ولده ، ولا أخ على أخيه ، وكأنهم في المحشر يساقون ، فما الذي يكفيك ؟!

في النهاية تقرر « الجمعية الوطنية » استمرار الحرب ضد الغزو الأجنبي . وفي اجتماعها الثاني تقرر إبقاء أحمد عرابي في منصبه وعدم الإعتراف بقرارات الخديو.

وعبد الله النديم نراه الآن في كل مدينة وقرية يعبئ الناس خلف الثورة وضد الغزو الأجنبي . إن النار كلماته ، والفداء مطلبه ، والتضحية سبيله ، والوحدة دعوته .

إنه ينقل إلى الناس في كل ساعة هذا المعنى : « يا أهل مصر .. إن الإنجليز يقولون مصر هي حصن البلاد العربية من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، وتقووا واحفظوا حصن البلاد الإسلامية ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، لتحفظوا هذا الدين العظيم وتدفعوا عدواً يريد أن يدخل بالخيل والرجل في بلد الله ، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة ، عن طريق بلادكم ، وقد استعان على أغراضه بخديوكم الذي باع الأمة إرضاء للإنجليز وجعل بلاد الإسلام مقابل حماية الإنجليز له .. » .

إن النديم يخطب في المساجد ، في الشوارع ، في الميادين .. وهو يوم في القاهرة .. ونصف يوم في الإسكندرية .. والنصف

الآخر في بنها .. ثم من جديد في القاهرة . إن الشيوخ تـدعو في المساجد ، والشبان يتطوّعون للقتال ، والنساء يتبرعن بمصاغهن ، والأطفال يغنون : « يا ربنا يا عزيز .. كبة تاخذ الإنجليز » .. « يا محنى ديل العصفورة .. وجيوشنا هي المنصورة » ..

والعروبة والإسلام ، يهتزان لمصر . من الشام .. حمل الرجال السلاح وأعدوا كتائب المجاهدين ، إلى أن منعتهم السلطات التركية من السفر . في تونس .. تتوالى خطب التعبئة في مسجد القيروان . في الهند .. ثار المسلمون ضد المحتل البريطاني مساندة لمصر . في تركيا نفسها يتحدى المشايخ السلطان العثماني ويطلبون حماية مصر ضد عدوها الأجنبي . ومراسل « التايمز » يكتب لجريدته من سوريا : « عسكرت الجنود الأتراك في اللاذقية انتظاراً لأوامر الإبحار الى الإسكندرية حتى توقف الهيجان والإخلال بالأمن ، وقاطعهم السوريون وامتنعوا عن التعامل معهم ، وأظهروا لهم الجفاء والإمتهان ، ونعوا عليهم خروجهم لحرب إخوانهم المسلمين ، وكان أولى لهم أن يحاربوا أعداءهم الثائرين عليهم . وخرج على المقاطعة أحد كبار التجار فباع الجنود الأتراك لحوماً وطعاماً ، فلم ينته اليوم حتى أحرقت متاجره كلها في المدينة . وكان الرجل يطلب النجدة كالمجنون من الأهالي فيبصقون في وجهه ولا يتحركون لمساعدته ، بل يطلبون إليه أن يسأل سادته الأتراك النجدة » .

وفي مصر نفسها تنتقل الحرب إلى الجبهة الشرقية .. وعبد الله النديم ينتقل معها . لقد كان خطيباً لحظة الخطابة .. ومعبئاً لحظة التعبئة .. ومفسراً لحظة الغموض .. وكاتباً وقت الكتابة .. ومستشاراً لحظة المشورة .. والآن هو مراسل حربي في لحظة الحرب . إنه

يصدر جريدته « الطائف » من ميدان القتال .. يرد فيها على حرب الإشاعات التي أطلقها الإنجليز والخديو ضد الثورة .. ويتلقى صورة من البلاغات القادمة لوزارة الحربية من الجبهة لكي يحولها إلى وصف ينبض بالحياة أمام القارئ . إلى الإنجليز ، حتى وهم يقتلون أبناء مصر ويغزون أرضها ، يوزعون منشورات بأنهم يفعلون ذلك نيابة عن الخديو وباسمه . وعبد الله النديم يكشف للشعب تلك الجبهة التي أصبحت الآن متضامنة في التآمر على مصر . جبهة الإنجليز والخديو وأذناب الخديو .

ولجأ الإنجليز إلى مزيد من الدهاء السياسي .

لقد ضغطوا على السلطان العثماني لكي يعطيهم هو الآخر منشوراً بعصيان عرابي . وبشرعية قيام الإنجليز بإخماد الثورة في مصر .

لقد طبعوا مليون نسخة من جريدة « الجوائب » التركية التي نشرت هذا المنشور .. لكي يوزعونها ، ليس في مصر فقط ، ولكن بين المسلمين في الهند أيضاً .

وشيء آخر : إن الخديو توفيق ـ خديو مصر ـ يقسم لشعب مصر بالإيمان المغلظة بأن الإنجليز قوم « متحضرون » .. جاءوا لمجرد إعادة الهدوء والسكينة إلى مصر ، وأن « نزول العساكر الإنجليزية إلى البر ، لم يكن بقصد احتلال البلاد أو الإستيلاء عليها » . ومرة أخرى يطبع الإنجليز مائة ألف نسخة من هذا المنشور لكي يوزعونها داخل مصر ، وخلف صفوف الجيش .

ثم .. عاد السيناريو يتحرك بسرعة من جديد . الإنجليز يخرقون حياد القناة . الغزو يبدأ من بورسعيد . بعدها الإسماعيلية . غرباً إلى الداخل . الموقعة الفاصلة في التل الكبير . الرشوة . الخيانة .

المفاجأة . إن الموقف مضطرب ، وكلما ازداد اضطراباً .. ازداد ضعاف النفوس عدداً . الرصاص . القتلى . الجرحى . الغزو البريطاني بكامل قوته .

كان هذا بعد منتصف الليل ، يوم ١٢ سبتمبر . وقبلها بـ ١٦ يوماً فقط ، أي في ٢٧ أغسطس ، رد جلادستون رئيس وزراء إنجلترا في مجلس العموم البريطاني على سؤال عن ما إذا كانت الحكومة البريطانية ترمي إلى احتلال القطر المصري .. ويومها كان رد جلادستون هو : « إن هذه الفكرة لم تخطر على بالنا قط .. وأن أمراً كهذا مخالف لمبادئ ومقاصد الحكومة البريطانية ، ومخالف لتعهداتنا أمام أوربا ، ولمقاصد أوربا نفسها » .

الآن تؤخذ الثورة في مصر على غرّة ، والإنجليز .. بالسلاح ، وبالرشوة ، وبالخيانة ، وبتفويض من الخديو ، يتقدمون ويتقدمون .

لقد تقدمت بريطانيا أخيراً في التل الكبير .

ودخل الإنجليز القاهرة .

وفي لحظة دخولهم إليها .. خرجت منها أشياء كثيرة .

القاهرة . حي العشماوي .

الفجر ــ ١٥ سبتمبر .

١٨٨٢

يتسلل نور الفجر إلى شوارع القاهرة ، فيغسلها بالتدريج خلال دقائق . إن أناساً قليلون يعودون إلى منازلهم بعد صلاة الفجر ، متمتمين في سيرهم بأن يزيل الله الغمة . إنهم لا يسألون الله رد القضاء ، ولكن اللطف فيه .

واحد منهم فقط يسير صامتاً . لقد دخل إلى منزل قريب ، وبعد

قليل خرج منه ومعه رجلان : أبوه وخادمه . إن الثلاثة ركبوا عربة حنطور حتى ساحل بولاق . عند الساحل سالت دموع وبدأ عناق .

والرجل العجوز يقول لإبنه : متى أراك يا عبد الله ؟

وعبد الله النديم يرد مشيراً إلى السماء : الله وحده يعلم ذلك يا أبي .

تمتم الرجل : الله معك يا بني ..

قال عبد الله النديم لأبيه : أسرع يا أبي إلى المركب قبل أن ترانا العيون .

وفي اللحظة التي استقل فيها الأب المركب النيلي متجهاً إلى الإسكندرية ، تنفيذاً لرغبة ابنه ، عاد عبد الله النديم وخادمه مصباح ، ليس إلى البيت في هذه المرة .. ولكن إلى منزل صديق له في حي بولاق .

وبمجرد أن دخل النديم من الباب ، مع خادمه ، أغلقه الشيخ مصطفى صاحب المنزل ، ولم يفتحه من جديد إلا بعد عشرة أيام .

الآن يخرج النديم في زي آخر غير الذي دخل به . يخرج مرتدياً زعبوطاً ، هو ثوب من الصوف الأحمر الخشن ، بعمامة حمراء فوق رأسه ، ومنديل على عينيه ، وعكاز في يده اليمنى ، وخادمه يمسك بيده اليسرى ليقوده في الطريق ، ولحية في طريقها إلى الطول منذ عشرة أيام .

كان الوقت ليلاً ، والملاحون في المراكب الشراعية على ساحل بولاق يتبادلون مع بعضهم أخبار ما سمعوه طوال اليوم في القاهرة . إن الخديو عاد إلى القاهرة هذا الصباح .. ومعه قائد جيش الإحتلال البريطاني . وخلال عشرة أيام مضت ، منذ دخول الجيش البريطاني

إلى القاهرة في ١٥ سبتمبر ، وصل عدد المقبوض عليهم بتهمة الإشتراك في الثورة ، إلى ثلاثين ألفاً . والثورة نفسها أصبح إسمها الآن « الهوجة » أو « هوجة عرابي » .. وزعماء الثورة جميعاً تم القبض عليهم ، وهم الآن في السجن . كلهم مساجين .. إلا واحداً .. هو عبد الله النديم .. الذي حددوا مكافأة كبرى لمن يعثر عليه ، حياً أو ميتاً ، قدرها ألف جنيه .

إن أحداً لا يعلم أن هذا الشيخ ، المتنكر في زي مشايخ الطرق الصوفية الرفاعية ، هو نفسه عبد الله النديم .. القلم الذي أصبح لساناً لثورة بأكملها . إنه الآن في طريقه إلى الإسكندرية .. فربما يستطيع الهرب منها إلى الخارج .

ولكن الفكرة لم تستمر طويلاً

ففي اليوم التالي وصلت المركب إلى مدينة بنها ، قبل الكوبري أمام المدينة . وكانت المفاجأة هي أن الكوبري مغلق أمام المراكب بأمر الحكومة . مغلق في غير موعده . إن الشرطة على الشاطئ تشير إلى المراكب بأن ترسو للتفتيش .

وأحد الملاحين يتمتم للآخر : تفتيش ؟ ما الخبر ؟ اللهم اجعله خير ..

رد عليه زميله : ومن أين يأتي الخير .. إذا كانت الدنيا كلها مقلوبة بحثاً عن زعماء الثورة ؟

ــ ألم يقبضوا عليهم جميعاً ؟

ــ نعم .. إلا واحداً .. هو عبد الله النديم .

والشيخ ذو الزعبوط الأحمر والعمامة ، يتمتم بينهم على المسبحة ، بينما الخادم إلى جواره يبتهل قائلاً له : أدعي لنا يا سيدنا الشيخ ..

والشيخ يدعو : سليمة إن شاء الله .. خير إن شاء الله ..

لقد حان الدور على المركب للتفتيش ، والشرطة تهبط إليها . إنهم يتفحصون الركاب واحداً واحداً ، صائحين : ألم يرَ أحدكم الهارب عبد الله النديم ؟ لقد اتجه إلى ساحل بولاق منذ عشرة أيام .. وهناك ألف جنيه مكافأة لمن يرشد عنه ..

والشيخ ذو الزعبوط الأحمر يسأل الشرطة : وماذا فعل هذا النديم يا بني لكي ترصد الحكومة له هذه المكافأة الضخمة ؟

تطلع إليه رجل الشرطة مستغرباً ، وقال له : ماذا فعل ؟ الظاهر أنت على نياتك يا سيدنا الشيخ .. بركاتك .. ! اتفضلوا .. مع السلامة .. !

بمجرد انصراف الشرطة ، نهض الشيخ الوقور ممسكاً بيد خادمه في الطريق إلى النزول نحو الشاطئ .

قال له أحد الملاّحين : إلى أين يا مولانا ؟ .. إبق معنا فأنت صاحب بركات ..

تمتم الشيخ : جزاك الله خيراً يا بني .. سأنقل بركاتي إلى مركب آخر .. !

واتجه الشيخ وخادمه إلى مركب آخر ، متجهة إلى دمياط هذه المرة . لماذا دمياط ؟ لأن النديم سمع بأن حاميتها لم تستسلم بعد للإنجليز . هل ما زال النديم يريد أن يقاوم ؟ نعم . الثائر يبقى حتى النهاية يقاوم . يتخفى ويتنكر ويرتدي العمامة .. ولكن يقاوم .

لكن الأخبار في الطريق تأتي من الشاطئ بأن حامية دمياط قد استسلمت . إذن .. لا دمياط .

لقد هبط عبد الله النديم في المنصورة .. شيخاً من مشايخ الطرق

الصوفية ، وضيفاً على مسجدها لثلاثة أيام ، قبل أن يتجه مرة أخرى إلى قرية قريبة من المنصورة .. هي « منية الغرقا » .. ففي القرى ، ربما تصبح عيون الحكومة أقل يقظة .. ومروءة الأصدقاء أكبر قدراً . في القرى يستطيع عبد الله النديم أن يستريح ، ويتنفس ، وينتظر فرج الله .

إن الرجل الذي كان لساناً لثورة ، أصبح محكوماً عليه من الآن بالصمت والإختفاء والتنكر والمرارة . مرارة المطاردة التي جعلته الآن غريباً في بلده .. متخفياً بين مواطنيه .. متحسساً وقع أقدامه على التراب الذي حارب من أجل حريته .

إنها المرارة . المرارة . المرارة .

المرارة من الخديو ، الذي باع بلده للمحتل الأجنبي لمجرد أن يحتفظ بكرسيه . خديو باع نفسه للشيطان ، وداس على الشعب الذي أطعمه والبلد التي آوته . خديو .. دخل إلى القاهرة منتشياً في حماية حراب الإنجليز . إنه لن يكون أقل « إنجازاً » من أبيه .. فأبوه أصاب البلد بالخراب .. أما هو فقد أصابها بالإحتلال .

دخل الخديو إلى القاهرة يوم ٢٥ سبتمبر ، مصحوباً بقائد جيش الإحتلال البريطاني ، وفي اليوم التالي أقام احتفالاً ضخماً في سراي الجزيرة ، جمع فيه الأعيان والعلماء والكبراء لكي يخطب فيهم قائلاً : « أيها العلماء .. إلزموا وظائفكم ولا تتعدوها .. وتجنبوا السياسة والمفاسد فتنالوا رضاي .. ومن خالف منكم ، يعاقب أشد العقاب » !

إن الثورة علمت الناس السياسة . والآن يأتي الخديو ، والإحتلال ، لكي يعاقبَ الناس على السياسة التي أصبحت جزءاً من « المفاسد » .. ومن ثم تستحق أشد العقاب !

وعبد الله النديم ، الآن في مخبئه الأول ، تصل إليه الأخبار أقرب إلى الصدمات . فخديو مصر لا يستحي من عمل وسام جديد باسم « النجمة المصرية » لتوزيعه على ضباط وجنود الجيش الإنجليزي مكافأة لهم على احتلال مصر . والخديو يقيم حفلاً ضخماً ، تضاء من أجله شواطئ النيل في مدينة القاهرة ، لتكريم الضباط الإنجليز . ضباط الإحتلال . في الحفل طعام ورقص وغناء وهدايا وأوسمة لضباط الإحتلال . ليس هذا فقط .. بل أن الخديو يشكل لجنة لتعوض الأوروبيين عن « خسائرهم » في « مذبحة » الإسكندرية . « مذبحة » لا يكفي أن الأوروبيين بدأوها ، ولا أن المصريين دفعوا ثمنها دماً .. ولكن يجب أيضاً أن تعوضهم مصر فوق ذلك نقداً وعداً ، بدفع عشرين مليوناً من الدولارات !

إن عبد الله النديم كان لساناً لثورة . الآن أصبحت الثورة « هوجة » وأحمد عرابي عاصياً .. وجنود الثورة أصبحوا الآن وباء يجب استئصاله .. ولسان الثورة يجب قطعه .

لقد أصبح الآن محكوماً عليه بغير إدانة .. فوطنيته هي التهمة ، ولسانه هو الجريمة ، وقلمه هو دليل الجريمة .

كان الناس يسعون إليه أينما وجدوه . والآن يتهرب منه الجميع تحت حكم البطش والإرهاب والإحتلال . حتى خادمه ، فكر للحظة في أن ينجو بجلده من هذا العذاب . عذاب الحياة في الظلام ، والشك في كل شخص ، وتوقع المصيبة في كل لحظة . لقد ظل الخادم يبكي ، فإذا استمر البكاء هي الفضيحة .. وإذا هرب فهو الإعتراف . ولأن النديم مضطر إلى استخدام الحيلة حيث لا يجدي العقل ، فإنه اشترى الجريدة الرسمية وأخذ يقرأها أمام خادمه الذي

لا يعرف القراءة . وفجأة تصنع النديم الفزع أمام الخادم الذي لا ينقصه الفزع . ما الخبر ؟ إن الخبر هو : « إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عني ألف جنيه .. ولمن يأتيها برأسك خمسة آلاف » !

كان هذا كل شيء. بعدها أصبح الخادم يبالغ في التنكر أكثر من سيده ، واستراح النديم من القلق الذي يشاركه مخبأه !

الآن أصبحت مشكلة عبد الله النديم .. هي عبد الله النديم . مشكلته أنه اعتاد الحياة في الشارع ، ووسط الناس ، يتحدث ويكتب ويحارب بقلمه . الآن هو مضطر إلى التنكر والبعد عن الناس .. بلا قلم ، ولا جريدة ، ولا خطابة ، ولا حتى صديق يقتسم معه همومه . إن الشارع الذي كان صديقه أصبح الآن عدوه ... والنهار الذي شهد صولاته وجولاته قد أصبح الآن خطراً عليه .. والليل الذي استحب فيه مناظراته وجلساته ، أصبح الآن ظلاً يحميه من عيون السلطة .

إن نجاحه الآن ، ولتسع سنوات تالية ، هو أن يتخلص من كل ما يدل على شخصيته . ما يدل على أنه عبد الله النديم .

إن اسمه سيكون في مرة يوسف المدني ، وفي مرة أخرى محمد الفيومي .. ثم علي اليمني .. وسي الحاج علي المغربي .. والسبكي .. والغزي .. والناجي .. والمصري .. والشرقاوي .. والنجدي ..

وهو يظهر في المنصورة .. بعدها في منية الغرقا .. والعتوة .. وطنطا .. والكوم الطويل .. والجميزة ..

وهو سوف يكتب فيما بعد مسجلاً عن تلك الفترة : « خرجت من مصر (القاهرة) مستخفياً فدرت في البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواي

التي أدعيها ، من قولي أني مغربي أو يمني أو مدني أو فيومي أو شرقاوى . أو نجدي .. وأصلح لحيتي إصلاحاً يوافق الدعوى أيضاً ، فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة ـ مثلاً ـ وأبيضها في بلد ، وأحمرها في قرية ، وأسودها في عزبة » .

وهو الآن في منفاه وغربته داخل بلده .. يتحمل ما لا يطاق ، ويصبر على ما لا يحتمل ، ويواجه ما لا يتوقع ، بغير أن يهتز إيمانه لحظة واحدة بصحة القضية التي حارب من أجلها .

إنه يتزوج في مخبئه ، ويزوّج خادمه ، فتتشاجر الزوجتان . يأتي عليه العيد فلا يجد طعاماً له ولمن معه . تغضب منه زوجته فتلطمه على فمه . تشتد ضده مطاردة الحكومة فيضطر إلى الحياة في قاعة مظلمة يرشح الماء من أرضها ، لتسعة أشهر متواصلة . إنه ينجب في غربته ، من مرات زواجه الثلاثة ، سبعة أطفال .. فيراهم أمواتاً وعمرهم شهور ، واحداً بعد الآخر .

وهو يصف نفسه قائلاً : « كساني نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا .. » .

إن هذا لم يكن غريباً ، فشركاء الكفاح والثورة تفرقوا ، البعض مات ، والبعض نفي ، والبعض في السجن . والأصدقاء بعيدون عنه حتى ولو كانوا قريبين منه ، والمبادئ التي آمن بها وحارب من أجلها أصبحت الآن في التراب بعد أن جعلها الإحتلال عقوبة وتهمة تفتح باب السجن . والتاريخ يتم تزييفه علناً ، فتصبح الثورة عصياناً ينكره الجميع ، والخضوع للإحتلال واجباً مطلوباً من الجميع .

إن النديم نفسه يصف ما حدث في خطاب أرسله باسم متنكر إلى عرابي في منفاه بسيلان .. فيقول : « عندما دخل العدوان وتربع

الطغيان في الديوان ، تجملوا بالثياب وبرموا الأشناب ، وتنهدوا فرحاً واختالوا مرحاً ، وجردوا سيوفهم التي ما سلّت ، وحرّكوا أيديهم التي قد غلت ، وقابلوا الإنجليز بالولائم وتقربوا إليهم بالجرائم ، وقدم لهم المنافقون النفائس ، وصلّت لهم النصارى في الكنائس ، وتلقوهم بالموسيقى والأغاني ، وتراقصوا معهم بالغواني وكأنهم الظافرون بالإنجليز أو أنهم من غير الوطن العزيز ، وجمعوا نقوداً من سائر الناس وصنعوا سيفاً لولسلي وسيفاً لسيمور وطبنجتين مرصعتين بالماس ، وكتب عليها مشير المنافقين (سلطان باشا عميل الخديو) : هدية ومعرفة جميل من المصريين ، فدونوا لهم تاريخ ذلة بإنتصارهم بعدو الملة ..

« ثم وضعوا الرحمة تحت نعالهم ، وجعلوا القسوة أجمل فعالهم ، وداروا حول حزبنا في البلاد يتصيدونهم في الأصفاد ، ثم ساقوهم إلى السجون وموارد المنون . وقد خاطبوا العلماء خطاب الأسافل ، وأخرجوا الأشراف لكنس المزابل ، وأخذوا بالظن والتخمين وشنقوا الأبرياء من المواطنين فشنقوا إثني عشر رجلاً في طندتا (طنطا) بشهادة امرأة يهودية ، وتسعة بشهادة إلياس ملحمة في الإسكندرية ، وغيرهم في غير هاتين ممن لم تطرف لهم في الحركة عين ..

« وساقوا الشيخ عليشا إمام السنة إلى مستشفى قصر العيني في الدجنة ، كأنه مجرم أو لفيف ، أو أنه لم يكن حافظ الشرع الشريف وهنا جاءه العدو وسقاه ، فانتقل إلى رحمة الله . وساقوا الشيخ العدوى وبقية العلماء وسجنوهم سجن الأدنياء ، لا دين يردعهم ، ولا وطنية تنفعهم ...

« .. ولما سمعوا كشيش الأفعى وعلموا أن قد خاب منهم المسعى ،

أخذوا يتشفون من بعض الأفراد ويتوعدونهم بالقتل والابعاد ، طلباً للبرطيل ، بالترهات والأباطيل .. وإني لآسف على يوسف إبي ديّم .. وما أحسن ما أبداه من الثبات وهو تحت مشنقة الممات حيث قال له إبراهيم أدهم (من عملاء الخديو) هل تريد شيئاً نحضره إليك قبل القضاء عليك ؟ فقال أريد لمصر الإستقلال الذي كان معقد الآمال ، وأي شيء بعد أن قطعتم آمالنا ، ولكن اليوم لكم وغداً لنا ...

« ولما انتهى أمر الإنتقام بالنفي والإعدام ، ظن الأعداء أن الجو قد خلا والوقت قد حلا .. ولم يعلموا أنهم يخادعون الله وهو خادعهم ، ويصدعون الدين وهو صادعهم ، فأطالوا النوم والغطيط ، والله من ورائهم محيط » .

مع ذلك ، فإن للثورة والوطنية والكرامة والمروءة جنودها الذين لا يغيرون جلدهم مع تغير حالة الطقس . وإذا كان النديم قد رأى نفوساً انهارت .. فإنه رأى أيضاً مروءة ظهرت .. وصدوراً تحملت .. وقلوباً اتسعت .. ونفوساً واصلت الصمود .. وضمائر رفضت أن تبيع نفسها لعدو بلدها .

رأى النديم في ٢٠ يونيو سنة ١٨٨٣ ، أي بعد الاحتلال والإرهاب والبطش والشنق والمطاردة والتشهير بأكثر من تسعة أشهر ، ان الحكومة قد أعلنت عن « اكتشاف جمعية سرية غرضها إخراج الإنجليز من مصر وقلب نظام الحكم فيها . ولقد أطلقت هذه الجمعية على نفسها اسم « المؤامرة الوطنية المصرية » وجاء في قانونها الأساسي الذي ضبط ، أنها تقبل في عضويتها كل شخص مصري أو أجنبي ، مسلم أو مسيحي ، يدفع خمسة جنيهات إنجليزية إعانة للجمعية ، ويقسم اليمين على

الطاعة العمياء ، وأن تكليف أحد الأعضاء بشيء لا يكون إلا بالإقتراع. وبعد ثبوت كفاءة العضو للتنفيذ .. وبعد البحث والتحري قبض على المتهمين .. واستمر التحقيق معهم جملة أشهر ، وأخيراً أصدرت المحكمة حكمها في ٣ نوفبر سنة ١٨٨٣ .. » .

وكان من بين المتهمين في هذه « المؤامرة » .. « الشيخ سعد زغلول الطالب بالأزهر » . ـ إسم لا يعرفه أحد الآن .. ولكنه ، من باطن ثورة عرابي ، سيقود الثورة التالية ضد الإحتلال البريطاني في سنة ١٩١٩ .

وفي مخبئه وحياته الشخصية ، رأى النديم خادمه أولاً .. الذي أخلص له وبقي معه ، فعلمه النديم القراءة والكتابة وحفّظه جملة سور من القرآن الكريم وعلمه مبادئ الفقه والتوحيد .. واتخذه صاحباً .

ورأى النديم فلاّحاً اسمه « أحمد جوده » .. يعرض نفسه للهلاك من أجله .. ينتقل معه في الظلام ويرشده في الطريق .. بغير أن يخشى حكومة بأكملها .

ورأى النديم عمدة قرية « العتوة » .. واسمه الشيخ محمد الهمشري .. يأتيه لكي يشده معه خارج مخبئه ، ويصحبه إلى مكان آخر . إنه لم يأته للقبض عليه ، ولا لتسليمه لرجال الإدارة .. ولكن ليصحبه إلى مخبأ آخر ، بعد أن علم أن الشرطة قد عرفت مخبأ النديم . ولم يكن هذا المخبأ الآخر سوى منزل العمدة نفسه .. مخاطراً في ذلك بأشياء كثيرة .. أقلها السجن .

ورأى النديم مأذون قرية .. يشغل نفسه به ، ويكسر حدة وحدته وعزلته .. يأتي لمسامرته والاستماع إليه ، بغير أن يفكر لحظة في

الحصول على الألف جنيه التي رصدتها الحكومة لمن يرشد عن النديم . وبدلاً من ذلك فإنه كان أول من ينذره بالخطر ويصحبه إلى مخبأ جديد .

ورأى النديم حلاقاً في قرية «شباس الشهداء» يؤويه في بيته .. ويغمره بكرمه كرم من ينفق على النديم ما يحرم منه أسرته .

ورأى النديم مأمور مركز ، تعرف على النديم أثناء تنقله . وبدلاً من أن يقبض عليه بحكم وظيفته ، انتحى به جانباً ، ثم أخرج له كل ما معه من نقود ، وقال له : تعال معي من هنا لأرشدك إلى الطريق الصحيح إلى الهرب !

ورأى النديم صبياً في الخامسة عشرة ، مات أبوه الذي كان يؤوي النديم ، فيصمم الفتى على أن تنتقل إليه مسؤولية حماية النديم .. لأن الشرف والكرامة والوطنية لا تحددها شريحة من العمر .

ورأى النديم صديقاً فرنسياً .. يتطوع لكي ينقل منه وإليه الرسائل . ينقل إليه الأخبار والإشاعات وتطورات الأسرة .. ويتطوع بإطلاق الإشاعات عن نجاح النديم في الهرب إلى ايطاليا ومنها إلى فرنسا .. حتى تخف مطاردة جواسيس السلطة ضد النديم . إن الصحف وقعت في هذا المطب فعلاً ، ونشرت الإشاعة على أنها حقيقة .. الأمر الذي جعل السلطة ترسل أحد أتباعها إلى مدينة «ليفورنو» الايطالية ، مكلفاً بمهمة واحدة : اغتيال عبد الله النديم !

وقرأ النديم مشروع قرار قدمه النائب الإنجليزي «ويلفريد ويلسون» إلى مجلس العموم البريطاني في سنة ١٨٨٧ بشأن استدعاء القوات الانجليزية في مصر فوراً ، قائلاً وهو يعرض مشروعه : «لقد عملنا على زيادة دين مصر من تسعين إلى مائة مليون جنيه ، وذبحنا عدة آلاف من المواطنين ،

وكممنا المجلس الوطني ، وضربنا المدينة الرئيسية للبلاد بالقنابل في ظرف غاية في الفظاعة ، ورفعنا قيمة الضرائب ، ونشرنا الدعارة والفجور في العاصمة ، وبذرنا بذور الشقاق بين الخديو والشعب ، وسحقنا أول بوادر الإستقلال التي ظهرت في الأمم الشرقية منذ أجيال مضت» .

وفي نفس السنة ، قرأ النديم بعدها للخديو نفسه ، خديو مصر ، حديثاً لمراسل جريدة التايمز في مصر يقسم فيه متطوعاً بأنه «سيكون صديقاً لانجلترا إلى الأبد» !

نعم . رأى النديم كل هذا .. وأكثر . رأى الوطنية والخيانة . رأى الوفاء والغدر . رأى أصدقاء المجد وأصدقاء المحنة . رأى الدنيا تقبل عليه كما لم تفعل مع أحد .. وتدبر عنه كما لم يحدث لأحد . رأى من الحياة نورها وظلامها .. ومن الناس أفضلهم وأسوأهم .. ومن السلطة نفاقها وغدرها .

وفي كل مرة ، كان الصديق الواحد الوفي يمسح من قلب النديم مرارة مائة غادر متنكر . إن الحياة الطين والورد معاً .. وهي الأرض والسماء .. النور والظلام .. معاً .. وعلى النديم أن يدفع الحياة في الوحل ثمناً لرعاية السماء له في كل مرة . ان عليه أن يتمسك بالمبدأ ، ولا يتنكر للثورة ، أو يفقد ثقته بالذين عاش من أجلهم . في الواقع ان الناس كانت تحييه في كل يوم بالأساطير التي نسجوها حوله . قالوا انه مات في التل الكبير شهيداً للوطنية .. وقالوا إن أحد القناصل الأجانب تطوع بحمايته .. وقالوا إن وزير الداخلية يتستر عليه .. وقالوا إن السلطان العثماني سمع صوته مؤذناً بالقرب من قصره ، فاحتضنه وآواه وحماه .. وقالوا .. وقالوا .. وكلها أساطير هي في النهاية تعبير عن مشاعر كامنة بالنسبة للنديم نفسه .

أما بالنسبة لعبد الله النديم نفسه .. فإن عليه أن يجعل من حياته تطبيقاً عملياً لما كان يدعو الناس إليه . عليه أن يثبت درساً جوهرياً وأساسياً للغاية : إن المبادئ هي ما يفعله الإنسان .. وليس فقط ما يقوله .

قرية « الجميزة » .

الليل .

٢ اكتوبر – ١٨٩١ .

منذ شهرين يقيم في هذه القرية – احدى قرى مديرية الغربية – رجل تقي فاضل اسمه « الشيخ ابراهيم الشهاوي » . رجل ، يحفظ القرآن ويفسره ويتحدث في الأدب والشعر ويأسر قلوب مستمعيه الذين أصبح عمدة القرية نفسه في مقدمتهم .

إن الشيخ ،ابراهيم الشهاوي يخرج صباحاً إلى الحقول ، ليجلس هناك قارئاً وواعظاً ومتأملاً .. وفي صحبته رجل أو اثنان يستمعان إليه أو يتناقشان معه .

فجأة يمر رجل من أهل القرية ، وهو في طريقه إلى حقله ، فيلفت المشهد نظره . مشهد رجل يقرأ ومعه مأذون القرية .. ثم رجل ثالث يجلس بعيد عنهما .

كان اسم هذا العابر هو «حسن الفرارجي» .. وهو الآن مزارع ، ولكنه كان قبل الإحالة إلى المعاش جندياً في الشرطة السرية التي كلفتها الحكومة بالبحث عن النديم .

وبغريزة المخبرين ، شك الرجل في هذا الشيخ . لقد ظل يتقصى ويتقصى ، ويتقرب ويتقرب ، ويتأمل ملامح الشيخ الشهاوي .. إلى أن اكتشف ان ابراهيم الشهاوي هو نفسه عبد الله النديم .

لقد سافر الرجل فوراً إلى القاهرة . هل صحيح من يرشد عن عبد الله

النديم يحصل على ألف جنيه ؟ نعم . نعم . يحصل عليها من الحكومة ؟ طبعاً . نقداً وعداً وفوراً ؟ أكيد . اذن : تعالوا أدلكم على مكانه .

أعلنت الشرطة حالة الطوارئ .. وذهب وكيل حكمدار الغربية بنفسه ، متنكراً ، على رأس قوة ضخمة من الجنود ، إلى قرية « الجميزة » . وفي الليل تم حصار القرية بأكملها .

في الصباح اقتحم القائد الهمام منازل القرية . أين يقيم الشيخ ابراهيم الشهاوي ؟

لا أحد يرد ، ولا أحد يدل ، ولا أحد يعرف .

ولكن مرشد البوليس السري يعرف . انه متأكد من وجود عبد الله النديم بقدر تأكده من الألف جنيه .

أما عبد الله النديم نفسه ، فقد بدأ يحس بحركة غير عادية خارج الدار . وعندما صعد إلى السطح محاولاً استخدام حيلة جديدة في الهرب .. فوجئ بالبنادق مصوبة نحوه من كل اتجاه .. والجنود يحاصرونه من كل جانب .

لقد استسلم .. أخيراً .

وفي تلك الليلة بات سكان القرية يفكرون في كارثتين : كارثة تتعلق بعبد الله النديم ، ماذا يفعلون به الآن وقد تم ترحيله إلى طنطا بعد تسع سنوات وأكثر من الإختفاء ؟ هل يسجنونه ؟ يقتلونه ؟ ثم .. هل كان بيننا لمدة شهرين زعيم وطني كبير كعبد الله النديم بغير أن نعرف ؟

وشيء آخر : إن القرية كلها ، بغير اتفاق ، قررت مقاطعة المرشد السري « حسن الفرارجي » الذي يعيش بينهم بغير أن يعرفوا أن الجاسوسية تسري في دمائه . يعيش بلا ضمير ، ولا وطنية .

أما « حسن الفرارجي » هذا .. فقد صحب قوة البوليس التي قبضت

على النديم إلى مركز «السلطة» ومنها إلى طنطا . إنه يريد الألف جنيه . وكل شخص يعده خيراً ، فقط عليه أن يذهب إلى الحكمدار ، ثم رئيس الحكمدار ، ثم رئيس الرئيس .. و..

أخيراً قالوا له : ولا ألف جنيه . ولا جنيه !

وذعر مرشد الشرطة السرية من هذه الصدمة ، ولم يفهم في الحقيقة معناها . كيف ذلك والجميع يعرفون ان مكافأة الإرشاد عن عبد الله النديم هي ألف جنيه ؟

وقيل له : نعم ، كانت هناك مكافأة . وكانت قيمتها ألف جنيه . سقطت بعد مرور سنة على اختفائه . الآن مرت أكثر من تسع سنوات .

تساءل مرشد الشرطة السرية المتقاعد : ولكن .. لماذا لم تذكر الحكومة ذلك عندما جئت إلى قصر الخديو قبل القبض على النديم ؟

وكان الرد : ان الحكومة ليست مضطرة إلى أن تذكر أي شيء .. لأي أحد . مع السلامة !

القاهرة .
١٢ أكتوبر .
١٨٩١ .

اليوم يجتمع مجلس الوزراء برئاسة عبد الرحمن باشا رشدي . اجتماع هدفه بحث مسألة واحدة : مصير عبد الله النديم .

إن النديم تم القبض عليه . لقد اضطر خادمه – تحت ضغط التعذيب – إلى البوح بأسماء من ساعدوا النديم على التنكر والاختفاء .. فتم القبض عليهم جميعاً . أما النديم نفسه فقد صمم على أن الجميع لم يكونوا يعرفون بشخصيته الحقيقية ، ولم يذكر أية أسماء .

وعندما ذاع الخبر وانتشر ، فوجئت الحكومة بأن الرأي العام قد عاد ينشغل من جديد بهذا الرجل الأسطورة – عبد الله النديم . إن الحكومة تستطيع أن تسجنه ، أو حتى تعدمه ، ولكن هذا معناه أن توقظ في الناس مواجع قديمة وآلاماً ما زالت كامنة في النفوس . انه سيجعل الناس يتذكرون مرة أخرى ما لا تريده الحكومة . يتذكرون الثورة والخديو توفيق والاحتلال وتآمر الخديو مع الاحتلال . يتذكرون الاستقلال ودفاع مصر عن الاستقلال والبطولة والمبادئ وهذا الرجل الذي لم يبع المبادئ و.. و..

هناك اذن عقوبة أخرى : النفي .

فنبفي النديم إلى خارج مصر تكون الحكومة قد ضربت عصفورين بحجر واحد : تظاهرتَ بالرحمة .. وسدت الطريق على ذكريات الماضي.

هكذا انتهى مجلس الوزراء أخيراً إلى قرار بإبعاد عبد الله النديم إلى الشام .

وخلال ثلاثة أيام .. سوف يقف جمع غفير من الناس في الميناء ، احتفالاً وترحيباً بوصول «الزعيم الوطني الكبير» عبد الله النديم . ونزل النديم ، لكي يقول له الجميع : أهلاً بك في يافا .. أهلاً بك في فلسطين .

ودمعت عينا النديم .

إن للوطنية أنصاراً وأصدقاء وجنوداً في كل مكان .

القاهرة .
٢٣ أغسطس .
١٨٩٢ .

الناس تتساءل في الشوارع : ما هذا ؟

- هذه جريدة مصرية جديدة باسم «الأستاذ».

- ومن هو محررها ؟

- إنه عبد الله النديم نفسه .. هل تذكره ؟

- وهل كنت نسيته لكي أتذكره ؟ .. أليس عبد الله النديم مبعداً إلى فلسطين بأمر الحكومة ؟

- نعم .. ولكن الحال الآن غير الحال . لقد مات الخديو توفيق .. والخديو الآن هو عباس . وعباس كما تعلم شاب في الثامنة عشرة ، ويأمل في إصلاح بعض ما أفسده أبوه . يريد أولاً أن يمارس بعض سلطاته كخديو بعد أن سحب الاحتلال من أبيه كل السلطات . ألم تسمع عن الشقاق بينه وبين اللورد كرومر مندوب الاحتلال البريطاني في مصر ؟

- نعم .. ولكن ما علاقة هذا بعبد الله النديم ؟

- علاقته ان الخديو الجديد يريد أن يتقرب من الشعب استعداداً لصدامه مع كرومر . والنديم كان دائماً قلماً ولساناً لهذا الشعب . لهذا بادر عباس بالعفو عنه في ٣ فبراير من هذا العام .. وعاد النديم إلى مصر في ٩ مايو .. وها هو اليوم يصدر العدد الأول من صحيفته الجديدة «الأستاذ» .

- ولكن الجريدة غير سياسية ..

- نعم .. لأنهم اشترطوا على عبد الله النديم قبل العودة إلا يشتغل بالسياسة . هكذا أصدر النديم هذه الجريدة ، باسم أخيه ، لتكون «علمية تهذيبية فكاهية لا تتعرض للأمور السياسية الحاضرة ، الداخلية والخارجية» .

- ولكن .. هل يلتزم النديم بذلك ؟

– انتظر .. لنرى !

وفعلاً ، لم يمض وقت قصير حتى عاد المحارب القديم ، ابن البلد عبد الله النديم ، إلى خوض معركته الحقيقية : الدفاع عن استقلال مصر ضد الاحتلال . ولكن النديم في هذه المرة يبدأ من نقطة أكثر انخفاضاً . إن النكسة السياسية والعسكرية صحبتها نكسة أخلاقية عمت مصر كلها . والمحتل الذي غزا مصر وبقي فيها لا يريد أن يحتل أرض مصر فقط .. ولكن أيضاً نفوس أبنائها . لهذا فإن الانهيار النفسي والأخلاقي والفكري هو ضمان أكيد لاستمرار الاحتلال .. وعلى الذين يحاربون الاحتلال أن يبدأوا أولاً بمحاربة هذا الإنهيار العام . لقد قتل الاحتلال جيش مصر.. ويجب منعه الآن من أن يقتل روح مصر .

هكذا بدأ عبد الله النديم يعلنها حرباً بلا هوادة ، في جريدته الجديدة ، ضد انتشار محلات الخمور والقمار والمخدرات .. وضد انطواء الناس على أنفسهم واعتبارهم ان القضايا العامة هي مسؤولية أطراف أخرى غيرهم .. وضد اليأس الذي ينميه الاحتلال فيهم .. والرغبة في التقليد والتفرنج في كل شيء ، ابتداء من التعليم إلى الملابس .. وضد هذا التخاذل الذي استسلم له جيل بأكمله بحجة أنه حاول وفشل . إن في البلد جيلاً جديداً يجب أن يعطي لمصر روحاً جديدة . روحاً من الأمل والمقاومة والتحدي .

إن النديم لا يخترع شيئاً يضيفه إلى الواقع .. انه فقط يعبر عن روح مصر الكامنة في الواقع . انه يزيل الصدأ من النفوس واليأس من القلوب والسلبية من العقول . انه يدعو المثقفين وأهل الرأي إلى أن يعقدوا الاجتماعات ويثقفوا الشعب ويشرحوا له ماضيه . إنه يقارن بين مصر وأوربا .. لماذا تأخر طرف وتقدم الآخر .. لماذا يخدعنا الأوربيون

حينما يقولون «لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا» .

والنديم يكتب : «.. دعونا من المجاملة في الكلام والتستر على ما استهجنه العقلاء . فما ابتدعت المحافل إلا لتصير الممالك دستورية . وقد نجحت في ذلك وقلبت كثيراً من ممالك أوربا ، وحيث نزعم اننا بين يدي حكومة دستورية فلم لم نؤيدها بعصبية وطنية ؟ .. فان بقي الأمراء في البيوت والنبهاء في المحافل على ما هم عليه ، والعقلاء صامتين ، والضعفاء طائرين حول أوهام الأجنبي وارهابه ... فلا تعترض على بربر أفريقيا – فضلاً عن الإنجليز – إذا جاءوا واستعمرونا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا» .

والنديم يكتب : «.. فأي مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية . أصرنا أقل درجة من فعلة الإنجليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم ؟ ... فيا بني مصر لم تبق قطعة من الأرض إلا والجرائد تنقل لكم أخبارها وتريكم أعمالها في طلب استقلالها ، ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصبية الدينية ... وليكن المجموع رجلاً واحداً يسعى خلف شيء واحد هو حفظ مصر للمصريين ..»

إن الناس تقبل على الجريدة الجديدة لأنها تعطيهم روحاً جديدة . روحاً وجدوا فيها وطنهم وبلدهم وأنفسهم .. بعد أن سلط الاحتلال عليهم صحفاً عميلة تغسل نفوسهم من كل ما هو وطني ومصري وعربي .

ولكي ندرك عنف المعركة التي يخوضها النديم ، يجب أن نقرأ الصحف الأخرى التي تصدر في تلك الفترة .. ونرى في أي طريق تريد أن تسحب الرأي العام المصري . يكفي أن نقرأ مثلاً ما تكتبه جريدة «المقطم» عن الاحتلال البريطاني .. في مجال قيامها بتوبيخ هؤلاء المصريين الذين

يطالبون بالاستقلال ، فتقول ان العاقل هو من «.. يرى اتباع سياسة المحاسنة والموادعة . ثم ما هو الاستقلال الذي يبكونه والحرية التي يندبونها ؟ ففي زمان أي الآباء والجدود تمتعوا باستقلال وحرية حرموهما الآن ؟ ومتى كان زمام البلاد في قبضة يدهم وسلب الآن منهم ؟ وأي شيء تغير عليهم ؟ وما ضرهم إذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة (بريطانيا) بينهم ، لا سبع عشرة دولة أجنبية ؟ وأي خسارة خسروها بتقليد رجال من الإنجليز وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الأجانب . وما ضرهم الجنود الإنجليزية لزيادة توطيد الأمن ، ومشاورة دولة واحدة لا مرضاة سبع عشرة دولة ؟ ..»

إن «المقطم» تطالب صراحة بزيادة «الإنجليز – في مصر – عما هم عليه الآن» .. وترى ان «الصورة تقتضي إبقاء التعليم – في مصر – بأيدي الأساتذة الأوربيين» .. والزراعة يجب أن يكون الإشراف عليها للاحتلال البريطاني الجاثم على أنفاس الفلاحين لأن «.. الهناء الذي شملهم وشمل وطنهم كان للاحتلال فيه اليد الطولى» ! !

تلك هي مجرد نماذج من «غسيل المخ» الذي كانت الصحف العميلة للاحتلال تحاول أن تمارسه مع شعب مصر عندما أصدر عبد الله النديم صحيفته «الأستاذ» .

لهذا لم يكن غريباً أن ارتفع توزيع الصحيفة الجديدة إلى رقم قياسي بمجرد صدورها .. فأصبحت أكثر الصحف انتشاراً في مصر ، بل وأعيد طبع الأعداد الأولى منها .

وأحس الناس انهم على أبواب صحوة وطنية جديدة ، وان عليهم أن يشجعوا كل شقاق بين الخديو والاحتلال ، إذا كان الخديو جاداً في محاولة الاستقلال عن الاحتلال البريطاني .

وهكذا خرجت المظاهرات الضخمة ضد الاحتلال ، وأسمع الشعب صوته بوضوح للجميع .. وبدأت الصحف الإنجليزية في لندن تعبر عن انزعاجها من هذا التيار الوطني الجديد في مصر ، وحذرت السلطات البريطانية من عودة هذا الثوري القديم ، عبد الله النديم ، إلى ساحة العمل الصحفي والسياسي .

ولم تكن صحف «التايمز» و«الديلي نيوز» في لندن هي وحدها التي كتبت ذلك ، وإنما جريدة «المقطم» في مصر أيضاً ، وغيرها من الصحف العميلة للاحتلال ، كتبت تقول إن عبد الله النديم يعد الرأي العام في مصر لثورة اخرى كالثورة العرابية .

ولكن النديم لا يخاف . ابن البلد لا يخاف . ابن البلد الوطني صاحب المبدأ والمؤمن ببلده .. لا يخاف .

ولكن الخديو .. يخاف !

ففي ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ قام الخديو عباس بإقالة رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمي .. وتعيين حسين فخري باشا رئيساً جديداً للوزراء . هنا بالضبط وقعت الواقعة . كيف يجرؤ خديو مصر على اختيار رئيس وزراء لمصر بغير أن يستأذن السلطة الحقيقية في مصر – سلطة الاحتلال ؟

ولعدة أيام بعدها ظل السؤال مطروحاً : هل يتراجع الخديو .. أو لا يتراجع ؟ يتراجع .. أو لا يتراجع ؟

النتيجة : يتراجع !

فمع خديو بهذا الشكل .. بتقاليده العائلية إلى هذا العمق .. حيث جده أوصل مصر إلى الخراب .. وأبوه أوصلها إلى الاحتلال .. تصبح الوطنية بالنسبة له ترفاً لا يساوي عناؤه !

لقد تراجع الخديو اذن ، ووقع على القرار الذي أعده له كرومر باختيار رياض باشا رئيساً للوزراء .

ولكن ، خلال تلك الأزمة بين عباس وكرومر .. فان كليهما تعلم درساً من الآخر .

تعلم الخديو أن مقاومة الاحتلال ليست مجرد نزوة .. وإنما هي عمل وتخطيط وتضحية متواصلة .. يعجز هو شخصياً عنها .

وتعلم كرومر درساً آخر ان الخطر على الاحتلال البريطاني لمصر قائم .. طالما ظل هناك شعب في مصر . ولسان لهذا الشعب في صحافة مصر .

لهذا كان طلب كرومر قاطعاً : يجب إغلاق جريدة «الاستاذ» .. ونفي عبد الله النديم . والخديو الذي باع جده مصر كلها تقرباً لأوربا .. مستعد لأن يبيع لسان الشعب أيضاً .. تقرباً لكرومر !

وهكذا .. صدر العدد الأخير من جريدة «الأستاذ» في يوم ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣ ، وفيه يودع عبد الله النديم قراءه .. بغير أن يذكر السبب .. فالجميع يعرفون السبب . مع ذلك .. فحتى في لحظة محنته الثانية ، يذكّر النديم قراءه بأنه «.. ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال»

إن النديم ، حتى في لحظة محنته ، لا يشكو .. ولا يستعطف .. ولا يتوسل .. ولا يسترحم .. والأهم من هذا كله .. لا يندم . صاحب المبدأ والقضية لا يندم . انه يأخذ كل محنة باعتبارها ثمناً غير مفاجئ لإيمانه بمبدأه وقضيته . انه لا يندهش من محنة جديدة لا تلم به ، ولا يتحسر على ثروة ضاعت منه . ان ثروته موجودة في داخله ، يحملها معه اينما ذهب . ثروته هي ضميره . طالما الضمير لم يتلوث .. والذراع لم تضعف .. والقلب لم ينهار .. والقلم لم يبع نفسه في سوق الرقيق السياسي .. اذن فهو أقوى وأغنى من أي إنسان في العالم .

إن ثروته الحقيقية هي إيمانه بمبدأه ، واحترام الناس له ، وقلقهم عليه الذي هو أصلاً انعكاس لقلقهم على مصر . انه ابن بلد .. وابن البلد قد وهب عمره لهذا التراب الذي أحبه . وهو محارب .. والمحارب يرى كل نكسة باعتبارها تحدياً لقدرته على النهوض من جديد . وهو عاشق ..

والعاشق لا يعيد النظر في حبه كل يوم على ضوء مكسب أو خسارة . لقد عشق وأحب وانتهى الأمر .

لقد حافظ على مبدأه .. في وقت باع فيه الكثيرون نفوسهم .

وهو قد استمر يضحي بنفسه .. في الوقت الذي رأى فيه الكثيرون يضحون ببلدهم في سبيل أنفسهم .

وهو لم يحلم بثروة .. في الوقت الذي ولدت فيه ثروات في غمضة عين بسبب خيانة أو عمالة أو إدارة للخد الآخر .

وهو لم يتنكر أبداً للحارة التي خرج منها ، ولا ترفع على الشارع الذي تربى فيه .. ولا نسي لحظة الأغلبية المطحونة التي آمن بها .

وهو لم يفكر أبداً في أن عمر الإنسان مهم من حيث هو . إنما العمر مهم بقدر عمق القضية التي يكرس نفسه من أجلها .

وهو لم يبع قلمه في الوقت الذي باع فيه الكثيرون ضمائرهم في سوق الرقيق . ولم ينافق حينما أصبح النفاق هو العملة الرائجة . ولم ترتعش يده طوال عمر أحاط به الإرهاب من كل جانب . ولم يصمت في وقت كان الصمت فيه يساوي ذهباً وسلامة .

لقد نشر في مصر الخطابة ، وربى جيلاً كاملاً من الخطباء ، وأعطى لابن البلد صحافته التي يرى فيها مرآة لهمومه وأحلامه .

إنه الآن يغادر مصر إلى يافا .. بعدها بأربعة أشهر إلى الآستانة ، حيث سيبقى هناك تحت الحماية – حماية جواسيس السلطان . في

الطريق يصبح الوقت متاحاً للتأمل .. والفحص .. والمراجعة . وحينما يراجع النديم حياته يجد أن الخيط الرفيع الذي لم ينقطع طوالها هو «اتبع الحق وان عز عليك ظهوره» . مبدأ آمن به النديم ، ومارسه ، ودفع الكثير الكثير من أجله .

لقد نجح النديم في ذلك لأنه احتفظ بسر بسيط للغاية : ان الحياة تقاس بمعناها .. ولا تقاس بطولها .

الآستانة .

الأحد ــ ١٠ أكتوبر .

. ١٨٩٦

إثنان في هذه المدينة ، عاصمة الإمبراطورية العثمانية ، تنهدا الليلة عندما بلغهما الخبر . خبر موت عبد الله النديم .

أما الأول فهو السلطان العثماني عبد الحميد نفسه ، فلقد تنهد تنهيدة ارتياح بعد أن أحله الموت من التفكير في طريقة للتخلص النهائي من عبد الله النديم . الآن .. وقد مات هذا المحارب بقلمه ، والمناضل بضميره ، فلا بأس من أن يقرر السلطان الاحتفال بجنازته رسمياً . انه لم يحتفل بوصوله ، ولا باقامته ، ولا بنضاله ، ولكنه الآن مستعد للاحتفال بموته !

أما الثاني فكان شيخاً معمماً ، رأى في النديم ابناً له وهو بلا أبناء .. وتلميذاً لأفكاره وهو مبعد عن التلاميذ .. ووطنياً صادقاً في وقت تتراجع فيه الوطنية ويشح الصدق .

لقد تنهد الشيخ المعمم ، تنهيدة ألم وحسرة وتسليم بقضاء الله ، وانطلقت من عينيه دمعة ساخنة ملتهبة ، وأمسك بمسبحته متمتماً : لا حول ولا قوة إلا بالله .. ثم أسرع إلى منزل النديم في الآستانة ...حيث لن يخرج منه إلا في اليوم التالي متقدماً الجنازة .

كان هذا الشيخ هو جمال الدين الأفغاني .. الرجل الذي أنجب جيلاً من الثوار في مصر .

إن الأفغاني ، حينما تم نفيه من مصر على يد الخديو توفيق ، لم يكن متأكداً بعد من أن تلاميذه .. وعبد الله النديم في مقدمتهم .. سيقودون بعده ثورة ، هي ثورة عرابي .

والآن يموت عبد الله النديم ، بغير أن يتأكد بعد ، من أن حياته وقلمه ونضاله .. قد أنجب هو الآخر جيلاً جديداً .. سيقود من بعده حركة وطنية كبرى بزعامة مصطفى كامل .. وثورة شعبية ضخمة ، هي ثورة سنة ١٩١٩ .

إن الطاغية يفرخ حوله طغاة صغار . ولكن الثائر ينجب من بعده ثواراً كبار .

فبعد عبد الله النديم لم تعد مصر أبداً إلى ما كانت عليه .

ولثلاثة أجيال كاملة ، ظلت مصر ، شعباً وأرضاً ، تدفع ثمن حماقة ممثل رديء ، هو الخديو اسماعيل .

وحياة عبد الله النديم كانت مجرد جزء بسيط من الثمن !

المحتويات

الصفحة

كتب للمؤلف

دراسات سياسية

ممنوع من التداول	(دار الشروق)	الطبعة السابعة
أفكار اسرائيلية	(كتاب الإذاعة)	الطبعة الثانية
الحرب الرابعة — سري جداً	(المكتب المصري)	الطبعة الثالثة
متمردون لوجه الله	(دار الشروق)	الطبعة الأولى

دراسات أدبية

أفكار ضد الرصاص	(دار الشروق)	الطبعة الرابعة
شخصيات	(دار المعارف)	الطبعة الثانية
سياحة غرامية	(دار الشروق)	الطبعة الثالثة
مصري بمليون دولار	(مكتبة الأنجلو)	الطبعة الثالثة
أوراق إلى حبيبتي	(دار الشروق)	الطبعة الأولى

دراسات فنية

أم كلثوم التي لا يعرفها أحد	(كتاب اليوم)	الطبعة الثالثة
محمد عبد الوهاب الذي لا يعرفه أحد	(دار المعارف)	الطبعة الثانية

في الرواية والقصة

أرجوك لا تفهمني بسرعة	(روز اليوسف)	الطبعة الثانية
شيء يشبه الحب	(كتاب اليوم)	الطبعة الأولى

مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN